طليطلة في عصرها الإسلامي

" ٩٢ - ٤٧٧ هـ ، ٧١٢ - ١٠٨٥ م "

دكتور
محمد بركات البيلي
كلية الآداب — جامعة القاهرة

الناشر
دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة

مطبعة جامعة القاهرة
والكتاب الجامعي
١٩٩٣

مقدمة

كانت طليطلة حين فتحها المسلمون واحدة من كبريات المدن الأندلسية اتخذها القوط قبل الفتح الاسلامى للأندلس حاضرة سياسية ودينية لا سيما وأن موقعها فى وسط الأندلس كان يؤهلها لأن تكون حاضرة نموذجية •

وقد أدرك طارق بن زياد ــ فاتح الأندلس ــ الأهمية الاستراتيجية لمدينة طليطلة فاتجه صوبها مباشرة بعد معركته الظافرة الحاسمة عند شذونه وكان على الحكم العربى للأندلس أن يقدر طليطلة حق قدرها ويتخذها حاضرة له ليسهل عليه السيطرة على كافة أرجاء شبه جزيرة أيبيريا من جهة ، ومن جهة أخرى ليتخذها قاعدة انطلاق نحو مزيد من الفتوح فى الأرض الكبيرة (أوروبا) لكن الحكم العربى تجاهل مكانة طليطلة وأهميتها الاستراتيجية واتخذ قاعدته فى الجنوب فى اشبيلية ثم فى قرطبة فكان لذلك عواقب وخيمة كان من أبرزها جنوح طليطلة الى التمرد والعصيان على الحكومة المركزية فى قرطبة فقل أن يمر وقت على طليطلة لم ترفع فيه راية الثورة والتمرد مما استنفد جزء كبيرا من طاقات الحكومة المركزية وطاقات طليطلة معا •

غير أن القلاقل السياسية التى انغمست فيها طليطلة فى عصرها الاسلامى والتى أدت الى مسارعتها الى الاستقلال عن الحكومة المركزية لتكون مقرا لاحدى ممالك الطوائف يحكمها بنو ذو النون حتى سقطت فى أيدى نصارى الأسبان ، لم تمنع طليطلة من المشاركة فى بناء الحضارة الأندلسية وأن تسهم فى هذا البناء بنصيب وافر وقدمت كثيرا من العلماء النابهين والأعلام البارزين الذين ملأ صيت بعضهم مشرق العالم الاسلامى ومغربه وتعدى حدود ذلك الى أوروبا •

كان سقوط طليطلة ــ على أهميتها الاستراتيجية البالغة ــ فاجعة أليمة نبهت مسلمى الأندلس الى اهتزاز كيانهم فى الأندلس فى ظل دويلات الطوائف فرنوا بأبصارهم صوب العدوة المغربية يستنجدون بقوة المرابطين الفتية ولكن المسلمين لم ينجحوا فى استرداد طليطلة مرة أخرى •

ويبدو أن ضياع طليطلة المبكر من أيدى المسلمين وتعمد الأسبان النصارى طمس المعالم الاسلامية فى طليطلة قد أدى الى طمس بعض ملامح الهوية الاسلامية لطليطلة من ناحية وزهد الدراسين فى دراسة طليطلة فى عصرها الاسلامى من ناحية أخرى فلم تلق مدينة طليطلة من الدراسين ما يليق بسكانتها وأهميتها من اهتمام وركز الدارســون الأسبان اهتمامهم على طليطلة الأسبانية اكثر بكثير من طليطلة الاسلامية اسهاما منهم فى طمس الهوية الاسلامية لطليطلة التى اتخذها الأسبان بعد استيلائهم عليها حاضرة لهم ردحا من الزمن قبل أن يتحولوا الى اتخاذ حاضرتهم فى مجريط .

ولما كانت المكتبة العربية تفتقد الى دراســة متكاملة عن طليطلة فى عصرها الاسلامى فقد عمدت الى الاسهام فى سد بعد النقص بتقديم هذه الدراسة المتواضعة التى بين يدى القارىء لكننى لا أدعى أننى قدمت بهذا الجهد المتواضع ما يروى الغليل اذ كان لطليطلة فى عصرها الاسلامى من الأهمية ما يستوجب المزيد من عناية الدارسين واهتمامهم .

وبالله التوفيــق

محمــد بركات البيلى

التاريخ السياسى لطليطلة
فى عصرها الاسلامى

١ ـ فتح طليطلة ٠

٢ ـ طليطلة فى عصر الولادة ٠

٣ ـ طليطلة فى عصر الامارة ٠

٤ ـ طليطلة فى عصر الطوائف حتى سقوطها فى أيدى نصارى الأسبان ٠

طليطلة قبيل الفتح الاسلامى

طليطلة (١) اسم معرب عن الأصـل اللاتينى Toletum وان كانت المصادر العربية تتفاوت – قليلا – فيما بينها حين تصوغ الاسم اللاتينى بحروف عربية كما تختلف فى تفسيرها لمعنى ذلك الاسم أو تأويله ، فمنها من يذكر أن طليطلة باللطينى « تولاطو » معناه فرح ساكنوها (٢) ومنها من يذكر أنها « بزليطله وتأويل ذلك أنت فارح » (٣) .

ومدينة طليطلة أوليه قديمة البناء ، تختلف المصادر الاسـلامية فى تحديد أول من بناها (٤) غير أنه من المؤكد أن مدينة طليطلة كانت قائمة قبل أن يغزو الرومان شبه جزيرة أيبيريا ومن ثم فهى مدينة أيبيرية قديمة وان كان ذكرها قـد ورد فى الكتابات التاريخية لأول مرة لدى المؤرخ الرومانى ليفى Livy الذى أشار الى أن طليطلة Toletum كانت حين

---

(١) يضبطها الزهرى (الجغرافية ، ص ٨٣) بضم التاء الأولى وكسر الثانية بينما يضبطهاياقوت الحموى (معجم البلدان ، مادة طليطلة) بضم الطائين وفتح للامين ، وكذلك القزوينى : آثار البلاد وأخبـار العباد ، مادة طليطلة .

(٢) البكرى : جغرافية الأندلس وأوروبا ، ص ٨٦ .
والحميرى : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، مادة طليطلة .

(٣) المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، جـ ١ ص ١٥٢ ولا يذكر ابن سعيد (المغرب فى حلى المغرب ، جـ ٢ ص ٢٨) أسمها اللاتينى لكنه يذكر تأويل اسمها على أنه « انت فارح » وكذلك أبو الفدا (تقويم البلدان ، ص ١٧٧) .

(٤) يذكر الزهرى (الجغرافية ، ص ٨٣) أنها من بنيان الخزر الذين كانوا – فى رأيه – فى عهـد ابراهيم عليه السلام . وبينمـا يرى البكرى (المصدر السابق ص ٨٦) أن القياصرة وجدتها مبنية ، يرى ابن سعيد (المصدر السابق ، ص ٢ ص ٨) أنها بنيت فى مدة قيصر آلتيبان الذى يؤرخ من مدته الصفر (ولعله يقصد اكتافيوس) ويرى كل من الادرسى (المغرب وارض السودان ومصر والاندلس ص ١٨٧) والمقرى (نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٥٣) أنها من بناء العمالقة . وينقل ابن حيان (المقتبس ، جـ ٥ ص ١٨٠) عن الرازى أنها من بناء ديوسقيوس ، لكنه لا يلبث أن ينقل (ص ١٨٥) عن صاعد الطليطلى أنها لايعرف من بناها ولا زمانه » .

الغزو الرومانى لشبه جزيرة أيبيريا بلدة صغيرة استولى عليها القائد الرومانى ماركوس فولفيوس نوبيلور فى شىء من العناء والمشقة سنة ١٩٣ ق.م (١) .

وقبيل الفتح الاسلامى لشبه جزيرة أيبيريا كانت طليطلة أهم المدن قاطبه فى شبه الجزيرة ، تتبوأ المكانة الأولى فى أسبانيا القوطية سياسيا ودينيا ، ففضلا عن كونها حاضرة القوط السياسية ، فقد كانت مقر الكرسى الأسقفى فى أيبيريا ، ومنذ أن اتنصر الملك القوطى ريكاريد Ricardo للكاثوليكية واتخذها مذهبا رسميا للقوط سنة ٥٨٧ م (٢) أصبح مطرانها يمثل السلطة البابوية فى شبه جزيرة أيبيريا وعلت مطرانيتها على سائر المطرانيات الأسبانية (٣) وانعقدت بها المجالس أو المجامع الدينية للنظر فى الأمور الهامة لدولة القوط ، واذا كانت تلك المجالس فى أول أمرها مجرد مجالس دينية يعقدها كبار القساوسة للنظر فى شئون الكنيسة فقد أصبحت منذ أن تمذهب ريكاريد بالكاثوليكية تجمع بين الصبغتين الدينية والسياسية معا وتنعقد بدعوة رسمية من الملك القوطى لتنظر فى كافة أمور الدولة القوطية وشئونها ، دينية كانت أو دنيوية (٤) .

واذا كان القوط الغربيون قد استولوا على طليطلة فى سنة ٤١٨ م ، فانهم لم يتخذوها حاضرة لهم الا منذ سنة ٥٦٧ م فى عهد ملكهم أثانا خيلد Athangildo (٥) فارتقت بذلك مكانت طليطلة وعلت الى الذورة وتقدمت على سائر المدن الأيبيرية باعتبارها الحاضرة السياسية والدينية معا ، واهتم ملوك القوط منذئذ بعمرانها وعنوا أشد العناية ببنيانها وزودوها بآثارهم الجليلة وأطلق عليها اسم المدينة الملكية

---

(١) ليفى بروفنسال ، مادة طليطلة ، دائرة المعارف الاسلامية .
(٢) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ص ٥٥ ، وحمدى عبد المنعم حسين : اضواء جديدة حول ثورات طليطلة فى عصر الامارة الأموية ، ص ٤ ، و
Jon Read; The Moors in Spain and Portugal. p. 32.
(٣) حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٤٨٨ .
(٤) نفس المرجع ، ص ٢٣ و Jon Read, op. cit. p. 32
(٥) Haines; Christanty and Islam in Spain, p. 7.

The royal City (١) أو مدينة الملوك (٢) وصارت « قاعدة القوط ودار مملكتهم ومنهـا كانوا يغزون عـدوهم واليهـا كانت تجتمـع جنودهم » (٣) . وظلت طليطلة أعظم مدن أيبيريا قدرا وأعلاها مكانة وحاضرة للقوط بقيـة حكمهم وحتى عهـد لذريق Roderic آخر ملوكهم (٤) .

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٥٥

Dozy; Spanish Islam, p. 246.

(٢) القزوينى : المصدر السابق ، مادة طليطلة .

ويدعوها المقرى (نفح الطيب ، جـ ١ ص ١٥٢) مدينة الأملاك .

(٣) ابن حيان : المقتبس جـ ٥ ، نشر شالميتا ص ١٨٥ .

والبكرى : المصدر السابق ، ص ٨٧ .

وابن سعيد ، الجغرافيا ص ١٧٩ .

والمقرى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٥٣ .

(٤) Levi Provençal; Histoire de l'EspagneMusulmane, Vol. I, p. 23.

فتح طليطلة

دخل المسلمون شبه جزيرة أيبيريا التى أطلقوا عليها حين دخولهم اياها أسم الأندلس (١) ومهما قيل عن الأسباب والعوامل التى دفعت المسلمين الى دخول الأندلس (٢) ،فقد كان دخولهم اياه فتحا مبينا أضاء جنبات الأندلس بنور الاسلام وحضارته فى وقت كانت أوروبا لا تزال ترسف فى أغلال الجهالة وظلمات قرونها الوسطى .

وقد كان الفتح الاسلامى للأندلس اعجازا بكل المقاييس ، أنجزه المسلمون فى فترة قصيرة فلم يتسن لغيرهم — حتى الرومان — أن يفتحوا أيبيريا فى مدة أقصر منها أو تدانيها .

ويمكن القول ان مصير هذا الفتح الاسلامى لأيبيريا قد تحدد منذ معركته الأولى الحاسمة التى وقعت بين مدينتى شذونة وشريش والتى

---

(١) أطلق اسم الأندلس على ما كان بحوزة المسلمين من ايبيريا ومن ثم كان مدلول الأندلس يتقلص كلما تقلص سلطان المسلمين شيئا فشيئا عن أجزاء من شبه الجزيرة الأيبيرية .

(٢) قيلت عن أسباب فتح المسلمين للأندلس أقوال عديدة منها ما يتعلق بالتنافس على العرش القوطى وجهود أبناء غيطشة لاستعادة العرش من لذريق عن طريق التحالف مع المسلمين ومنها ما يتعلق بدور الكونت يوليان حاكم سبته فى تحريض المسلمين على الدخول الى الأندلس انتقاما من لذراق اما لانتماء يوليان للحزب الغيطشى أو لانتقامه لشرف ابنته فلورندا الذى اهدره لذريق باعتدائه على ابنه يوليان الجميلة . لكننا لا نقبل أن تكون مثل هاتيك الأسباب هى الدوافع الحقيقية التى دفعت المسلمين الى فتح الأندلس وانما كان فتح الأندلس — فى رأينا — امتدادا طبيعيا لحركة الفتوح الاسلامية التى كانت تهدف الى نشر الدعوة الاسلامية فى العالمين ، ومن ناحية أخرى كان فتح الأندلس نتيجة للأحوال التى أصبحت عليها بلاد المغرب الاسلامى بعد فتح المسلمين اياها وانضمام جموع من المسلمين الجدد من البربر الى الجيش الاسلامى وضرورة استنفاد طاقاتهم والافادة منها فى فتوح تفيد الاسلام كيلا ينفسون عن هذه الطاقات فى عصيان أو تمرد على الحكومة الاسلامية لبلاد المغرب ولما كان عبور بحر المجاز — مضيق جبل طارق — وقتئذ أيسر من اختراق الصحراء الكبرى الافريقية ، فقد كان من الطبيعى أن يتجه الفتح الاسلامى شمالا الى شبه الجزيرة الأيبيرية .

تحمل فى النصوص مسميات عدة ، فتسمى معركة البرباط أو معركة وادى لكه أو معركة الخندق أو معركة شريش مما يدل على اتساع ميدانها وحمى وطيسها وتعدد وقائعها وجولاتها من ناحية كما يدل على شدة مقاومة القوط واستبسال المسلمين وعظم انجازهم من ناحية أخرى .

فقد أسفرت هذه الموقعة الحاسمة عند انتصار المسلمين انتصارا عظيما أجهزوا فيه على القوة الرئيسية للقوط ، وسواء كان لذريق ملك القوط قد قتل فى تلك المعركة أو فى معركة لاحقة ، فقد أجهز المسلمون فيما بين مدينتى شذونة وشريش على معظم الجيش القوطى وفتكوا بخيرة مقاتلية حتى أصبح من المتعذر على القوط وقف الزحف الاسلامى أو الحيلولة دون استيلاء المسلمين على الأندلس والقضاء نهائيا على دولة القوط فى أيبيريا .

وقد أدرك طارق بن زياد — فاتح الأندلس العظيم — أن الخطوة الهامة التى يجب أن تتلو الانتصار الأول الساحق هى ضرورة الاستيلاء على مدينة طليطلة حاضرة القوط وأهم المدن قاطبة فى شبه الجزيرة الأيبيرية سواء من الناحية السياسية أو الاستراتيجية أو الدينية مما يجعل لفتحها دلالة خاصة وأهمية بالغة .

وسواء كان ادراك طارق بن زياد لأهمية وضرورة فتح طليطلة ادراكا ذاتيا أدركه بنفسه أو كان بايعاز من يوليان حاكم سبته وحليف المسلمين (١) فقد اتجه طارق بن زياد — عقب انتصاره الحاسم بين مدينتى شذونة وشريش — صوب طليطلة فى معظم قواته (٢) قاطعا اليها اكثر من ستمائة كيلو متر فى أرض وعرة (٣) وبأقصى ما يمكنه من سرعة ، غير عابىء بالصعاب التى يمكن أن تعترض سبيله حتى وصل الى مدينة طليطلة ودخلها دون مقاومة تذكر ، اذ وجد المدينة شبه خالية « ليس فيها الا اليهود فى قوم قلة وفر علجها مع أصحابه ولحق بمدينة خلف الجبل

---

(١) اخبار مجموعة ص ١٩ وابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة ، جـ ١ ص ١٠٦ .

(٢) Dozy; op. cit. p. 232.

(٣) مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٣٦ .

وتبعهم طارق بعد أن ضم اليهم وخلى معهم رجاله وأصـحابه بطليطلة فسلك الى وادى الحجارة » (١) •

لا تضيف المصادر الاسلامية فيما كتبته عن فتح طليطلة كثيرا الى ما أثبتنا نصه عن ابن عذارى فيما عدا اطنابها فى وصف الكنوز التى قيل ان الفاتحين المسلمين وجدوها بطليطلة (٢) فضلا عن تسجيل بعض الأساطير التى أشيعت حول فتح طليطلة خاصة الاسطورة التى حيكت عما أسموه « مائدة سليمان » والتى لا تمت لسليمان عليه السلام بصلة ولم تكن فى حقيقتها الا مائدة مذبح الكنيسة العظمى بطليطلة (٣) • واسـطورة « البيت المغلق » الذى كان ملوك القوط يتحاشون فتحه ثم تجرأ لذريق آخر ملوك القوط على فتحه فوجد فيه صورا للعرب مرسومة ومكتوبا معها أنهم يفتحون البلاد اذا تجرأ أحد على فتح هذا البيت المغلق (٤) •

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب فى اخبار الأندلس والمغرب ، جـ ١ ص ١٥٢ .

(٢) انظر تفاصيل ذلك عند كل من : المقرى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٥٢ . والحميرى : الروض المعطار فى جبر الأقطار ، مادة طليطلة .

والادريسى : المصدر السابق ، ص الذى يصفها بأنها :

« ذخائر كادت تفوق الوصف كثرة منها انه وجد بها ١٧٠ تاجا من الذهب مرصعة بالدر .. ووجد بها ألف سيف مجوهر ملكى ووجد بها من الدر والياقوت أكيال وأوساق ووجد بها من أنواع آنية الفضة والذهب ما لا يحيط به تحصيل » .

(٣) رددت المصادر الاسلامية اسطورة « مائدة سليمان » على الرغم من أن حقيقتها لم تكن خافية على البعض ، اذ يذكر الحميرى (الروض المعطار ، مادة طليطلة) « انها لم تكن لسليمان وانما أصلها أن العجم فى أيام ملكهم كان أهل الحسبة فى دينهم اذا مات احدهم أوصى بمال للكنائس فاذا اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منه آلات من الموائد والكراسى وغيرها من الذهب والفضة يحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الأناجيل اذا ابرزت أيام المناسك ويضعونها على المذابح فى الأعياد للمباهاة بزينتها فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صنع فى هذه السبيل ، وبالغت الأملاك فى تحسينها .. وكانت توضع على مذبح كنيسة طليطلة فأصابها المسلمون هناك » .

(٤) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٣٣ .
والمقرى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٣جـ٣ .
والحميرى : المصدر السابق ، مادة طليطلة .
والقزوينى : المصدر السابق ، مادة طليطلة .

وعلى الرغم من قلة المحصول أو الفائدة من مثل هاتيك الأساطير عند كتابة التاريخ (١) فانها تدل دلالة خاصة على ما كانت عليه مدينة طليطلة من أهمية حينما فتحها المسلمون ، اذ أنه من المعتاد أن تذيع بعض الأساطير حول المدن الهامة ، عند نشأتها أو سيرتها أو ما الى ذلك على نحو ما شاع من أساطير عن نشأة مدن مثل روما أو القسطنطينية أو القاهرة أو غيرها .

شغلت المصادر الاسلامية بكتابة الأساطير حول فتح الأندلس عن تتبع دقائق فتح طليطلة فلم تسجل شيئا ذا بال عن مصير أهلها الفارين منها ولا عن عودتهم اليها مع أنه يتبين لنا من خلال الأحداث التالية للفتح أن المدينة قد ضمت بعد الفتح الاسلامى الكثير من أهلها الأصليين ، منهم من أسلم ومنهم من تعرب دون أن يدخل فى الاسلام مما يدل على عودة كثير من الفارين الى مدينتهم ، لكن المصادر لا توضح لنا كيفية عودتهم وان كان من المعتقد فيه أن أهل طليطلة لم يفروا منها جميعا حينما قدم اليها الفاتحون المسلمون ، فقد أشار ابن عذارى الى بقاء قلة منهم مع اليهود فى المدينة (٢) ، أما الفارون فكان على رأسهم سندريدو مطران طليطلة ومعه كبار قساوسته الذين توجهوا معه الى روما (٣) . ويذكر ابن عذارى فرار علج المدينة ، وسواء كان العلج المشار اليه هو سندريدو مطران طليطلة أو كان العلج المقصود هو قائد حامية المدينة القوطى ، فان الفارين من طليطلة كانوا هم رجال السلطة من الساسة والقساوسة وربما صحبهم بعض المتخوفين من الفتح الاسلامى ، لكن أهل المدينة لم يفروا جميعا منها وانما بقى منهم من صالح الفاتحين عليها اذ يذكر الدكتور مؤنس — استنادا الى سيمونيت — أنهم صالحوا على أنفسهم بشروط خاصة « احتفظوا فيها ببلدهم شبه مستقل واحتفظوا بحكومة محلية

(١) من الغريب أن يهتم برنارد لويس بتسجيل تلك الأساطير اكثر من اهتمامه بأحداث الفتح الاسلامى للأندلس

Lewis, B., Islam from The Prophet Muhammed to the capture of Constantinople, I, pp. 112-113.

(٢) البيان المغرب ، جـ ١ ص ١٥٢ .

(٣) حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٧٩ و

Dozy, op. cit., p. 232

Levi-Provencal, Histoire de l'Espagne Musulmane, I, p.23.

يقيمونها بأنفسهم واحتفظوا بمعظم كنائسهم ورجال الدين الذين بقوا فيها بعد فرار المطران وبعض رجاله » (١) •

مما سبق ، يمكن القول ان صلحا قد تم بين أهل طليطلة والفاتحين المسلمين ، ولعل أهل طليطلة قد بادروا الى طلب هذا الصلح بعد أن تخلت عنهم حامية المدينة وفر عنها أهل السلطتين السياسية والديانية معا مما يفسر دخول طارق بن زياد المدينة دون مقاومة ، ولعل ابن حيان قد أومأ الى ذلك حين عزا فتح طليطلة الى « ريح الدولة واقبال الاسلام وعز الديانة الحنيفية ، اذ كانت الفتن بين أهلهـا مع ذلك قد شعثت حالهم وفلت كثرتهم » (٢) الا أننا لا نميل الى القول بأن أهل طليطلة قد نالوا شروطا خاصة احتفظوا فيها ببلدهم شبه مستقل واحتفظوا فيها بحكومة محلية يقيمونها بأنفسهم لأن أهل المدينة لم يظهروا من المقـاومة ما يجعـل طارق بن زياد يستميلهم بمثل هذه الشروط على نحو ما حدث فى فتح تدمير بعد ذلك على يد عبد العزيز بن موسى بن نصير فضلا عن أن منح طارق اياهم مثل هذه الشروط الخاصة المزعومة يعنى أنه قد قرر سلفا ألا يتخذ من طليطلة حاضرة للحكم الاسلامى فى الأندلس وهو الأمر الذى لم يكن قد تقرر بعد ولم تكن لطارق صلاحية اتخاذ قرار فيه وانما كانت صلاحية اتخاذ مثل هذا القرار لموسى بن نصير الذى كان قد أرسل الى طارق بالتوقف ــ أو عدم التصرف ــ وبادر الى العبور الى الأندلس ليتصرف فى شئونها بنفسه •

واذا كانت مدينة طليطلة قد نالت من الفاتحين المسلمين معاملة حسنة فلم يمس المسلمون مقدسات المدينة بأذى وحافظوا على كنائسها وأديرتها ولم يستولوا على شيء منها الا كنيسة القديسة مريم « سانتا ماريا » التى كانت مقر الكرسى الاسـقفى والقـاعدة الكبرى للمسيحية فى أسبانيا (٣) ، فليس من اللازم ارجاع تلك المعاملة الحسنة الى شروط خاصـة نالها أهل طليطلة من الفاتحين المسلمين وانما هى طبيعة الفتوح الاسلامية على وجـه العموم ، فقد كان من النادر أن يهـدم الفاتحون

---

(١) فجر الأنددلس ، ص ٥٠٥ •
(٢) المقتبس ، جـ ٥ نشر شالمتيا ، ص ١٨٣ •
(٣) Simonet; Historia de los Mosarabes des Espana. p. 166.
ومؤنس : المرجع السابق ، ص ٥٠٥ •

المسلمون كنيسة أو يخربوا ديرا أو بيعة فى أى بلد فتحوها وانما كان ديدنهم التسامح دائما مع أهل الذمة واحترام حرياتهم الدينية والحفاظ على مقدساتهم وهذا ما فعلوه فى طليطلة ، واذا كانوا قد استولوا فيها على كنيسة سانتا ماريا فقد كانت دلالة ذلك سياسية أكثر منها دينية ، اذ أن مطران الكنيسة قد فر عنها رافضا التعايش مع الحكم الاسلامى وراغبا عن التصالح مع الفاتحين المسلمين مما يجعل الكنيسة فيئا للمسلمين ويدخل استيلاؤهم عليها فى نطاق المشروعية لا سيما وأن سلطة المطران الطليطلى لم تكن تقتصر على السلطة الكنسية وانما كان يعد مشاركا فى السلطة السياسية منذ أن أصبح لمجلس طليطلة الكنسى نفوذ سياسى فى عهد الملك القوطى ريكاريد ، وفضلا عن ذلك فقد خفف من الدلالة الدينية للاستيلاء على كنيسة سانتا ماريا أن الفاتحين المسلمين قد سمحوا لنصارى طليطلة بنقل مقر المطرانية الى كنيسة أخرى هى كنيسة القديسة ماريا دى الفينين Santa Maria de Alficen وسمحوا لهم أيضا أن ينقلوا اليها وثائقهم وكافة أوراقهم وكل ما كان فى المقر القديم من ذخائر ، وظل المقر الجديد للمطرانية مصونا طيلة الحكم الاسلامى لطليطلة (١) .

---

(١) Simonet; op. cit. p. 166

ومؤنس المرجع السابق ، ص ٥٠٥ .

طليطلة فى عصر الولاة

يمكن القول ان عصر الولاة بالنسبة لطليطلة يمتد لنصف قرن من الزمان منذ افتتحها طارق بن زياد سنة ٩٢ هـ وحتى تولية عبد الرحمن ابن معاوية الداخل أول ولاته عليها سنة ١٤٢ هـ وكان رجلا من سكانها من ولد سعد بن عبادة الأنصارى (١) ، فمع أن عبد الرحمن الداخل قد نجح فى اقامة الامارة الأموية فى قرطبة منذ أواخر سنة ١٣٨ هـ ، الا أن أول عماله على طليطلة لم يتولها الا بعد ذلك فى سنة ١٤٢ هـ بعد مقتل يوسف بن عبد الرحمن الفهرى بنواحيها •

ومن الملاحظ أن طليطلة فى عصر الولاة لم تنل الا أقل القليل من اشارات المصادر الاسلامية اليها مما يعكس تدهور شأن طليطلة عما كانت عليه قبل الفتح الاسلامى من جهة وقلة مشاركتها فى الأحداث الهامة فى عصر الولاة فى الأندلس • وعلى الرغم من ذلك فثمة قضايا هامة تتعلق بطليطلة فى عصر الولاة ينبغى دراستها ومنها :

عدم اختيار طليطلة حاضرة للحكم الاسلامى :

على الرغم من ادراك طارق بن زياد المبكر للأهمية الاستراتيجية والسياسية لمدينة طليطلة مما جعله يتوجه الى فتحها فور انتصاره الحاسم عند وادى بكة فاننا لا نجد واحدا من حكام الأندلس المسلمين طيلة الحكم الاسلامى لطليطلة — والذى امتد زهاء أربعة قرون منذ فتحها سنة ٩٢ هـ وحتى سقوطها فى أيدى نصارى الأسبان سنة ٤٧٧ هـ — يشاركه هذا الادراك لأهمية طليطلة •

فالواقع أن حكام الأندلس المسلمين غفلوا — أو تغافلوا — عن أهمية هذه المدينة فتجاوزوها ولم يتخذوها حاضرة لهم وتحولوا عن « موسطة الأندلس » الى جهة الجنوب على مقربة من العدوة والمجاز

---

(١) ابن القرطية ، تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ٥٢ •

متخذين فى البداية من اشبيلية حاضرة للحكم الاسلامى فى ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير ثم عدلوا عنها بعده الى قرطبة لتظل حاضرة الأندلس لقرون عديدة . ولتبقى طليطلة طيلة عصرها الاسلامى فى غير المكانة التى كانت تتبوأها فى عهد القوط .

وأغلب الظن أن الحكم الاسلامى فى الأندلس باتخاذه حاضرته فى الجنوب وتغافله عن أهمية طليطلة « موسطة الأندلس » قد ارتكب خطأ استراتيجيا فادحا يصعب تبريره أو فهم دوافعه من ناحية ، كما يصعب تجاهل عواقبه الوخيمة ونتائجه الخطيرة من ناحية أخرى ، تلك العواقب التى لم تقتصر على عصر الولاة وحده ، وانما امتدت طيلة التاريخ الأندلسى بأكمله .

وليس من الصواب أن يعزى هذا الخطأ الاستراتيجى الفادح الى عصر الولاة وحده وانما تشاركه المسئولية عنه بقية أعصر الحكم الاسلامى فى الأندلس اذ أن أى منها لم يعمل على تصحيح هذا الخطأ حتى فجع المسلمون جميعا بسقوط طليطلة فى أيدى نصارى الأسبان ، وكان سقوطها فى أيديهم بداية النهاية بالنسبة لضياع الأندلس من أيدى المسلمين .

ومما يثير الدهشة أن أهل الأندلس — دون حكامهم — كانوا يدركون الأهمية السياسية والاستراتيجية لمدينة طليطلة ولا يغفلون عنها ، يظهر ذلك بوضوح فيما كتبه جغرافيو الأندلس ومؤرخوه عن أهمية تلك المدينة من ناحية ، ومن ناحية أخرى يظهر هذا الادراك فى رد الفعل العنيف من خوف وروع انتاب أهل الأندلس من المسلمين حينما سقطت طليطلة فى أيدى نصارى الأسبان وعيامنهم بخطورة الفاجعة التى حلت بهم وادراكا لما ستؤدى اليه من عواقب (١) حتى أن بعض شعرائهم صرخ منبها الى النكبة الكبرى التى حلت بالأندلس (٢) .

---

(١) مجهول : الحلل الموشيه فى ذكر الأخبار المراكشية ، ص ٣٨ .
(٢) المقرى : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٣٥٢ .
— صرخ الشاعر الزاهد ابو محمد العسال مناديا :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم ... فما المقام بها الا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وارى ... ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
=

وعلى الرغم من جسامة هذا الخطأ الاستراتيجى الذى ارتكبه الحكم الاسلامى فى الأندلس بتحوله عن طليطلة واتخاذه حاضرته فى الجنوب ، فقد حاول البعض تبرير هذا الخطأ حتى قيل ان العرب وان وجدوا طليطلة متوسطة بالنسبة لأسبانيا فانهم لم يجدوها متوسطة بالنسبة الى القوة العربية ، كما أنهم لم يقدروا أن يبعدوا كثيرا عن افريقية (١) . لكن هذا التبرير — الذى يصعب قبوله — لا يمكنه التهوين من العواقب الوخيمة التى نجمت عن هذا الخطأ الاستراتيجى الجسيم ، فقد كان لاتخاذ حاضرة الحكم الاسلامى فى الأندلس ناحية الجنوب على مقربة من العدوة والمجاز دلالة نفسية قد تعنى أن الحكم الاسلامى فى الأندلس لم يكن على ثقة كاملة من بقائه وتوطيد أركانه فى شبه جزيرة أيبيريا فاتخذ قاعدته فى الجنوب قريبا من العدوة والمجاز ليسهل عليه أن يعود أدراجه اذا دعت الضرورة الى ذلك مما يستحضر الى الذهن تلك الرواية المشهورة عن احراق طارق بن زياد للسفن التى عبر عليها وجنوده الى الأندلس حتى يقطع على جنده طريق العودة فيقطع بذلك سبيل الخوف الى نفوسهم ولا يبقى لهم الا القتال حتى النصر أو الشهادة . وسواء كانت هذه الرواية صحيحة أو موضوعة فانها ذات دلالة نفسية . لكن الخوف الذى قطع طارق طريقه الى نفوس جنده عرف — فيما يبدو — كيف يتسلل الى صدور خلفه من حكام الأندلس الاسلامى فاتخذوا قاعدتهم على مقربة من المجاز ليسهل عليهم اجتيازه والعودة الى العدوة المغربية اذا دعت الضرورة الى ذلك وقد يذهب البعض الى أن اتخاذ الحاضرة فى الجنوب كان لمراقبة العدوة والسيطرة عليها ، وكان بالامكان قبول ذلك الرأى لو أن الحاضرة انتقلت الى الجنوب بعد ما جد من الأحداث ما يستدعى ذلك لكن اتخاذ الحاضرة فى الجنوب جاء منذ البداية سابقا على كل الأحداث التى تلت وقبل أن تتكشف ضرورة مراقبة العدوة وفى وقت كان الخطر على الحكم الاسلامى فى الأندلس ماثلا فى الشمال وليس فى الجنوب مما يجعل

=

ونادى شاعر آخر فى مرارة لاذعة :

يا اهل اندلس ردوا المعار فما ... فى العرف عاريه الا مردات

ألم تروا بيدق الكفار فرزنه ... وشاهنا آخر الأبيات شهمات

(١) شكيب أرسلان : الحلل السندسية فى الأخبار الأندلسية جـ ١ ص ٣٦٤ .

— ويرى ايرفنج Falcon of Spain أن اختيار اشبيلية حاضرة للأندلس كان لأنها ذات ميناء نهرى جيد قريب من افريقية .

البعد عن الشمال والاقتراب من الجنوب بمثابة الاستعداد للتقهقر والعودة .

ولا شك أنه من أهم مبادىء الجغرافية السياسية أن يكون موقع حاضرة الدولة Capital (١) موقعا مؤثرا فى مدى هيمنتها على حدودها من ناحية وفى توجهاتها السياسية الخارجية من ناحية أخرى . فاختيار الحاضرة « يعكس غالبا التفكير السياسى وراء عمل الدولة » (٢) ووظيفة الحاضرة « أصلا سياسية فهى ضابط ايقاع لكل أجزاء الدولة كما أنها ولى أمر الدولة مع الدول الأخرى » (٣) ، لذلك يشترط فى الحاضرة « أن تكون فى موقع جغرافى بارز وينبغى أن يتوسط الدولة وأن تكون منها فى مركز الثقل الهندسى ، فان الموقع الجغرافى المتوسط للعاصمة يسهل أمور الحكم والادارة » (٤) . وليس عاريا من الدلالة بأى حال من الأحوال أن تتمركز حواضر مصر فى التاريخ القديم والوسيط قرب رأس الدلتا من منف الى الفسطاط والقاهرة . وأن يتخذ القوط من طليطلة حاضرة لهم ليتمكنوا من توطيد حكمهم فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، فقد مكن ذلك القوط رغم قلة عددهم من أن يحكموا شعبا يفوقهم فى العدد أضعافا مضاعفة (٥) بل تمكن القوط باتخاذهم طليطلة حاضرة لهم من التأقلم فى شبه جزيرة أيبيريا وتحولوا الى أسبان فى غضون فترة قصيرة أقل بكثير مما استغرقه العرب فى أن يصيروا كذلك (٦) وليس عاريا من الدلالة أن يتخذ الأسبان بعد استردادهم الأندلس من مجريط العربية Madrid حاضرة لهم وهى القريبة من طليطلة حتى أنها كانت فى العصر الاسلامى من توابعها . ولقد كان اتخاذ القوط من طليطلة حاضرة لهم

---

(١) ينبغى استخدام مصطلح حاضرة دون مصطلح عاصمة اذ أن مصطلح الحاضرة هو المستخدم فى العصر الاسلامى بينما كان لمصطلح عاصمة مدلول آخر فى ذلك العصر .

(٢) محمد رياض : الأصول العامة فى الجغرافية السياسية والجيوبولتيكا ص ١٣٤ .

(٣) محمد محمود الديب : الجغرافيا السياسية ، أسس وتطبيقات ، ص ١٤٨ .

(٤) نفس المرجع ، ص ١٥٣ .

(٥) Tromas F. Glick; Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages. p. 28.

(٦) حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٨ .

اختيارا استراتيجيا موفقا ففضلا عن موقعها الحصين الذى يسهل الدفاع عنه ، فان « مركزها المتوسط يحفز الحاكم على تحقيق الوحدة وييسرها له لأنها موسطة البلاد وقلبها » (١) •

كان من الواجب اذن على الحكم الاسلامى فى الأندلس أن يتخذ حاضرته فى طليطلة « موسطة الأندلس » حتى يمكنه الهيمنة على كل أنحاء شبه الجزيرة الأيبيرية من ناحية ، ومن ناحية أخرى ليسهل عليه الانطلاق نحو مزيد من الفتوحات فى غرب أوروبا جهادا فى سبيل نشر دعوة الاسلام فى العالمين وتأمينا لحدود الدولة الاسلامية فى الأندلس من جهة الأرض الكبيرة (٢) ، لكن اتخاذ الحكم الاسلامى حاضرته فى الجنوب كانت له عواقبه الوخيمة ليس على توطيد أركانه فى شبه الجزيرة الأيبيرية فحسب ولكن أيضا على الفتوح الاسلامية فيما وراء جبال ألبرت •

ففى شبه جزيرة أيبيريا ، لم يستكمل الفاتحون المسلمون يوما سيطرتهم على كامل شبه الجزيرة ، وانما بقيت منها دوما ناحية أو نواحى غير خاضعة لسلطان المسلمين • وبالنسبة لعصر الفتوح والولاة ، فقد بقيت من شبه الجزيرة — على الأقل — بقعة صخرية نائية من مرتفعاتها الشمالية الغربية فى قنطابرية المطلة على خليج بسقاية والتى عرفها المسلمون باسم صخرة بلاى Pena de Pelayo ، فقد انتزى فى هذه الصخرة جماعة من فل القوط كان فيهم نفر من بقايا بيت لذريق وكبار رجالات الدولة القوطية ورجال الدين الذين لم يصحبوا سندريدو فى فراره الى روما ، وقد تنامت هذه الجماعة تدريجيا وقادها — فيما بعد — قائد من أصل قوطى يدعى بلاى هو الذى تنسب اليه الصخرة ، فجعل منها نواة للمقاومة النصرانية الأسبانية ضد الحكم الاسلامى والتى عرفت اصطلاحا بحركة الاسترداد La Reconquista (٣) •

---

(١) حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٨ •

(٢) كان مصطلح الأرض الكبيرة يطلق لدى المسلمين على أوروبا كلها لا على بلاد الفرنجة وحدها . انظر فى ذلك على سبيل المثال : ابن حيان ، المقتبس ، ج ٥ ص وعبد الواحد المراكشى ، المصدر السابق ، ص ١٦ •

(٣) اخبار مجموعه ، حمص ٦١ — ٦٢ •

وقد قيلت أقوال كثيرة فى تبرير فشل الفاتحين المسلمين فى القضاء على تلك الفلول المنتزية بصخرة بلاى ، وذكر المؤرخون المسلمون أن الفاتحين المسلمين حاصروا هذه الجماعة وضيقوا عليها حتى تناقصت أعدادهم ولم يبق منهم الا ثلاثين رجلا لا يجدون ما يقتاتون به الا العسل الذى يجدونه فى خروق الصخرة ، وأعيى المسلمين أمرهم فتركوهم احتقارا لشأنهم (١) .

ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن استدعاء موسى بن نصير وطارق ابن زياد الى المشرق بأوامر من الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ثم اضطراب أحوال الأندلس فى عصر الولاة بسبب المنازعات الداخلية والفتنة الأندلسية الأولى وسرعة تغيير الولاة لم يتح لتلك الفلول المنتزية بصخرة بلاى مجرد الحماية فحسب وانما ساعدها أيضا على أن تنمو ويستفحل خطرها (٢) .

وفضلا عما سبق ، فاننا نميل الى القول بأن من أهم أسباب انصراف المسلمين عن محاصرة الفلول المنتزية بصخرة بلاى وعدم موالاتهم واستمرارهم وقلة صبرهم على هذا الحصار انما كان اتخاذ الحكم الاسلامى حاضرته فى الجنوب « بعيدة جدا عن اشتريس وجليقية ولوزيتانيا ، ومن ثم ليس بغريب أن نلاحظ أن المسلمين لم يوفقوا الى حكم البلاد كلها تماما وأن أشتريس وجليقية لم تخضعا لهم أبدا بل لم يدم سلطانهم على اقليم برشلونه ونواحى الغرب الا خلال فترات قصيرة جدا » (٣) .

وكان لاتخاذ الحكم الاسلامى حاضرته فى الجنوب بعيدا عن موسطة الأندلس عواقبه الوخيمة أيضا على فتوح المسلمين فيما وراء جبال ألبرت . فمما لا شك فيه أن بعد قاعدة انطلاق الجيوش الاسلامية جنوبا كان يجهد هذه الجيوش اجهادا شديدا ويطيل خطوط امداداتها الى ما وراء جبال ألبرت مما يضعف من قوة اندفاعها ويحد من قدرتها على الحركة والمناورة فلم تأت النتائج فى تلك الفتوح فيما وراء جبال ألبرت على قدر

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٢٩ .
والمقرى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٦٧١ — ٦٧٢ .
(٢) عبد الرحمن على الحجى : التاريخ الأندلسى ، ص ٢٦٨ .
(٣) حسين مؤنس : المصدر السابق ، ص ٨ ، ص ١٣٣ .

جهود المسلمين وتحمسهم لها . لقد وصلت قوات المسلمين المنطلقة من قرطبة فى جنوب الأندلس الى « صانص » الواقعة على بعد سبعين كيلو مترا جنوبى باريس وعلى نحو ثمانمائة كيلو مترا شمال جبال ألبرت (١) وهى مسافة بعيدة جدا عن قاعدة انطلاق تلك القوات فى قرطبة يتطلب قطعها جهدا كبيرا ومشقة فى الامداد والتموين مما كان له أثره السيىء فى عدم توطيد الفتوح الاسلامية فى تلك النواحى ، ولو قدر لهم أن تتحرك قاعدة انطلاقهم الى موسطة الأندلس واختصرت خطوط امداداتهم الى أقل مما كانت عليه لكان للفتوح الاسلامية فيما وراء جبال ألبرت شأن آخر غير الذى انتهت اليه بفقدان تلك النواحى وتقهقرهم عنها ، ولساعدهم وجود قاعدة انطلاقهم فى موسطة الأندلس على تطويق المقاومة الأسبانية التى استمدت العون والمدد من خلف جبال ألبرت (٢) ولتمكنوا من اجهاض تلك المقاومة والاجهاز عليها قبل أن تستفحل وكان من الممكن أن يكون للتاريخ الأندلسى مجرى آخر وربما لم يفقد المسلمون الأندلس كما فقدوه .

لقد كان تجاهل الحكم الاسلامى لخصائص طليطلة وأهميتها الاستراتيجية والسياسية كموسطة للأندلس واتخاذ هذا الحكم الأندلسى حاضرته فى الجنوب من الأسباب الرئيسية فى ضعف دولة المسلمين فى الأندلس (٣) كما كان من أسباب تعثر خطوات المد الاسلامى فى كل من الأندلس والأرض الكبيرة (٤) .

---

(١) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٥٤ .
(٢) عبد الرحمن على الحجى : المرجع السابق ص ٢٧٠ .
(٣) Legndre, Murice; Nouvelle Histoire de Espagne; p. 67
(٤) عبد الرحمن على الحجى : المرجع السابق ، ص ٢٦٨ .

طليطلة فى عصر الامارة

تمكن عبد الرحمن بن معاوية الداخل من تحقيق انتصار حاسم عند المصارة سنة ١٣٨ هـ على يوسف بن عبد الرحمن الفهرى آخر ولاة الأندلس فأنهى بذلك عصر الولاة وابتدأ عصر جديد من أعصر التاريخ الأندلسى هو عصر الامارة الأموية فى قرطبة الذى امتد نحو سبعة أجيال من ١٣٨ هـ حتى ٣١٦ هـ .

لكن عصر الامارة بالنسبة لطليطلة لم يبدأ — كما سبق أن ذكرنا — الا فى سنة ١٤٢ هـ حينما ولى عليها عبد الرحمن الداخل أول عماله من ولد سعد بن عباده الأنصارى من أهلها وذلك بعد أن قضى على تمرد يوسف الفهرى الذى نكث عهده لعبد الرحمن الداخل وفر من قرطبة سنة ١٤١ هـ متجها نحو الجنوب (١) واجتمع اليه نحو عشرين ألفا (٢) لكنه انهزم على يد عبد الملك بن عمر المروانى عامل اشبيلية حينذاك فتوجه هاربا الى طليطلة (٣) ليتخذ منها مركزا لثورته ، وظل يتردد بنواحيها شهورا يحشد الجند من أهل ماردة وطليطلة وغيرها لكنه اغتيل على يد بعض أصحابه سنة ١٤٢ هـ (٤) وولى عبد الرحمن الداخل على طليطلة رجلا من أهلها من ولد سعد بن عبادة الأنصارى (٥) .

على هذا النحو ابتدأت طليطلة عصر الامارة لتشغل على مسرح الاحداث فيه حيزا أكبر بكثير مما كانت عليه فى عصر الولاة لكنها أخذت دور التمرد على السلطة المركزية فى قرطبة على طول الخط فارتبط ذكرها

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ص ٤٧ — ٤٨ .
لكن محمد عبد الله عنان يجعل فراره الأول الى ناحية طليطلة (دولة الاسلام فى الأندلس (١) ص ١٦١) .
(٢) ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ص ٢٦٣ .
(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٤٩ .
(٤) نفس المصدر ، نفس الصفحة ، واخبار مجموعة ص ٨٤ — ٩١ .
— يذكر صاحب أخبار مجموعة أنه قيل ان الذى اغتال يوسف الفهرى عبد الله بن عمرو الأنصارى بقرية من قرى طليطلة .
(٥) ابن القوطية : المصدر السابق ، ص ٥٢ .

فى ذلك العصر بالتمرد والثورة « ولا تزال تلتاث طاعتها ويختلف أهلها فلا يعدم فى الوقت بعد الوقت حادثة ولا بادرة »(١) . ولم يسلم أمير أموى واحد ابتداء من عبد الرحمن الأول بن معـاوية الداخل وحتى عبد الرحمن الثالث بن محمد الناصر — فى سنى امارته — من تمرد طليطلة على حكومته وثورتها فى وجهه مما يشـكل ظاهرة تستوجب الملاحظة والتحليل .

كانت طليطلة مدينة هامة قبيل الفتح الاسلامى وساءها أن يتجاهل الحكم الاسلامى مكانتها ويتحول عنها الى حاضرة أخرى فى اشبيلية ثم قرطبة ، وقد ساعد طليطلة على القيام بدور التمرد والثورة عدة عوامل منهـا :

١ — كان لطليطلة موقع حصين — كما أشرنا آنفا — تدعمت حصانته الطبيعية بحصانة أخرى صناعية تمثلت فى سور المدينة المنيع وملحقاته، ومن ثم كان يسهل على أهل طليطلة التحصن فيها والاعتصام بها ، يشير الى ذلك ابن خلـدون فيقـول « كان أهل طليطلة يكثرون الخـلاف ونفوسهم قوية لحصانة بلدهم » (٢) .

٢ — كان مما يساعد طليطلة على الاستمرار فى التمرد والثورة على الحكم المركزى أن « تقفتها تغطى ذلك بالخاصة المطبوعة » (٣) ، فقد كانت امكانيات طليطلة الاقتصادية كبيرة ومتنوعة تسـاعد أهلها على المقاومة والصبر على طول الحصـار الذى كثيرا ما فرض عليها لفترات طويلة ، اذ كانت لطليطلة « بساتين محدقة وأنهار مخترقة ودواليب دائرة وجنات يانعة وفواكه عديمة المثل ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وقلاع منيعة » (٤) . وكان من خواص طليطلة أن حنطتها لا تسـوس على مر

---

(١) ابن حيان : المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ١٨٣ .
(٢) العبر ، جـ ٤ ص ٢٧٥ .
(٣) ابن حيان : المصدر السابق ، جـ ٥ ص ١٨٣ .
(٤) المقرى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٣٩ .
والحميرى : المصـدر السابق ، مادة طليطلة والادريسى : المصـدر السابق ، ص ١٠٢ .

السنين يتوارثها الخلف عن السلف مدة تتراوح بين ٥٠ — ٧٠ عاما (١) • فكان يمكنها تخزين حنطة تكفيها لطول الحصار ، وكانت الأشجار تحدق بطليطلة من كل جانب فيها أنواع الثمار ، وكان فيها من ضروب التركيب والفلاحة ما تفضل به غيرها (٢) • وكانت مراعى طليطلة غنية بقطعانها من البقر والغنم « فى غاية من السمن ولا يوجد مهزولا البته » (٣) • وكان لطليطلة فى جبالها معادن الحديد والنحاس (٤) فاشتغل أهلها بصناعة آلات الحرب فكان « يصنع فيها من آلات الحرب العجائب » (٥) ونالت السيوف الطليطلية شهرة فائقة •

٣ — كان مما يحفز أهل طليطلة على الثورة والتمرد على الحكم المركزى فى الأندلس وجود زعماء لهم يحضونهم على الثورة ، كان منهم على سبيل المثال — غربيب الطليطلى الشاعر كان من أهل الحكمة والدهاء وكان أهل طليطلة يسندون الى رأيه (٦) وكان فقيها مشهورا بالفضل والخير (٧) •

٤ — وكان من دواعى الثورة والتمرد فى طليطلة وجود أعداد كبيرة فيها من المعاهدين والمولدين ، فقد كان عجم طليطلة يشكلون قسما كبيرا من سكانها (٨) وكثر المولدون فيها حتى صاروا اكثرية أهلها وأصحاب المكانة الأقوى فيها لوقت طويل (٩) • وكان هذان العنصران غالبا محور التمرد والثورة حتى أن الحكم بن هشام الربضى حينما أراد تهدئة أهل

---

(١) البكرى : المصدر السابق ، ص ٨٨ والمقرى : المصدر السابق ج ١ ص ١٣٩ • والحميرى : المصدر السابق ، مادة طليطلة والقزوينى : المصدر السابق ، مادة طليطلة .

(٢) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ج ٢ ص ٨ — ٩ •

(٣) الادريسى : المصدر السابق ، ص ١٠٢ •
والحميرى : المصدر السابق ، مادة طليطلة .

(٤) الادريسى : المصدر السابق ، ص ١٠٣ •

(٥) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٩ •

(٦) ابن القوطية : المصدر السابق ، ص ٦٠ •

(٧) الحميرى : المصدر السابق ٣٢٦/٧٥٥ •

(٨) Thomas Glick; op. cit., p. 176.
Levi - Provençal; op. cit., III, p. 215.

(٩) Jan Read, op. cit. p. 60.

طليطلة — أو بالأحرى خداعهم — ولى عليهم عمروس المولد موضحا فى كتاب توليته أنه اختاره لولايتهم لانتمائه اليهم (١) •

لهذه العوامل وغيرها التاثت طاعة أهل طليطلة على أمراء قرطبة الأمويين فبلغوا « من الاثارة والطغيان والاستخفاف بالعمال ما لم تبلغه قط رعية من ولاتها » (٢) •

لم تنعم طليطلة بواليها الأنصارى الا نحو عامين ، ففى نحو سنة ١٤٤ هـ (٣) ثار بطليطلة هشام بن عروة الفهرى الذى كان عاملا عليها ليوسف بن عبد الرحمن الفهرى وقيل انه كان خارجا عليه أواخر أيامه ، ولعل يوسف الفهرى لم يتجه الى طليطلة أول فراره من قرطبة لوجود هشام واليا عليها ، ويبدو أن هشام بن عروة قد نزل عن ولاية طليطلة مرغما لكنه ما لبث أن تطلع للرئاسة من جديد فأعلن الثورة فى طليطلة وشاركه فيها حيوة بن الوليد التجيبى وهشام بن حمزه بن عبيد الله العمرى ، ويبدو أن الوالى الأنصارى لم يستطع دفع هذه الثورة فخرج للقضاء عليها عبد الرحمن بن معاوية الداخل بنفسه وحاصر الثوار الثلاثة حتى اضطرهم الى طلب الصلح وأجابهم اليه وانصرف عن طليطلة آخذا معه ولدا لهشام بن عروة رهينة حتى لا يعاود هشام الثورة ، لكن هشام ابن عروة عاود التمرد بعد انصراف الأمير عبد الرحمن فرجع الداخل لحصاره مرة أخرى • غير أن هشام بن عروة صبر على الحصار هذه المرة حتى ضاق به الأمير عبد الرحمن الداخل فأمر بضرب عنق ابنه الرهينة لديه وانصرف عنه منشغلا بثورة أخرى أشد خطورة أشعل نارها العلاء ابن مغيث الحضرمى داعيا لبنى العباس ، حتى اذا أنهى عبد الرحمن الداخل ثورة العلاء بن مغيث وقتله ، عاود الاهتمام بمواجهة ثوار

---

(١) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الأبصار ، السفر الثانى ، ص ٢٨ — ٢٩ •

(٢) ابن القوطية : المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٣) لم نجد تحديدا لبدء ثورة هشام بن عروة ولكن صاحب اخبار مجموعة يذكر ان رزق بن النعمان الغسانى ثار بعد قتل يوسف الفهرى بسنه واربعة اشهر ثم ثار هشام بن عروة بعد مقتل رزق بسنة .

طليطلة فوجه اليهم فى سنة ١٤٧ هـ (١) بدرا مولاه وتمام بن علقمه الثقفى فى جيش كثيف حاصر طليطلة حصارا مستمرا دون انقطاع اذ كان يتناوب عليه فرق من الجند كل ستة أشهر حتى مل أهل طليطلة الحصار واستثقلوا الحرب فكاتبوا بدرا وتماما وسألوهما الأمان وأسلموا اليهما هشام بن عروة الفهرى وهشام بن حمزة العمرى وحيوة بن الوليد التجيبى وتوجه بهم تمام بن علقمه الثقفى الى قرطبة فلقيه فى الطريق اليها عند أوريط عاصم بن مسلم الثقفى فقبض منه الأسرى وأمره بالرجوع الى طليطلة واليا عليها وعاد عاصم بن مسلم الى قرطبة بالأسرى الثلاثة فشهر بهم وطيف بهم على الحمير فى هيئة مزرية ثم قتلوا وصلبوا (٢) .

ويبدو أن ثورة أهل طليطلة هذه كان لها صدى فى كثير من نواحى وكان من الخطورة أن تقتدى بها بعض الجهات ، فكتب الداخل الى مختلف بلدان الأندلس يحيطهم علما بانهائه تمرد طليطلة واعادتها الى الطاعة والولاء (٣) .

وفى سنة ١٦٢ هـ وجه الأمير عبد الرحمن الداخل جيشا الى طليطلة بقيادة حبيب بن عبد الملك القرشى لحرب القائد السلمى المتمرد بها ، وكان السلمى حسن المنزلة عند الأمير عبد الرحمن الداخل لكنه شرب ذات ليلة حتى سكر وفقد وعيه فقصد باب القنطرة ليفتحه على سكر منه فمنعه الحراس فعاد ، فلما صحا وأفاق خاف مغبة فعلته فهرب الى طليطلة فاجتمع اليه بها كثير ممن يريد الخلاف والشر فعاجله عبد الرحمن الداخل

---

(١) يذكر ابن خلدون (العبر ، جـ ٤ ص ٢٦٦) أن عبد الرحمن وجه بدرا وتماما سنة ١٤٩ هـ بينما يجعل ابن عذارى (البيان المغرب جـ ٢ ص ٥٣) ذلك سنة ١٤٧ هـ ، ويبدو من ذلك أن حصار طليطلة هذا استمر نحو عامين من ١٤٧ — ١٤٩ يوضح ذلك أن الجند كانوا يتداولون الحصار كل ستة اشهر على نحو مستمر اما ما يذكره ابن حيان (المقتبس ، جـ ٥ ص ١٨٣) أن طليطلة امتنعت على عبد الرحمن الداخل « اعواما سبعة » فيمكن أن تكون من فرار يوسف الفهرى اليها سنة ١٤١ هـ حتى سقوطها فى يد بدر وتمام سنة ١٤٩ مع تجاوز بسيط .

(٢) اخبار مجموعة ، ص ص ٩٢ — ٩٣ ، ابن عذارى : المصد السابق جـ ٢ ص ٥٣ .
وعبد المجيد نعنعى : المرجع السابق ص ١٥٦ .

(٣) حمدى عبد المنعم حسين : المرجع السابق ، ص ٣٠ .

بانفاذ الجيش اليه فنازله بموضع قد تحصن فيه وحصره وضيق عليه ، ثم طلب السلمى البراز فبرز اليه مملوك أسود فاختلفا ضربتين فوقعا صريعين ثم ماتا كليهما (١) •

يبدو أنه كان من أسباب اندلاع ثورة السلمى فى طليطلة عدم قدرة عاملها حينذاك على التصدى للثورة ، اذ يبدو أن تمام بن علقمة ترك ولايتها حينذاك بسبب انضمامه الى الادارة المركزية بقرطبة (٢) • ولعل الأمير عبد الرحمن الداخل قد عهد بولايتها الى رجل من أهلها كما فعل من قبل حينما ولى عليها الأنصارى ، لكن ثورة القائد السلمى بطليطلة جعلته يعهد بولايتها الى حبيب بن عبد الملك بن عمر المروانى بعد نجاحه فى القضاء على ثورة السلمى (٣) • وتدل مكانة حبيب بن عبد الملك المروانى فى البيت الأموى بعامة ومن نفس عبد الرحمن الداخل بخاصة على مدى اهتمام الأمير عبد الرحمن بالسيطرة على طليطلة وتولية قائد كفء موثوق به عليها ، فقد كشفت ثورة السلمى فى طليطلة — رغم وهنها وسرعة القضاء عليها — عن منحنى خطير فى اتجاه الثورات وطبيعتها فى طليطلة ، فقد كانت الثورات السابقة فى طليطلة قبل ثورة السلمى ثورات عربية بالدرجة الأولى يقودها قادة من أهل طليطلة أنفسهم مثل الفهرى والتجيبى والعمرى ، لكن ثورة القائد السلمى الهارب من قرطبة الى طليطلة كشفت عن استعداد أهل طليطلة للانضمام الى كل من تسول له نفسه الثورة على حكومة قرطبة المركزية ويبدو أن عبد الرحمن الداخل قد فطن لذلك فولى على طليطلة واليا مثل حبيب بن عبد الملك المروانى للسيطرة على طليطلة والحد من اتجاهها المتزايد نحو الثورة •

يبدو أن سياسة عبد الرحمن الداخل قد آتت أكلها فركنت طليطلة الى الهدوء نحو سبع سنوات حتى فر اليها سنة ١٦٩ هـ أبو الأسود محمد بن يوسف الفهرى وكان حين عاهد أبوه يوسف الفهرى الأمير عبد الرحمن الداخل رهينة لدى الأمير الأموى بقرطبة • لكن الأمير

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ٦ ص ٥٩ •
وابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ص ٢٦٩ •
(٢) ابن الآبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ص ١٤٣ •
(٣) ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ص ٢٦٧ وابن الآبار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٥٩ •

عبد الرحمن أودعه السجن بعد أن نكث أبو يوسف الفهرى عهده وفر الى نواحى طليطلة ، وقد ضيق على أبى الأسود فى سجنه فادعى العمى وأتقن الادعاء حتى شاع عنه ذلك (١) . ولم يعد أحـد يعبأ به ، فظل أبو الأسود يتحين الفرصة للهرب حتى سنحت له فانتهزها وفر لاحقـا بطليطلة (٢) فاجتمع له هناك خلق كثير (٣) فغزاه الأمـير عبد الرحمن الداخل بنفسه اكثر من مرة فى سنة ١٦٩ هـ وسـنة ١٧٠ هـ وألحق به الهزيمة تلو الأخرى حتى توفى أبو الأسـود محمد بن يوسف الفهرى بقرية ركانه من أعمال طليطلة سنة ١٧٠ هـ (٤) .

توفى الأمـير عبد الرحمن الأول بن معاوية الملقب بالداخل سـنة ١٧٢ هـ بعد القضاء على ثورة أبى الأسود محمد بن يوسف الفهرى بنواحى طليطلة بنحو عامين . ويبدو أن ثورة أبى الأسود كانت قد جعلت الأمير عبد الرحمن الداخل يعاود الاهتمام بولاية طليطلة فعهد بها الى ابنه الاكبر سليمان الذى كان بها حين توفى والده . وعلى الرغم من كون سليمان اكبر أولاد عبد الرحمن الداخل فقد سبقت الامارة الى أخيـه الذى يصغره هشام الملقب بالرضا ، لكن سليمان كان يرى نفسـه أحق بالامارة من أخيه فنازعه عليها وأخذ لنفسه بيعة أهل طليطلة وما جاورها . وعلى الرغم من أن عبد الله بن عبد الرحمن الملقب بعبد الله البلنسى هو الذى سلم الامارة الى أخيه هشام الرضا فانه مالبث أن اختلف معه بعد سبعة أشهر من وفاة والدهما وفشل هشام فى استرضاء أخيه عبد الله الذى خرج الى طليطلة وانضم بها الى أخيه الأكبر سليمان لمناوئة أخيهما الأمير هشام الرضا (٥) .

كانت ثورة الأخوين سليمان وعبد الله على أخيهما هشام الرضـا فرصة عظيمة لطليطلة لمناوئة سلطان قرطبة المركزى ومحاولة منها للوقوف على قدم المساواة معها . لكن الأمير هشام الرضا أظهر كفاءة ملحوظة فى

---

(١) محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ، ١٨٧ .
(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٥٠ .
(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٧٨ .
(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٥٠ .
وابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ٦ ص ص ٥٧ — ٥٨ .
(٥) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ص ٦١ — ٦٢ .

التصــدى لأخويه فلم تشغله عن ذلك بعض الثورات التى اندلعت فى بعض نواحى الأندلس وأدرك أن الخطر الحقيقى على حــكمه يكمن فى ثورة أخويه فى طليطلة فخرج اليهما فى سنة ١٧٣ هـ متوجها الى طليطلة مباشرة ويبدو أنه كان يدرك أن خطورة تلك الثورة يتمثل فى مشــاركة أهل طليطلة فيها وتحريضهم عليها (١) فلم يكترث لمحاولة أخيه سليمان بأن يصرف أنظاره عن طليطلة بالتوجه الى قرطبة فى قوة للاستيلاء عليها فاكتفى هشام بتوجيه ابنه عبد الملك لمطاردة سليمان بينما أطبق الأمير الرضــا الحصار على طليطلة لأكثر م نشهرين لكنه قفل عنها دون أن ينجح فى اقتحامها (٢) .

وفى سنة ١٧٤ هـ استسلم الأخوان عبد الله البلنسى ثم ســليمان لأخيهما الأمير هشام الرضا ونزلا على حكمه (٣) فرأى أهل طليطلة بعد استسلامهما أن يدخلوا فى طاعة الأمير هشام الرضا الذى كان حســن السيرة فدخل أهل طليطلة الطاعة سنة ١٧٥ هـ فقبلهم الرضا وأمنهم وولى عليهم ابنه الحكم فضبطها وأقام بها (٤) .

ركنت طليطلة الى الهدوء بعد استسلامها لهشام الرضا وظلت على ذلك طيلة السنوات الخمس الباقية من امارته حتى وفاته فى صفر سنة ١٨١ هـ . ويبدو أن الأمور كانت مهيأة لمثل هذا الهدوء فقد استسلمت طليطلة بعد أن تكبدت الكثير وبعد طول معاناة فى امارة هشام ومن قبله أبيه عبد الرحمن الأول وكانت طليطلة بلا شك فى حاجة الى فترة مهادنة لالتقاط الأنفاس ويبدو أن السبل الى التمرد والثورة قد ضاقت أمام أهل طليطلة بسبب كفاءة الحكم بن هشام الذى ولاه أبوه على المدينة الجامحة فضبطها وأقام بها وولد له فيها ابنه عبد الرحمن بن الحكم (٥) .

---

(١) يبدو ان ابن حيان كان يرمى الى ان أهل طليطلة كانوا وراء الثورة على هشام الرضا اذ يشير (المقتبس ، جـ ٥ ، ص ١٨٣) الى ثورة أهــل طليطلة على هشام دون أدنى ذكر لأخويه سليمان وعبد الله .

(٢) ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ص ٢٧٠ .
وليفى بروفنسال دائرة المعارف الاسلامية ، مادة طليطلة .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٣ .

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ، جـ ٤ ص ٢٧١ .

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ٦ ص ١٣٣ .

تولى الحكم بن هشام المعروف بالربضى امارة الأندلس بعد وفاة أبيه هشام الرضا فى صفر سنة ١٨١ هـ ، ويمكن أن نعد امارة الحكم الربضى عهد محنة لأهل طليطلة الذين أظهروا التمرد والثورة على الحكم منذ بداية توليه الامارة •

كانت طليطلة مهيأة أكثر من ذى قبل للتمرد والعصيان على الأمير الأموى ، فقد كثر بها المولدون من أمثال بنى مخشى وغيرهم وكان يتزعمهم حينذاك غربيب الطليطلى الشاعر الذى بلغت مكانته فيهم أن الحكم بن هشام لم يطمع فيهم وفيهم غربيب (١) كما أنهم كانوا حانقين على الحكم — فيما يبدو — من أيام ولايته عليهم لأبيه هشام اذ يبدو أنه اشتد عليهم ليضبط المدينة مما أوغر صدورهم عليه وثاروا على حكمه ما لم يثوروا مثله على غيره من الأمراء الأمويين •

كانت أول ثورة لأهل طليطلة ضد الحكم بن هشام عقب توليه الامارة مباشرة ، ففى سنة ١٨١ هـ ثار عبيدة بن حميد بطليطلة فنصب الأمير الحكم عامله على طلبيرة عمروس بن يوسف الوشقى المولد لمحاربة الثائر عبيدة بن حميد فحاربه دون أن يستطيع النيل منه فلجأ عمروس — وكان كما يبدو من سياسته داهية — الى الحيلة والدهاء فى الايقاع بعبيدة بن حميد ، فكاتب عمروس بنى مخشى من أهل طليطلة — وهم مثله من المولدين — واستمالهم بالوعود وحرضهم على قتل عبيدة ابن حميد واعدا اياهم على ذلك بمثوبة جليلة من الأمير الحكم ابن هشام فقتل بنو مخشى عبيدة وحملوا رأسه الى عمروس بطلبيرة فأنزلهم عمروس عند نفسه (٢) • وتآمر عمروس — فيما يبدو — على الخلاص من بنى مخشى كى تستقيم له طليطلة ، فتسلل اليهم فى داره جماعة من بربر طلبيرة كانت بينهم وبين بنى مخشى ثارات ودماء فقتلوا من استطاعوا قتله منهم وأجهز عمروس نفسه على الباقين منهم (٣) ثم بعث برؤوس بنى مخشى مع رأس عبيدة بن حميد الى الأمير الحكم بقرطبة (٤) •

---

(١) ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٦٩ وابن الأثير ، الكامل جـ ٦ ص ١٥٨ .

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ، جـ ٤ ص ٢٧٣ .

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٦٩ .

أدرك الأمير الحكم خطورة الأوضاع فى طليطلة فولى عليها — فيما يبدو — أحد رجاله الأكفاء هو عبد الكريم بن مغيث ، واستطاع عبد الكريم بن مغيث أن يروض أهل طليطلة وسار فيهم سيرة حسنة فأمنهم مع القدرة عليهم ، ويبدو أن سياسته أثمرت فيهم فحسن ظنهم به حتى أنه لما تشدد عليهم بعد أن جاءه كتاب من الأمير الحكم أنشده الشاعر عزيب بن عبد الله الطليطلى مخاطبا اياه :

يا فارس الناس فى الهيجا ومعقلهم هنـاك ربك ما أعطى وولاكـا
حفظت فى نسـله قيسـا وحطتهم كأن قيسـا بنا اذ مات أوصـاكا
ان كان سرك ما جـاء البريـد به فـلا لعمرى ما سرنـا ذاكـا
بل سرنـا منك نعمـاء بدأت بهـا ما كان ضرك لو أتممت نعماكا (١).

تغيرت الأوضاع فى طليطلة ، فقد انضم عبد الكريم بن مغيث الى الادارة المركزية فى قرطبة ، وتوفى الشاعر عزيب بن عبد الله الطليطلى فأصبح الأمير الحكم اكثر جرأة على أهل طليطلة ورغب فى الايقاع بهم لكنه استعمل الحيلة فى ذلك فولى على طليطلة عمروس بن يوسف الوشقى وكتب الى أهلها مخادعا لهم أنه اختار لهم واليا منهم لتطمئن قلوبهم اليه وأنه أعفاهم ممن يكرهون من عماله (٢) .

وأعد عمروس بن يوسف الوشقى عامل طليطلة بتوجيه من الأمير الحكم خطة خبيثة للايقـاع بأهل طليطلة يمكن ترتيبهـا فى الخطوات التـالية :

١ — تحبب عمروس بن يوسف الى أهل طليطلة وتظاهر بكراهيته لبنى أمية حتى أنس اليه الطليطليون ووثقوا به فأقنعهم ببناء قصبة فى

---

(١) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الامصار ، جـ ٢٤ ص ٣١٣ .

(٢) ابن القوطية : المصدر السابق ، ص ٦٤ وابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ص ١٩٩ .
وابن خلدون : المصدر السابق ، جـ ٤ ص ٢٧٥ .
وابن فضل الله العمرى : المصدر السابق ، السفر الثانى ، مصورة عن خطية بازمه باغشلاء رقم ٢٢٢٧ ، ص ٢٩ .

المدينة يسكنها الحشم والجند كيلا يخالطوا أهل طليطلة واختار عمروس جبلا نسب اليه وعرف بعد ذلك بجبل عمروس فبنى فيه قصرا واستخرج ترابه من حفرة فى وسطه كانت مقصودة كجزء من الخطة .

٢ — بعد أن تم بناء القصر الذى جاء موقعه قريبا من القنطرة حاكما لمدخل المدينة ، وبعد أن سكنه عمروس ، استنفر الأمير الحكم الناس بقرطبة وغيرها بدعوى محاربة العدو النصرانى ووجه جيشا على رأسه ولده عبد الرحمن وكان عمره حينذاك (١٩١ هـ) أربعة عشر عاما وأخرج معه ثلاثة من وزرائه لجسامة المهمة ، فلما جاوز العسكر طليطلة الى موضع من نواحيها يعرف بالجيارين جاء الخبر بانصراف العدو فأوعز عمروس الى أهل طليطلة بالخروج الى الولد (١) عبد الرحمن بن الحكم الذى أمر بايصالهم الى نفسه وبسط لهم من حسن رأيه ما أنسوا اليه .

٣ — أوعز عمروس الى أهل طليطلة أن يطلبوا من الولد عبد الرحمن الدخول الى مدينتهم امتنانا له فلما صار فى داخل القصبة أظهر عمروس اقامة صنيع لهم ليطعمهم ويكسوهم ويصطنعهم بذلك ودعا اليه وجوه أهل طليطلة فى الحاضرة والبادية فحضروه ورتب لهم الدخول من باب وصرفت دوابهم الى باب آخر ليخرجوا منه .

٤ — وقف السيافون على شفير الحفرة التى فى وسط القصر وضربوا رقبة كل من دخل من وجوه أهل طليطلة حتى قتل منهم خمسة آلاف وثلثمائة ونيف ولم ينج الباقون منهم الا بعد أن اكتشف أحد حكماء المدينة الخدعة حينما أتى باب الدخول فلم يلق أحدا خارجا ممن دخلوا البارحة وقد تعالى النهار ففطن الى ماحيك لأهل طليطلة وأعلمهم به فانصرف الباقون منهم فافترقوا ونجوا (٢) .

---

(١) ألولد : اصطلاح كان يطلق على ابن الأمير المتولى للحكم ابان عصر الامارة .

(٢) ابن القوطية : المصدر السابق ، ص‌ص ٦٤ — ٦٦ وابن عذارى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٩ .
وابن الأثير : الكامل ، جـ ٦ ص ١٩٩ .
وابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ص ١٤ — ١٥ .

وعلى الرغم من اشارة بعض المصادر الى أن أهل طليطلة قد حسنت طاعتهم بقية أيام الأمير الحكم بعد هذه المذبحة المسماة بوقعة الحفرة (١) فاننا نفهم من ابن عذارى أنهم عاودوا التمرد بعد ذلك بنحــو ثمانى سنوات ، ففى سنة ١٩٩ هـ ، وبينما كان الأمير الحكم يضمر فى نفسه التوجه الى طليطلة فقد أظهر التوجه الى تدمير وأشاع الخبر عن ذلك فى الثغر « فأمن أهل طليطلة وانتشروا فى بسائطهم ونظروا فى زروعهم وله عليهم عيون ، فلما صح عنده انبساطهم جعل يتقرب من أحواز تدمير وأخبار طليطلة ترد عليه فلما أمكنته الفرصة جد فى السير اليها وطوى المراحل فوصل اليها ليلا وسبق بقطيع من الحشم فدخل طليطلة ليلا ولم يعلم بدخوله وأهلها فى عقلة وأبوابها مفتوحــة وتتابع العســكر عليه بمقدار قوة كل أحد فملكها وحال بين أهلها وبينها وقطع الخروج عمن كان بها الى من كان بخارجها فاستوثق له ملكها دون مئونه ولا قتال فاستنزل أهلها من الجبل الى السهل وسكنهم فى الصــحراء ثم ردهم اليها »(٢) واستوثق الأمير الحــكم من طاعة أهل طليطلة بأخذ رهائنهم الى قرطبه (٣) .

مال أهل طليطلة الى الطاعة بقية أيام الحكم الذى توفى فى ســنة ٢٠٦ هـ وتولى بعده الأمارة ولده عبد الرحمن المعروف بالأوسط . وعلى غير عادة أهل طليطلة مع الأمراء السابقين من الأمويين ، لم يبادروا الى التمرد والعصيان على الأمير عبد الرحمن بن الحكم عند أول توليه ، اذ يبدو أن الوهن قد دب فيهم من جراء القمــع العنيف الذى أنزله بهم الأمير الحكم الذى كان قد عرف بالربضى لما أحــدثه بأهل الربض من قرطبه سنة ٢٠٢ هـ ، كما أنهم كانوا يفتقدون زعاماتهم الذين أخذوا الى قرطبة كرهائن وكان منهم هاشم المسمى بالضراب لأنه عمل وقت ارتهانه فى قرطبه أجيرا يضرب بالمعول فى الحدادين ويبدو أنه كان أحد المشاركين فى ثورة ربض قرطبة سنة ٢٠٢ هـ (٤) وعلى الرغم من فرار كثير من أهل

---

(١) ابن القوطية : المصدر السابق ص ٦٦ وابن الأثير : الكامل ، جـ ٦ ص ٢٠١ . وابن خلدون : لعبر ، جـ ٤ ص ٢٧٩ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٧٧ .

(٣) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٨٣ .

(٤) يذكر ابن خلدون (العبر ، جـ ٤ ص ٢٧٩) انه من اهل واقعة الربض .

الربض ممن اتهم أو خاف على نفسه الى طليطلة (١) والسماح لكثير من المنفيين من أهل الربض بعد قمعهم بالتوجه الى طليطلة واتخاذها مسكنا لهم ، فان هاشما الضراب ظل فى قرطبة لم يسمح له بالتوجه الى طليطلة .

سكن أهل طليطلة الى طاعة الأمير عبد الرحمن الأوسط بن الحكم نحو ثمانى سنوات أخرى حتى سنة ٢١٥ هـ (٢) فامتدت فترة طاعتهم منذ خضوعهم للحكم الربضى سة ١٩٩ هـ وحتى استئنافهم للتمرد والعصيان فى عهد عبد الرحمن الأوسط ما يزيد على خمسة عشر عاما وهى فترة للطاعة من قبلهم قلما نجد لها مثيل فى عصر الامارة ولم يقطعها الا ثورة هاشم الضراب بعد فراره الى طليطلة .

ففى سنة ٢١٤ هـ تمكن هاشم الضراب الذى كان رهينة فى قرطبة من الفرار الى بلده طليطلة وحرض أهلها على التمرد والعصيان فاستجاب له كثيرون واجتمع له خلق عظيم فاشتدت شوكته وعلا ذكره وانتشر صيته وقام بمهاجمة البربر فى الثغر الأوسط وكان لهم فيه — على الرغم من نزوح الكثير منهم بعدهزيمة وادى سليط ابان الفتنة الأندلسية الأولى فى عصر الولاة — تواجدا ملحوظا يمتد حتى مصب نهر التاجة (٣) وأوقع هاشم الضراب ببربر شنت برية ودارت له عليهم دوائر (٤) وكان فيها جماعات من هوارة والهاصة من نفزة وبنو هذيل من مديونة وجماعة من ملزورة (٥) .

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٧٧ .
— عن فرار أهل قرطبة الى طليطلة يذكر ابن سماك العاملى (الزهرات المنثورة فى نكت الأخبار المأثورة ، نشر وتحقيق د. محمود مكى ، صحيفة معهد مدريد / ٢١) أنهم « فروا الى طليطلة واعتاموا لاجل خلاف أهلها على الخليفة (هكذا) الحكم فاستقروا فيها حتى أوقع بعد ذلك بأهلها وبهم بالحيلة » .

(٢) يجعل ابن عذارى ثورة الضراب سنة ٢١٤ هـ بينما يجعلها ابن خلدون سنة ٢١٥ هـ ، ويبدو أن هاشم قد هرب من قرطبة سنة ٢١٤ هـ الا انه لم يعلن الثورة فى طليطلة الا فى سنة ٢١٥ هـ بعد الاعداد لها .

(٣) البيلى : البربر فى الأندلس ، ص ٢٤٤ .

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٨٣ .
وابن خلدون : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٧٩ .

(٥) البيلى : المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

لم تكن ثورة هاشم الضراب تهدف فقط الى السيطرة على طليطلة ولكنه تطلع الى السيطرة على الثغر الأوسط كله وعلى جماعات البربر الموالين حينذاك للحكم الأموى ادراكا من الضراب بأن هؤلاء البربر يمثلون تهديدا خطيرا لأى ثورة فى طليطلة • وقد أدرك الأمير عبد الرحمن مرامى هاشم الضراب فلم يتوان عن ارسال الجند فى نفس العام للتصدى له وجعل قيادتهم لمحمد بن رستم الذى ولاه على الثغر كله ، لكن محمد بن رستم لم يتمكن من القضاء على هاشم الضراب ويبدو أن قواته لم تكن كافية للسيطرة على الثغر كله وهو المجال الذى جعله الضراب مسرحا لتحركاته فأرسل الأمير عبد الرحمن الى قائده ابن رستم الامدادات وكتب اليه يعنفه على تقصيره ، فتقدم محمد بن رستم لملاقاة هاشم بنواحى دروقة ودارت بينهما حرب عنيفة لعدة أيام انتهت بقتل هاشم الضراب وكثير ممن كانوا معه بلغوا عدة آلاف (١) •

لم ينه مقتل هاشم الضراب وقواته تمرد أهل طليطلة ، فبعث الأمير عبد الرحمن الأوسط جيشا بقيادة أخيه أميه بن الحكم الى مدينة طليطلة سنة ٢١٩ هـ فحاصرهم حصارا شديدا وقطع أشجارهم وأتلف زروعهم فلم يذعنوا الى الطاعة فرحل عنهم وأنزل بقلعة رباح جيشا بقيادة ميسرة الفتى المعروف بفتى أبى أيوب ليداوم الهجوم على طليطلة ، ورأى أهل طليطلة مهاجمة ميسرة قبل أن يهاجمهم فخرج جمع عظيم منهم يريدون قلعة رباح لينالوا من ميسرة وأصحابه ، لكن ميسرة علم خبرهم ، فكمن لهم فلما قربوا من الكمائن وفرقوا خيولهم خرجت عليهم الكمائن ووضعوا فيهم السيف واكثروا القتل فيهم فقتل من قتل وفر من نجا منهم منهزما الى طليطلة وجمعت رؤوس القتلى بين يدى ميسرة فلما رأى كثرتها عظمت عليه وارتاع لذلك واغتم غما شديدا وداخله الندم فلم يلبث الا أياما يسيرة حتى مات ندما وأسفا (٢) •

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ٢ ص ٨٣ •
وابن الاثير : المصدر السابق ، جـ ٦ ص ٤١٦ •
وابن خلدون : المصدر السابق ، جـ ٤ ص ٢٧٩ •
Levi - Provencal; op. cit., vol. I. P. 201.

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٨٤ وابن الاثير : الكامل ، جـ ٦ ص ٤٤٤ •

=

أصبحت قلعة رباح لموقعها بين قرطبة وطليطلة وسهولة تزويدها بالامدادات من قرطبة قاعدة للهجوم على طليطلة وموالاة حصارها ، ففى سنة ٢٢٠ هـ ولى الأمير عبد الرحمن الأوسط على قلعة رباح عاملا يدعى أبو الشماخ وأبقى عنده خيلا كثيفا ورجالا كثيرة لمهاجمة طليطلة (١) ويبدو أنه هاجمها فلم يظفر بها (٢) . وتوالت على حصار طليطلة جهود عدد من القادة مثل ابن مهاجر الذى جمع قوات كثيرة فى قلعة رباح ثم نهض بها الى طليطلة فحاصرها حصارا شديدا وقطع عن أهلها مرافقهم مما فت فى عضدهم ، وجاء بعده قائد يدعى عبد الواحد الاسكندرانى أرسله الأمير عبد الرحمن لمواصلة حصار طليطلة فوجدها قد بلغ الجهد بأهلها (٣) ثم أرسل الأمير عبد الرحمن أخاه الوليد بن الحكم الى طليطلة أيضا فى سنة ٢٢٢ هـ ، فوصل اليها وقد أشرف أهلها على الهلاك من شدة الحصار وضعفوا عن كل مقاومة ، فافتتحها قهرا وعنوة يوم السبت لثمان خلون من رجب سنة ٢٢٢ هـ وسكن أهلها وأقام بها لضبطها حتى آخر شعبان سنة ٢٢٣ هـ (٤) وأمر الأمير عبد الرحمن بتجديد بناء القصر الذى كان عمروس بن يوسف قد بناه فى أيام الحكم الربضى على باب الجسر (٥) وأخذت رهائن أهل طليطلة الى قرطبة ضمانا لحسن طاعتهم (٦) .

ويمدنا ابن خلدون بما يختلف عما ذكره ابن عذارى وابن الأثير ، اذ يجعل ابن خلدون (العبر ، جـ ٤ ، ص ٢٧٥) أمية المذكور ابنا لعبد الرحمن الأوسط وليس أخا له ويجعله هو الذى كمن لأهل طليطلة ويذكر أن أهل طليطلة هم الذين هزموه وأنه اغتم لذلك فهلك لأيام قليلة .

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٨٤ .
وابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ٦ ص ٤٤٤ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ٦ ص ٤٥٤ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٨٤ .

(٤) ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ٦ ص ٤٧٥ .
وابن خلدون : المصدر السابق ، جـ ٤ ص ٢٨٠ .
— ويذهب ابن عذارى الى استيلاء الأمير عبد الرحمن بنفسه على طليطلة لكنه لا يؤكد ذلك وانما يضيف أنه « قيل أن الذى فتح طليطلة هو الوليد بن الحكم وجهه اليها أخوه عبد الرحمن » .

(٥) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٨٤ و
Levi - Provencal; op. cit., vol. I. P. 202.

(٦) يفهم ذلك من مطالبتهم ابان ثورتهم سنة ٢٣٨ هـ بعودة رهائنهم من قرطبة .

يبدو أن الأحوال لم تستقر تماما فى طليطلة خاصة بعد تزايد نشاط المولدين والمستعربين فيها والذى أدى فيما يبدو الى فتنة كبيرة سنة ٢١٩ هـ عرفت بملحمة العراس قتل فيها كثير من أهل طليطلة (١) وقد أدى تزايد نشاط القوى النصرانية الأسبانية فى شمال شبه جزيرة أيبيريا الى مزيد من العصيان والتمرد بين مستعربى طليطلة (٢) كما يبدو أن الفتنة التى حاول بعض النصارى المتعصبين فى قرطبة والتى تزايدت حدتها فى سنة ٢٣٧ هـ قبل وفاة الأمير عبد الرحمن الأوسط بعام واحد قد وجدت بعض المناصرين فى طليطلة على الرغم من انتهاء هذه الفتنة فى العام المذكور بعد انعقاد مجمع دينى فى قرطبة برئاسة ريكافريد مطران اشبيلية استنكر التعصب الأحمق والهوس الذى أظهره بعض متعصبى النصارى .

وليس أدل على عدم استقرار الأحوال فى طليطلة من كثرة تغيير عمالها على الرغم من كفائتهم ، ففى سنة ٢٣٢ هـ عزل الأمير عبد الرحمن الأوسط عامله حارث بن بزيغ عن طليطلة فى شهر شوال من السنة المذكورة وولى بدلا منه محمد بن السليم ، وقبل مرور أقل من عام ، عزل الأمير عبد الرحمن فى شهر شعبان من سنة ٢٣٣ هـ عامل طليطلة محمد بن السليم وولى بعده أخاه أيوب بن السليم لكنه ما لبث أن عزل أيوب هذا بعد شهر واحد من توليه فى رمضان سنة ٢٣٣ هـ وولى بدلا منه يوسف ابن يسيل (٣) . ولا ندرى متى أعيد حارث بن بزيغ عاملا على طليطلة اذ وجدناه عليها حين وفاة الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٣٨ هـ (٤) .

تولى محمد بن عبد الرحمن امارة الأندلس بعد أبيه وكانت طليطلة حتى ذلك الحين آخذة بالهدوء والسكينة والخضوع للأمير الأموى خوفا على رهائنها المرتهنين فى قرطبة ، لكن أهل طليطلة المتربصين استأنفوا عادتهم فى التمرد والعصيان على كل أمير أموى جديد ، فلم تمر على تولى محمد بن عبد الرحمن الامارة الا عشرة أيام فقط الا وقد أشعل أهل طليطلة الثورة ورفعوا راية التمرد والعصيان على الأمير محمد بن

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ٦ ص ٤٤٤ .
(٢) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٨٤ .
(٣) ابن حيان : المقتبس من أبناء أهل الأندلس ، تحقيق محمود مكى ، ص ص ١ — ٣ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٢٩٢ .

عبد الرحمن بعد وصول خبر توليه الامارة الى طليطلة بأسبوع واحد ، اذ ورد الخبر الى طليطلة بوفاة الأمير عبد الرحمن الأوسط فى اليوم السادس من ربيع الآخر سنة ٢٣٨ هـ « وثار أهل مدينة طليطلة أجمعهم يوم السبت لأربع عشرة خلت من ربيع الآخر سنة ٢٣٨ هـ وقت صلاة الظهر فبادروا بشعارهم ونبذوا الطاعة » (١) .

وكان من أوقد نار هذه الثورة فى طليطلة على الأمير محمد بن عبد الرحمن جماعة من الرهائن الذين كانوا بقرطبة ، انتهزوا انشغال الحشم بوفاة الأمير عبد الرحمن وتولية ابنه محمد ففروا الى طليطلة وعلى رأسهم مشنوؤة بن مطرف وصاحبه المدعو ابن بشير ، فوصلوا الى بادية طليطلة وعسكروا بجبل الأخوين منها وتأبش اليهم أهل الشر وكاتبوا أهل طليطلة يحرضونهم على الثورة فثار أهل طليطلة — كما ذكرنا — وقدم مشنوؤة بن مطرف بحشوده الى طليطلة فانضم اليه أهلها وأعانوه على رجال السلطة الأموية (٢) .

كان عامل طليطلة يومئذ حارث بن بزيغ لكن كان بها معه حينئذ الولد سعيد بن عبد الرحمن ، فحارب مشنوؤه بن مطرف (٣) ومن معه من أهل طليطلة الولد سعيد بن عبد الرحمن والعامل حارث بن بزيغ وانتصر عليهما ، وتمكن الحشم من فتح باب القنطرة وتهريب سعيد بن عبد الرحمن فنجا بمن معه بينما وقع العامل حارث بن بزيغ فى الأسر (٤) . وساوم أهل طليطلة على العامل الأسير لديهم وقايضوا به على الرهائن التى كانت لهم بقرطبة فلم يطلقوه حتى أطلقت بقية رهائنهم الذين كانوا لا يزالون فى قرطبة ولم يتمكنوا من الهرب حين هرب منها مشنوؤه وأصحابه (٥) .

---

(١) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٢٩٢ .
Levi - Provencal; op. cit. vol. I. P. 291.

(٢) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٢٩٢ .

(٣) يطلق بروفنسال (دائرة المعارف الاسلامية ، مادة طليطلة) على قائد الثورة المشار اليها فى طليطلة اسم سندولا Sindola ولا نستطيع ايجاد أى صلة لهذا الاسم باسم مشنوؤه بن مطرف الذى ذكره ابن حيان .

(٤) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٢٩٢ .

(٥) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٩٤ .
وعبد المجيد نعنعى : المرجع السابق ص ٢٦٥ .

انضم الى أهل طليطلة فى ثورتهم هذه البربر البرانس الذين كانوا بناحيتهم فكثر جمع الثوار وأغاروا على البلاد حولهم (١) وتمكنوا من تخريب قلعة رباح التى كانت قلعة للأمويين يشنون منها الهجوم على طليطلة كلما دعت الضرورة الى ذلك ، فخربها أهل طليطلة وهدموا أسوارها ففر أهل قلعة رباح عن قلعتهم هلعا وخوفا من بطش أهل طليطلة (٢) .

لم يتوان الأمير الجديد محمد بن عبد الرحمن عن التصدى لأهل طليطلة المتمردين ليلقنهم درسا فى الطاعة والتسليم بسلطانه لكنه رأى أن تكون خطوته الأولى استعادة قلعة رباح واعادة تحصينها لتكون قاعدة للوثوب على طليطلة ، فوجه الأمير محمد أخاه الحكم بن عبد الرحمن على رأس صائفة فى سنة ٢٣٩ هـ ، فوصل الحكم الى قلعة رباح « وقد أقفرت من أهلها وخربت أسوارها بدوس أهل طليطلة لها وقتلهم كثيرا من أهلها ، فاحتلها الحكم بالجيش وأمر باصلاح سورها وتحصين حوزتها واسترجاع من فر من أهلها وتأنيسهم بجيش كثيف تركه فى قلعة رباح للدفاع عنها وفعل مثل ذلك بحصن شندله وجال بالصائفة ديار أهل الخلاف » (٣) استعراضا للقوى وتخويفا لأهل طليطلة وجمعا للمعلومات فيما يبدو .

لكن أهل طليطلة لم ترهبهم صائفة الحكم أخى الأمير محمد فاستمروا فى غيهم وقاموا فى نفس العام — ٢٩٣ هـ — بمهاجمة جيش للأمير محمد كان قد خرج اليهم بقيادة قاسم بن العباس وتمام بن أحمد بن أبى العطاف صاحب الخيل وقصد هذا الخيش الى حصن شندله لكن أهل طليطلة كمنوا له عند أندوشر Andujar وحاربوهم حربا شديدة انهزم فيها قاسم بن العباس وتمام بن أحمد هزيمة قاسية يوم السبت الثالث والعشرين

---

(١) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٢٩٢ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٩٣ .
وابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٨٣ .
(٣) ابن حيان : المصدر السابق ص ٢٩٣ .
وابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٩٤ .

من شوال سنة ٢٣٩ هـ (١) وكان لانتصـــار أهل طليطلة عند أندوشر صدى كبير فى نواحيها وما حولها ، فقد فر أهل مدينة جيان فى اثر هذه المعركة عن مدينتهم لفرط خوفهم على أنفسهم من أهل طليطلة مما جعل الأمير محمد بن عبد الرحمن يبنى حصن أبدة بكورة جيان وضـــم اليه العرب المقيمين على الطاعة فسميت أبدة العرب (٢) ، وكانت مهمة هذا الحصن الرئيسية هى تأمين أهل جيان من هجمات أهل طليطلة .

رأى الأمير محمد بن عبد الرحمن ضرورة الخروج بنفسه ليضـــع حد لمروق أهـــل طليطلة عن الطاعة وتمردهم وعصـــيانهم فتوجه الى طليطلة فى المحرم سنة ٢٤٠ هـ (٣) فى أول غزاة يغزوها بنفسه ، وجيش لتلك الغزوة جيشا عظيما ، فلما عرف أهل طليطلة خبر خروجه اليهم وقوة الجيش الذى معه استجاشوا بنصارى الأســـبان واستمدوهم فأمدهم أردون الأول بن أدفونش صاحب جليقية وأشتوريش بجيش يقوده أخو زوجته غستون Gaston كونت بيرزو Conde de Bierzo وضم هـــذا المـــدد النصرانى الأســـبانى كثيرا من القسس كان على رأســـهم القس برمند (٤) وكأن نصارى الأسبان قد أرادوا اضفاء مسحة دينية على هذه الجولة تحميسا لجندهم والهابا لمشاعرهم ، وانضم أهل طليطلة الى حلفائهم من نصارى الأسبان وخرجوا بهم للقاء الأمـــير محمد بن عبد الرحمن وجيشه خارج مدينة طليطلة حتى لا يقتحمها عليهم ، فلما علم الأمير بذلك عبأ قواته وضم اليه من خرج من المتطوعة وأهل الحســـبة الذين يطلبون الشـــهادة رجالا وركبانا لجهاد المشركين ووضـــع الأمير محمد خطـــة

---

(١) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٢٩٤ وابن الأثير : الكامل ، جـ ٧ ص ٧١ ، وبروفنسال : دائرة المعارف الاسلامية ، مادة طليطلة .

(٢) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٢٩٤ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٩٤ .

(٤) يرى الدكتور محمود مكى أن برمند القس الذى ذكره ابن حيان قد يكون هو برمند الملقب el Discono الذى خلف ابن عمـــه مورقـــاط ابن أدفونش Maureqate على عرش جليقية سنة ١٧٣ هـ / ٧٨٩ م وأنه تنازل عن العرش بعد سنتين لادفونش بن فرويلة (الفونسو الثانى الملقب بالعفيف) وخلفه رذمير بن برمند المذكور فحكم حتى سنة ٢٣٦ هـ / ٨٥٠ م ثم خلفه ابنه أردون الأول الذى حكم حتى سنة ٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م فكان برمند القس اذن جد هذا الملك الذى تحالف مـــع أهل طليطلة وامدهم ، لكن الجد برمند كان قد انخرط فى سلك الرهبنة بعـــد خلعه عن العرش وامتد عمره ليلقى مصرعه فى وقعة وادى سليط المشار اليها سنة ٢٤٠ هـ/ ٨٥٤ م .

محكمة للايقاع بأعدائه فى وادى سليط القريب من طليطلة فى جنوبها الغربى (١) . وتلخصت خطة الأمير محمد فى أن تكمن اكثر القوات فى جوانب وادى سليط وأن يتقدم هو فى قلة من الجند استدراجا للعدو واغراء له بالهجوم ، وخطب الأمير محمد فى جنده موضحا لهم مهامهم ومشجعا لهم على حسن البلاء ، فشحذ كلامه هممهم وتحمسوا للقتال وأظهروا جلدا عظيما (٢) .

تقدم الأمير محمد فى قلة من الجنود بعد أن كمن اكثر الجنود وفق الخطة الموضوعة وظن أهل طليطلة وحلفائهم من الأسبان النصارى أن الفرصة مواتية لهم فتقدموا للقاء الأمير محمد طمعا فى الظفر به فلما نشبت الحرب بينهما ظهرت الكمائن عن يمين وشمال وانقضت أرسالا على أرسال على أهل طليطلة وحلفائهم الأسبان فسقط فى أيديهم وخارت عزائمهم وانهزموا لا يلوون على شىء فأخذهم الأمير محمد وجنده بالسيوف وأبادوا جماعتهم وهزموهم هزيمة منكرة فى أقل من نصف نهار فما حانت صلاة الظهر الا وعلى باب الرواق آلاف من رءوس أهل طليطلة ونصارى الأسبان (٣) وأسر من نصارى الأسبان كثير من القسس وقتل من هؤلاء القسس كثيرون كان منهم برمند القس الذى يدعوه ابن حيان زعيم جميع النصارى (٤) . وجمعت رؤوس القتلى من أهل طليطلة ونصارى الأسبان ورصت فصار منها تل علاه المسلمون يكبرون ويهللون وحان أذان الظهر فأمر الأمير محمد المؤذن فاعتلى تل الرءوس ونادى من فوقه بالآذان ، وبعث الأمير محمد برءوس منها الى نواحى الأندلس مخبرا أهلها بهذا النصر (٥) .

---

(١) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٢٩٦ وابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٩٤ .

(٢) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٢٩٧ .
وابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ٢٠ .

(٣) يقدرهم ابن عذارى (البيان جـ ٢ ص ٩٥) بثمانية آلاف ، ويقدرهم ابن حيان (المقتبس ، نشر مكى ص ٢٩٧) بأحد عشر الف او اكثر من ذلك . لكن ابن عذارى يقدر اجمالى من فقد من اهل طليطلة وحلفائهم فى المعركة بعشرين الفا ، ويذهب الى مثل ذلك ابن الأثير (الكامل ، جـ ٧ ، ص ٧٤) .

(٤) المقتبس ، نشر منكى ، ص ٢٩٧ .

(٥) نفس المصدر ص ص ٢٩٦ — ٢٩٧ وابن عذارى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٩٥ . وابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ٧ ص ٧٤ .

وعلى الرغم من هزيمتهم القاسية فى وادى سليط فقد استمر أهل طليطلة فى عصيانهم وتمردهم على الأمير محمد بن عبد الرحمن بل زادوا فى غيهم خاصة وقد كان بينهم حينذاك أولوخيو زعيم المستعربين ينفث فيهم ما تنطوى عليه نفسه من حق وضغائن للحكم الاسلامى فى الأندلس (١) •

واهتم الأمير محمد بن عبد الرحمن فى سنة ٢٤١ هـ بتقوية حصون قلعة رباح وغيرها من حصون (٢) لتقوى على التصدى لاغارات أهل طليطلة ولتكون نقطة وثوب على طليطلة واهتم بتأديب نصارى الأسبان وغزوهم شغلا لهم عن مساندة أهل طليطلة ، فكتب الى موسى ابن موسى (٣) وأهل الثغور بأن يحشدوا جيوشهم وينضموا اليه ثم دخل بهم ألبة والقلاع فتوغل فى أرض العدو بعيدا فخربها ونسف بسائطها وفتح كثيرا من حصونهم (٤) .•

وفى سنة ٢٤٢ هـ وجه أخاه المنذر بن عبد الرحمن الى طليطلة فنزل المنذر بقلعة رباح استعدادا للهجوم فلما تهيأ لذلك توجه الى طليطلة فحاصرها ونسف ما حولها من معايش لكنه لم يتمكن منها (٥) •

وردا على ذلك ، خرج أهل طليطلة فى سنة ٢٤٣ هـ للهجوم على طلبيرة وكان عليها وقتئذ مسعود بن عبد الله العريف الذى أظهر كفاءة فى التصدى لأهل طليطلة ، فكمن لهم وأوقع بهم مقتلة عظيمة بعث للاخبار

---

(١) نعنعى : المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .
(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ٧ ص ٨٠ .
(٣) موسى بن موسى القسوى كان حاكما للثغر الأعلى من قبل الأمير عبد الرحمن بن الحكم وظل على ذلك حتى وفاته سنة ٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م وقد ورد عند المقرى (نفح الطيب ، جـ ١ ص ٣٢٨) خبر عن قيامه بغزو نواحى البه والقلاع بأمر الامير محمد بن عبد الرحمن لأول ولايته وقد دعاه المقرى « صاحب طليطلة » واغلب الظن أنه تصحيف لكلمة تطيلة اذ كان عامل طليطلة حينذاك — وفقا لابن حيان — حارث بن بزيغ .
(٤) ابن حيان : المصدر السابق ص ٣٠٤ وابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٩٥ . وابن الاثير : المصدر السابق ، جـ ٧ ص ٨٠ .
(٥) ابن حيان : المصدر السابق ص ٣٠٤ وابن عذارى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٩٦ .

بها الى قرطبة سبعمائة رأس من رؤوس أكابرهم (١) • عزم الأمير محمد ابن عبد الرحمن على وضع حد لعصيان أهل طليطلة وانهاء تمردهم فخرج اليهم بنفسه فى سنة ٢٤٤ هـ وقد قل عددهم وانفل حدهم بتواتر الوقائع عليهم ونزول المصائب بهم وضيق معيشتهم لكثرة تخريب بسائطهم ، لكن أهل طليطلة رغم سوء أحوالهم لم يتراخوا فى الدفاع عن مدينتهم وقاوموا مقاومة باسلة يساعدهم على ذلك منعة مدينتهم وحصانتها (٢) • وكانت مقاومتهم أشد ما تكون على القنطرة التى كانت تتحكم فى المدخل الرئيسى للمدينة والتى سبق أن أشرنا الى أن تصميمها كان يزيد من منعة المدينة وحصانتها ، ورتب أهل طليطلة دفاعهم عن باب المدينة فصعب على الأمير محمد اختراقه لعدة أيام فرأى الأمير محمد ابن عبد الرحمن أن يهدم قنطرة طليطلة التى اصطف أهلها عليها حتى يتفرق جمعهم ويقل حماسهم ، فجمع الأمير محمد لذلك الحذاق من عرفاء البنائين والمهندسين واحتالوا لذلك فى غفلة من أهل طليطلة (٣) فلم يشعروا حتى اندقت بهم وتهدمت نواحيها بمن كان عليها من الحماة والكماة فغرقوا فى النهر الذى يندفع بشدة تحت القنطرة وفجع أهل طليطلة فى قنطرتهم بينما اشتد سرور الأمير محمد بن عبد الرحمن (٤) •

لم يجد أهل طليطلة من سبيل أمامهم بعد اشتداد الحصار عليهم الا الاذعان وطلب الأمان فعقد لهم الأمير محمد أمانا على شروط أعطاهم اياها فى سنة ٢٤٥ هـ لكنهم سرعان ما نكثوا بها وانتقضوها وكشفوا عن مخادعتهم وأنهم لم يطلبوا الأمان الا مناورة ليتخلصوا من شدة الحصار المفروض عليهم فأدخلوا الى بلدهم لب بن موسى وعاودا الخلاف والتمرد

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٩٦ وابن الأثير : المصدر السابق جـ ٧ ص ٨٣ .

(٢) ابن حيان ، المصدر السابق ، ص ٣٠٥ .
ــ لكن ابن عذارى يرى قلة مقاومتهم اذ يقول (البيان المغرب ، جـ ٢ ص ٩٦) « لم تكن لهم حرب الا بالقنطرة » .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٩٦ .
ــ لكن ابن عذارى يرى قلة مقاومتهم اذ يقول (البيان المغرب ، جـ ٢
على أهل طليطلة اذ يقول (المقتبس ، نشر مكى ص ٣٠٥) « شرعوا فى قطعها والفواة يسخرون منهم ويعجزون طوقهم » .

(٤) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٣٠٥ وابن عذارى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٩٦ .

فعاود الأمير محمد قتالهم حتى تمكن منهم وأقام على طليطلة واليا من قبله (١) .

اهتم الأمير محمد بن عبد الرحمن بانشاء سلسلة من الحصون فى الثغر الأوسط تكون حرسا للمسلمين ضد اغارات نصارى الأسبان من ناحية وحاجزا يمنع اتصالهم بأهل طليطلة من ناحية أخرى وفضلا عن هذا فقد كانت هذه الحصون بمثابة تطويق لطليطلة لتضع حدا لمروق أهلها عن الطاعة وتمردهم ، فكما اهتم الأمير محمد من قبل باعادة تحصين قلعة رباح وبنى حصن أبدة بقلعة جيان فانه اهتم ببناء عدة حصون فى الثغر الأوسط تشمل : طلمنكه ومجريط وبنه فراطة (الصخرة المنقورة Pena Forata) (٢) وهى الحصون التى شكلت مع غيرها مثل قلعة هنارس ووادى الحجارة ومدينة سالم وقلعة أيوب حزاما حصينا يحول دون نصارى الأسبان وبلاد الأندلس ، وكان يفد اليها المتطوعة وأهل الحسبة من العباد والزهاد للرباط والحرس على المسلمين (٣) .

كان أهل طليطلة يعاودون التمرد من حين لآخر مثلما حدث فى سنة ٢٤٧ هـ فحاصرهم الأمير محمد ثلاثين يوما (٤) دون جدوى وكان يتولى طليطلة حينذاك مطرف بن عبد الرحمن الذى تصدى معهم لغارة شنها عليهم مظفر بن ذى النون الهوارى عامل شنت بريه وقد خرج وقتذاك على طاعة الأمير محمد فهاجم أهل طليطلة الموافقين حينذاك وهزمهم وقتل منهم خلق كثير (٥) .

يبدو أن اضطراب أحوال الأندلس لكثرة المارقين على سلطان الأمير محمد بن عبد الرحمن من ناحية وتعرض الأندلس لغزوات النورمان من جديد وانشغال الأمير محمد بحروبه مع نصارى الأسبان جعله يستميل أهل طليطلة باجابة طلباتهم فقد سمح باختيار حاكمهم بأنفسهم اذ ولى

---

(١) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٣٠٧ .
بوليفى بروفنسال : دائرة المعارف الاسلامية ، مادة طليطلة .
(٢) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ١٣٢ .
(٣) حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٣٠٠ .
(٤) ابن خلدون ، المصدر السابق ج ٤ ، ص ٢٨٤ .
(٥) نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٢٨٥ .

عليهم عاملا منهم كانوا قد سألوا الأمير استعماله عليهم هو محمد المعروف بابن بلوش (١) كما أذن لهم أن يعيدوا بناء منار مسجد طليطلة الجامع الذى تهدم سنة ٢٥٧ هـ من مال الخراج وأباح لهم أن يضموا الى الجامع الكنيسة الملاصقة له (٢) .

وكان الأمير محمد يضع نصب عينيه دائما أهل طليطلة خشية شقاقهم اذ كانوا على حد تعبير ابن حيان « بين الاتنزاء والطاعة » ويبدو أنهم كانوا يناورون ، ينبذون الطاعة كلما بعدت عنهم قوات أمير الأندلس ويعودون اليها كلما قربت منهم ، وفى سنة ٢٥٤ هـ بلغ الأمر محمد التياث أمر طليطلة وتخوف شقاق أهلها فأظهر العزم على غزوها لكنه بعد أن تقدم فى طريقها عدة محلات نكب الى طريق ماردة التى كان خروجها على الطاعة حينذاك أو ضح وأوكد فرأى الأمير محمد أن غزوها أوجب ففاجأ أهلها وهم آمنون فاحتل مدينتهم (٣) .

وفى سنة ٢٥٧ هـ وقع من أهل طليطلة ما كان يخشاه الأمير محمد دوما فقد غدروا وفارقوا الطاعة ، لكن فتنة عظيمة دبت بينهم وتنافس زعماؤهم على الرياسة فيهم وقتل بعضهم بعضا ، وأضر هذا التنافس بأهل طليطلة فوثبوا على واليهم محمد بن بلوش فقتلوه ونفوا منافسه وغريمه المسمى مسونة الى مجريط فقتله بها عبيد الله بن سالم وأرسل رأسه الى الأمير محمد بقرطبة (٤) .

وخرج الأمير محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٥٩ هـ على رأس حملة كبيرة لاقرار الأحوال فى الثغور وبدأ بطليطلة باعتبارها « أم النفاق » — على حد قول ابن حيان — وعلم أهلها بقدومه اليهم وأدركوا أنهم لا قبل لهم به فأذعنوا له بالطاعة على أن يولى عليهم رجلا منهم فعقد الأمير محمد لهم الأمان (٥) وقاطعهم على قطيع من العشور يؤدونه فى كل

---

(١) ابن حيان : المصدر السابق ص ٣٢٧ .
(٢) نفس المصدر ، نفس الصفحة .
(٣) نفس المصدر ، ص ٣٢٤ .
(٤) نفس المصدر ، ص ص ٣٢٦ — ٢٣٧ .
(٥) يعتبر ابن عذارى (البيان المغرب ، ج ٢ ص ١٠١) هذا الأمان هو الأمان الثانى الذى منحهم اياه الأمير محمد وكان أمانه الأول لهم سنة
=

عام وأخذ رهائنهم ضمانا لحسن طاعتهم وخيرهم فيمن يوليه عيهم فاختلفوا على ذلك فيما بينهم اذ سأل قوم منهم توليه مطرف بن عبدالرحمن ابن حبيب وسأل آخرون تولية طربيشة بين مسونة فشاور الأمير محمد وزراؤه فى ذلك فأشار هاشم بن عبد العزيز — وكان أقرب وزرائه الى نفسه — بقسمة طليطلة بينهما يتولى كل منهما قسما منها ، وكان هدف هاشم بن عبد العزيز من ذلك تأثيل الخلاف بينهما وتفرقة أهل طليطلة حتى لا تقوى على التمرد والعصيان ، وسرعان مادب الخلاف بين الزعيمين الطليطلبين وغلب أنصار طربيشه بن مسونة فقدموه وأخروا مطرف ابن عبد الرحمن (٣) • وظهر أثر هذا الانقسام على أهل طليطلة حينما غزوا حصن سكتان لتأديب أهله من البربر الذين كانوا قد ظاهروا موسى ابن ذى النون الهوارى الثائر حينذاك فى شنت برية وأغاروا على أطراف طليطلة وآذوا أهلها فخرج أهل طليطلة لردعهم وكسر شوكتهم فبرز اليهم بربر حصن سكتان وقاتلوهم فى معركة ظهر فيها جليا أثر الانقسام فى صفوف أهل طليطلة اذ تقهقر مطرف بن عبد الرحمن نكاية فى طربيشه فتبعه أهل طليطلة فى الهزيمة على الرغم من أنهم كانوا فى عشرة آلاف ولم يتعد بربر حصن سكتان أن كانوا سبعمائة رجل (٢) وفى العام التالى سنة ٢٦٠ هـ تكرر الموقف حينما خرج أهل طليطلة لقتال موسى ابن ذى النون الهوارى فى عشرين ألفا وعند احتدام القتال تقهقر محمد ابن طربيشة نكاية فى مطرف بن عبد الرحمن وانتقاما لما فعله فى العام السابق فتبعه أهل طليطلة فى الهزيمة وقتل منهم خلق كثير (٣) •

وحرص الأمير محمد على مراقبة أهل طليطلة باستمرار ، وتخويفهم من مغبة التمرد والعصيان فكان يرسل أحيانا بعض من يقع فى الأسر من

=

٢٤٥ هـ وجدير بالذكر أن بروفنسال (دائرة المعارف الاسلامية ، مادة طليطلة) يغالى بعض الشىء حينما يعتبر هذا الأمان نوعا من الاستقلال السياسى .

(١) ابن حيان : المصدر السابق ص ٣٢٩ وابن عذارى : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٠١ .

(٢) ابن حيان : المصدر السابق ص ٣٢٩ وابن الاثير : الكامل جـ ٧ ص ٢٦٥ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ٧ ص ٢٧١ وابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ص ٢٨٥ .

المتمردين الخارجين على الطاعة للنكاية بهم فى طليطلة ليرى أهلها عاقبة الخروج على الطاعة من ذلك — على سبيل المثال — أن ابن يامين البربرى عامل قلعة رباح كان قد نبذ الطاعة لكنه وقع فى أسر الأمير محمد ، فأرسله الأمير محمد وأصحابه ليصلبوا على سور طليطلة (١) .

يبدو أن أهل طليطلة قد أحسنوا الطاعة للأمير محمد بن عبد الرحمن بقية امارته ، بل وشاركوا فى جهاد نصارى الأسبان واستشهد بعضهم فى معارك الجهاد مثل يحيى بن حجاج الطليطلى الذى استشهد فى المعترك العظيم الذى كان بين المسلمين والمشركين سنة ٢٦٣ هـ (٢) ويحيى ابن القصير الذى شارك فى معترك سنة ٢٦٣ هـ ثم شارك فى معترك سنة ٢٦٤ هـ واستشهد فيه (٣) .

وعلى أى حال فقد تمكن الأمير محمد بن عبد الرحمن بفضل يقظته ومراقبته لأهل طليطلة وأخذه رهائنهم وتقوية الحصون حولهم وشحنها بالمقاتلة من جعلهم يلتزمون بالطاعة حتى وفاته سنة ٢٧٣ هـ .

تولى المنذر بن محمد امارة الأندلس بعد وفاة أبيه ، وكعادة أهل طليطلة عند تولى كل أمير جديد جنحوا الى التمرد والعصيان ونبذوا طاعة السلطة المركزية ، يصور ابن حيان شأن أهل طليطلة فى ذلك أواخر أيام الأمير محمد وعند تولى المنذر للامارة فيقول « صاروا الى طلب الأمان والاذعان بايتاء الجباية وقبول العمال وبذل الرهن على التزام الطاعة ، لبثوا بذلك مديدة فلما مضى لسبيله وقد نجمت الفتنة ببلاد الأندلس واضطراب الحبل ، ابتدروا النكث وسارعوا فى المعصية فأخذوا من ذلك بأوفر نصيب وجاهروا بالخلعان ونبذوا الطاعة وتكشفوا فى الغواية واتفق أن شغل السلطان عنهم بمن هو أقرب اليه من العصاة بالموسطة فلجوا فى غوايتهم أيام الأمير المنذر بن محمد » (٤) . لكن أهل طليطلة نالوا هزيمة

(١) ابن حيان ، المصدر السابق ، نشر مكي ، ص ٣٣١ .
(٢) ابن الفرضى : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٨٢ .
وعياض : ترتيب المدارك ، جـ ٤ ص ٢٧ .
(٣) ابن الفرضى : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٨٢ وعياض : المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٧١ .
(٤) ابن حيان : المقتبس نشرت شالميتا ، جـ ٥ ص ١٨٤ .

منكرة فى سنة ٢٧٣ على الرغم من استعانتهم حينذاك بالبربر المنفيين من ترجيلة ، وبلغ القتلى من أهل طليطلة عدة ألوف (١) .

الا أن تلك الهزيمة لم تفت فى عضد أهل طليطلة فواصلوا التمرد والعصيان طيلة أيام المنذر بن محمد التى لم تدم اكثر من عامين اذ توفى فى صفر سنة ٢٧٥ هـ وتولى بعده امارة الأندلس أخوه عبد الله بن محمد .

ظل أهل طليطلة على تمردهم طيلة أيام الأمير عبد الله بن محمد « فلم يقلعوا عن غواية ولا تمسكوا بعروة من عرى الطاعة » (٢) . واذا كان الكثير عن أحوال طليطلة ابان امارة عبد الله بن محمد التى امتدت الى خمسة وعشرين عاما لم يصلنا بعد (٣) الا أننا نعرف أنها تعرضت لأول امارة عبد الله لهجوم شنه عليها موسى بن ذى النون الهوارى الذى « أغرته الفتنة المستشرية بأرض الأندلس لدن قيام الأمير عبد الله فأوضع فيها وجمع ألفافها وغزا أهل طليطلة فى نحو عشرين ألفا وقد أوطأه أميرهم لب بن طربيشه على أن يجر عليهم الهزيمة لحقد كان له عليهم فلما واضعوا موسى الحرب وحمى وطيسها انهزم لب بأصحابه فانهزم العسكر بأجمعه ونزل السيف فى عسكر طليطلة واحتوى موسى وأصحابه على محلتهم بأسرها فحازوا منها ما أكسبهم الثراء وأفاد القوة والعلاء فخرج فى تيه الشقاق وجرت له خطوب كثيرة » (٤) . وفى سنة ٢٨٥ هـ تقدم لب بن محمد الى نواحى جيان ونازل حصن قسطلونه الذى كان ينزله حينذاك نصارى يحاربون عبيد الله بن أمية المعروف بابن الشاليه فأخذ لب بن محمد حصن قسطلونه وقتل من فيه من النصارى وبلغه هناك أن أباه محمد بن لب توفى أثناء حصاره لسرقسطه (٥) .

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ١١٦ .
(٢) ابن حيان : المقتبس ، نشر شالميتا ، جـ ٥ ص ١٨٤ .
(٣) ربما رجع هذا الى سببين : أولهما أن كتبا هامة عن تاريخ الأندلس مثل كتاب الرازى وأجزاء من كتاب ابن حيان وغيرها لم تصل الينا ، وثانيهما اهتمام الامارة الأموية حينذاك بثورات اكثر خطورة مثل ثورة الجليقى وثورة ابن حفصون مما جعل الكتاباب تنصب على تلك الثورات اكثر من غيرها .
(٤) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق محمود مكى ، ص ٣٤٢ .
(٥) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ١٣٩ .

استمرت أحوال طليطلة على وتيرة واحدة بين الطاعة والاتنزاء حتى توفى الأمير عبد الله بن محمد ، وتمتعت طليطلة حينذاك بنوع من الحكم الذاتى سمح لهم فيه بأن يختاروا عمالهم بأنفسهم وكان من أبرز البيوتات التى تولت على طليطلة حينذاك بنو موسى القسوى الذين ينتمى اليهم محمد بن لب وابنه لب بن محمد المشار اليهما آنفا ، وبنو طربيشة ابن مسونه الذين كان منهم لب بن الطربيشه الذى تواطأ مع موسى بن ذى النون الهوارى حسبما أشرنا من قبل وسوف نجده حاكما لطليطلة فى امارة عبد الرحمن الثالث بن محمد وسيصحبه فى غزوته المعروفة بغزوة مويش سنة ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م (١) ٠

تولى عبد الرحمن الثالث بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط امارة الأندلس بعد وفاة جده عبد الله فى ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م ، وكانت ربوع الأندلس وقتذاك تشتعل بالفتنة ويرفع المتنزون رايات التمرد والعصيان فى معظم نواحيه ٠ وكانت طليطلة تسهم فى مجال التمرد والعصيان بنصيب وافر على الرغم من تمتعها بنوع من الحكم الذاتى ، لكن زعماءها كانوا يناورون الحكومة المركزية ويدارونها مظهرين الطاعة كلما طالتهم يد السلطة وقوى بطشها ، كما أنهم كانوا يخشون من أطماع ملوك نصارى الأسبان فى الثغور الأندلسية عامة وطليطلة خاصة ، وقد تزايدت هذه الأطماع بسبب انشغال الحكومة المركزية بالثورات الناشبة بالأندلس حينذاك وانتهز النصارى الأسبان الفرصة حتى وصلت قواتهم الى طلبيرة القريبة من طليطلة وفى سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٨ م هاجمت قوات بنبلونة أحواز طليطلة وعاثت فى أراضيها وفى المزارع التى حول ناجرة وطليطلة وأصبحوا يهددون طليطلة تهديدا حقيقيا ومن ثم كانت طليطلة تدارى الحكومة المركزية استعانة بها ضد خطر الأسبان النصارى حتى أن لب بن الطربيشه صاحب طليطلة لم يجد بدا من الانضمام الى جيش عبد الرحمن الثالث بن محمد فى غزاته لمويش سنة ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م مظهرا طاعة تحتها معصية (٢) ٠

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ٢ ص١٧٦ وابن حيان : المقتبس جـ ٥ ، نشر شالميتا ، ص ١٠٥ ٠

(٢) ابن حيان : المصدر السابق ، جـ ٥ ص ١٠٥ وابن عذارى : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٧٦ ٠

طليــطلة فى عصر الخلافة

أعلن عبد الرحمن الثالث بن محمد نفسه خليفة فى الأندلس ســنة ٣١٦ هـ /٩٢٩ م بعــد أن توطد حكمه فى الأندلس وخضــع له معظم المتمودين والعصــاة ، اذ رأى أنه أحق بالخــلافة من الخليفة العباسى الضعيف فى بغداد والدعى العبيدى فى القاهرة .

وكان عبد الرحمن الثالث الذى تلقب بالناصر لدين الله يتقبل مداراة أهل طليطلة له واظهارهم طاعة اسمية طالما كان مشغولا بالفتنة المستشرية فى نواحى الأندلس فلما تسنى له اخماد معظم نيران هذه الفتنة ، ودانت له بالطاعة كل من باجه واكشونبة وماردة وبطليوس وشنترين وغيرها تقوت نفسه على اخضاع « مدينة طليطلة أم المعاقل وقاعدة المدائن التى عظم فى الأوائل خطرها وأعجز ملوك الأمم قراعها » (١) .

عزم الخليفة الناصر على اخضاع أهل طليطلة لطاعته وسلطانه لكنه قدم للقيام بذلك بخطوة يمكن وصفها بأنها دعائية ، فقد أرسل فى المحرم سنة ٣١٨ هـ وفدا من وجوه أهل قرطبة يضــم عددا من أكابر رجالات دولته منهم عبيد الله بن عبد الله الزجالى كما يضم عددا من أكابر فقهاء قرطبة المشهورين بالديانة والثقة والنصح والأمانة كان منهم محمد بن عبد الملك بن أيمن ومحمد بن ابراهيم بن عيسى ومحمد بن عبد الله بن أبى عيسى وغيرهم (٢) وكانت مهمة هذا الوفد أن يدعو أهل طليطلة الى الطاعة والدخول فيما صارت اليه الجماعة « اذ كانوا لا يؤدون جباية ولا يلزمون طاعة ولا يتناهون عن منكر ولا معصية فلاذوا بمعاذير المخادعة وحاربوا الناصر بما لم يصغ اليه من غشهم وتمريضهم فاستعزم على غزوهم وشمر لمناهضتهم وانزال بأسه بهم » (٣) .

---

(١) ابن حيان : المصدر السابق ، جـ ٥ ص ١٨٦ .
(٢) نفس المصدر ، نفس الصفحة .
(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٢٠٢ .

أغلب الظن أن الخليفة عبد الرحمن الناصر كان يدرك مسبقا عدم قبول أهل طليطلة للطاعة ولكنه أراد بهذه الخطوة الدعائية بارسال الوفد الى طليطلة أن يجمع حوله قلوب الأندلسيين وتشحيذ هممهم وراءه فى غزو من المحتمل أن تكتنفه صعوبات جمه من أخطرها احتمال استعانة أهل طليطلة بالعدو الأسبانى من ناحية ومن ناحية أخرى أراد الناصر احداث هزة نفسية واضعاف عزيمة أهل طليطلة على المقاومة ببث بذور الفرقة والخلاف فى الرأى بينهم حول قبول عرض الناصر أو رفضه .

كان يلى طليطلة حينذاك ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث الذى تولاها بعد لب بن الطربيشه ، ويبدو أن ثعلبة كان مناورا حصيفا فوقف من عرض الناصر موقف المداراة بين الرفض والقبول فلم يلتزم بطاعة ولم يعلن يعلن العصيان ، لكن الخليفة الناصر لم يكن ليقبل منه هذا الموقف المخادع فقوى عزمه على غزو طليطلة وأخذ فى التأهب لذلك (١) . فلما بلغ أهل طليطلة ما عزم عليه الخليفة الناصر بادروا الى مناورة جديدة فكتبوا الى الحاجب موسى بن محمد حدير يستشفعون به الى الناصر أملا فى تهدئة خواطره نحوهم واطفاء موجدته عليهم ويماطلون ويشارطون على الطاعة كسبا للوقت وأملا فى تأخير تحرك الجيش اليهم حتى يتسنى لهم حصاد غلاتهم التى دنا وقت حصادها فيقومون بتخزينها ويتقوون بها على حصار طويل سوف يفرضه الخليفة الناصر عليهم ، لكن مرامى أهل طليطلة لم تخف على الخليفة الناصر ولا على حاجبه موسى بن محمد بن حدير بل جعلت الناصر يعجل بالغزو حتى يفوت عليهم تحقيق ما يصبون اليه ، ففى صدر ربيع الآخر سنة ٣١٨ هـ / ابريل ٨٣٠ م أرسل الناصر طلائع قواته بقيادة الوزير سعيد بن المنذر فى قوة كبيرة العدد كاملة العدة وأمره بمحاصرة طليطلة حتى يلحق به الخليفة الناصر بسائر قواته ، فتقدم الوزير القائد سعيد بن المنذر حتى نزل بساحة طليطلة فحاصرها حصارا شديدا وضيق عليها الخناق (٢) .

---

(١) ابن حيان : المصدر السابق ، جـ ٥ ص ١٨٦ .
وابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٢٠٢ .
(٢) ابن حيان : المصدر السابق ، جـ ٥ ص ١٧٨ .
وابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٢٠٢ .

ثم خرج الخليفة عبد الرحمن الناصر بنفسه فى حشد حافل من الجند متوجها الى طليطلة فى الثانى من جمادى الأولى ٣١٨ هـ / ٢٩ مايو ٩٣٠ م واصطحب معه ابنيه الحكم والمنذر وترك على السطح فى قرطبة ابنه عبد العزيز لتنفيذ الكتب اليه (١) .

مضى الناصر فى طريقه حتى نزل بمحلة الغدر على مقربة من حصن مورة وكان أهل طليطلة قد اتخذوه قاعدة يشنون منه اغاراتهم وأقاموا عليه رجلا منهم هو مطرف بن عبد الرحمن بن حبيب فأنذر عبد الرحمن الناصر مطرف وتوعده آمرا اياه بتسليم الحصن لم يجد مطرف فى نفسه قدرة على مقاومة الناصر فأذعن لما أمر به ونزل عن الحصن ودخل فى الطاعة ، فضبط الناصر حصن مورة ثم أكمل سيره نحو طليطلة حتى وصل اليها فنزل محلة جرنكش الواقعة وسط حدائقها وكرومها وأشرف منها على سهل طليطلة ونهرها وجناتها وكرومها ودبر رأيه فى كيفية حصار طليطلة وأكثر المواضع صلاحية لحصارها وأقرب الجهات الآخذة بمخنق أهلها فانتهى به الرأى الى أن النزول بمحلة المقبرة على باب المدينة أبلغ فى النكاية بأهل طليطلة وأشد فى مضايقتهم فنقل معسكره من محلة جرنكش الى محلة المقبرة وأقام بها سبع وثلاثون يوما يوالى منها الحصار ونكاية أهل طليطلة بنزع أشجارهم وقطع ثمارهم وتخريب قراهم وتحطيم زروعهم وانتساف نعمهم ، ثم أمر الخليفة الناصر ببناء مدينة الفتح بمحلة جرنكش وأقام على بنيانها وزيره سعيد بن المنذر حتى اذا ارتفع البناء أمر بتمدينها ونقل الأسواق اليها وشحنها بالأقوات والسلاح وجمع لها أهل المهن والفعلة والصناع والمعالجين وأنزلها طوائف من نخب الجند وأحاط بأهل طليطلة ورتب عليهم مراتب الحصار وقسم طبقات الأجناد على الأماكن حول المدينة فحبس أهلها فيها لا يخرج منها خارج ولا يدخل اليها داخل وأقام وزيره سعيد بن المنذر على رأس أكابر القواد المحاصرين لها ورتب ابنه محمد بن سعيد بن المنذر على باب القنطرة وأمر بتشديد الحصار وتضييق الخناق على أهل طليطلة ، ثم قفل الناصر عائدا الى قرطبة

---

(١) كان من يستخلف على قرطبة أثناء غياب الأمير او الخليفة عنها يجلس فى مجلس على سطح القصر لمراقبة أحوال المدينة وينفرد بهذا المجلس لا يشاركه فيه أحد .

بعد أن قضى فى غزوته تلك احدى وستين يوما (١) .

عزم الخليفة عبد الرحمن الناصر على الخروج الى طليطلة سنة ٣١٩ هـ لكنه عدل عن ذلك مكتفيا بتشديد الحصار المضروب عليها منذ العام الماضى فجدد أوامره الى قواده المرتبين لحصارها بتشديد الحصار واحكامه لمزيد من الاجهاد واستنفادا لكل طاقات المقاومة عند أهل طليطلة . وأمد الناصر قواته المحاصرة لطليطلة بمزيد من العتاد والسلاح والخيل (٢) . لكن أنباء عن تحركات للأسبان النصارى نحو الثغر الأعلى وصلت الى الناصر ويبدو أن نصارى الأسبان كانوا يرمون الى انتهاز فرصة انشغال الناصر بمحاصرة طليطلة وطمعوا فى مهاجمة ثغور الأندلس للنيل منها من ناحية ومن ناحية أخرى كانوا يهدفون الى تخفيف الحصار عن طليطلة بفتح جبهة أخرى للقتال يضطر الناصر الى تحريك جزء من قواته اليها ، لكن الناصر أحبط مخططاتهم فلم يحرك اليهم قواتا من المحاصرة لطليطلة وانما أخرج اليهم جندا من قرطبة من الحشم ومن خف معهم من المطوعة المحتسبين والمجاهدين وجعل قيادتهم للوزير القائد أحمد بن محمد بن حدير ، فلما نزل ابن حدير وجيشه الثغر تقاعس الأسبان النصارى عن المضى قدما فى مهاجمة الثغر وعادوا أدراجهم (٣) فانضم الوزير القائد أحمد بن محمد بن حدير بقواته الى القوات المحاصرة لطليطلة (٤) .

ظل الحصار مضروبا على طليطلة نحو عامين مما أجهد أهلها اجهادا شديدا وأضر بهم ضررا بليغا ولم يعد فى استطاعتهم تحمل المزيد فاستنجدوا بنصارى الأسبان واستمدوهم فأمدهم نصارى الأسبان بجيش كبير لكن القواد المحاصرين لطليطلة قطعوا الطريق على تلك القوات وهزموهم هزيمة منكرة فارتدوا على أعقابهم خاذلين لأهل طليطلة الذين سقط فى أيديهم

---

(١) ابن حيان : المصدر السابق ، جـ ٥ ص‌ص ١٨٨ — ١٨٩ .
وابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٢٠٣ .
(٢) ابن حيان : المصدر السابق ، جـ ٥ ص ١٩٠ .
وابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٢٠٤ .
(٣) ابن حيان : المصدر السابق ، جـ ٥ ص ١٩١ .
(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٢٠٤ .

ووجدوا ألا مناص لهم من الاذعان لمشيئة الخليفة الناصر والدخول فى طاعته (١) .

خرج الخليفة عبد الرحمن الناصر بنفسه فى جمادى الآخرة سنة ٣٢٠ هـ الى طليطلة للاستيلاء عليها وتوطيد طاعته فيها بعد أن أيقن من اذعان أهلها بعد أن أشرفوا على الهلاك من طول الحصار ونال الجوع من أهل الضعف والاقلال منهم ، ونادى فيهم الزبير بن السليم قائد الجند المحاصرين لطليطلة يومئذ نداء عاما يرغب فيه من أراد الخروج منهم آمنا مطمئنا ، فأصغى لهذا النداء أهل المسكنة من أهل طليطلة ، فى الوقت الذى كان الخليفة الناصر قد وصل فيه الى طليطلة ونزل بمحلة جرنكش فبادر اليه ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث صاحب طليطلة طالبا عفوه وأمانه فعفا عنه الناصر وأمنه وتأسى أهل طليطلة بزعيمهم ثعلبة ابن عبد الوارث فخرجوا الى الناصر منقادين لحكمه معلنين لطاعته فأمنهم وعم جميع أهل طليطلة بالأمان العام (٢) وكان الخليفة الناصر كريما فى استنزاله لأهل طليطلة فقد روى الرازى عن شيخ من أهل طليطلة سأله عن خبر فتحها فقال الشيخ الطليطلى « .. فلما رأينا أنه الموت عيانا دعونا الى الصلح وطلب الأمان فأجابنا السلطان وكتب لنا على فرط اضطرارنا بكل ما أردناه واشترطناه من الحرية عن الوظائف والاعفاء عن النوائب ومن شكوس القبالات ومعرة الانزال فى الدور وأن لا يؤخذ منا غير الزكاة المفروضة على السنة المعلومة وأن لا يعزل عنا صاحب صلاتنا ولا يقدم علينا الا خيارنا ومن تتفق عليه جماعتنا فلم يمنعنا السلطان ذلك كله فأسمحت عند ذلك قرابتنا وألقينا اليه بأيدينا وفتحنا له مدينتنا فدخلها على حكمه ووفى لنا بعهده وتغمدنا جميعا بعفوه » (٣) .

واما ان عفا الناصر عن أهل طليطلة وأمنهم حتى سارعوا الى أسواق مدينة الفتح يبتاعون المعايش التى افتقدوها ومنعها الحصار عنهم ، وركب

---

(١) ابن حيان : المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٢١٣ وابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٢٠٦ .

(٢) ابن حيان : المصدر السابق ، جـ ٥ ص ٢١٤ .

(٣) نفس المصدر ، جـ ٥ ، ص ٢١٧ .

الناصر فى اليوم التالى داخلا مدينة طليطلة يوم الخميس السادس والعشرين من رجب سنة ٣٢٠ هـ (١) .

وبعد دخوله طليطلة ، تفقد عبد الرحمن الناصر مدينة طليطلة وجال فى أرجائها فعاين حصانتها وعجيب بنيانها ومنعتها من كل الجهات بمتانة أسوارها واكتناف واديها لقصبتها ووعورة مسالكها وسعة ربوعها وطيب جوهرها وهوائها وكثرة البشر بها مما جعله يقدر الاستيلاء عليها حق قدره ويحرص كل الحرص على أن يحكم عليها قبضته فاهتم بتنظيم أحوالها وشئونها ، فأمر بتجديد بناء قنطرتها بعد أن ساء بنيانها ، وأحكم الناصر فى الموضع المسمى الحزام بنيان القصر وسوره بسور منيف وجعله مستقرا للعمال والحامية المقيمة بالمدينة ففصل بينهم وبين أهل المدينة تفاديا للاحتكاك بينهم من ناحية ومن ناحية أخرى جعل هذا القصر زماما على أهل المدينة ومسيطرا على بابها وفصل به الحزام عن المدينة ووصله بباب القنطرة الذى لا سبيل الى دخول المدينة الا منه فصار الباب والقنطرة تحت سيطرة عماله وجنده لا يستطيع أهل المدينة الخروج منها ولا يمكن لأحد أن يدخل اليهم الا باذن السلطان وتحت سمعه وبصره فأصبح أهل طليطلة فى قبضته وأقصروا عن غوايتهم وسكنوا الى طاعة الخليفة الناصر الذى أقام على حامية طليطلة قائده درى بن عبد الرحمن ، وأمر بهدم ما وجب هدمه فى المدينة وظل يتردد عليها ثمانية أيام حتى تظم أحوالها واطمأنت بأهلها الدار وأنسوا بالقرار فانتشروا فى الأسواق وفتحوا الحوانيت وانبسطوا فى أفنيتهم وحضروا مساجدهم وانتشروا فى بواديهم آمنين ثم قفل الناصر عن طليطلة عائدا الى حاضرته (٢) .

استقرت أحوال طليطلة بعد دخولها فى طاعة الناصر فولى عليها وعلى أعمالها محمد بن عبد الله بن جدير (٣) لكنه عزله عنها فى العام التالى وولى عليها فى سنة ٣٢٢ هـ محمد بن عبد الرحمن الذى تولاها حتى

---

(١) نفس المصدر ، جـ ٥ ص ٢٢٤ وابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٢٠٦ .

(٢) ابن حيان : المصدر السابق ، جـ ٥ ص ٢٢٥ .
وابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٢٠٦ .

(٣) ابن حيان : المصدر السابق ، جـ ٥ ص ٢٢٥ .

ســنة ٣٢٥ فعزل عنها وولى الناصر عليها أحمــد بن محمد بن مبشر وعبد الله بن محمد معا وضمت لهما قلعة رباح (١) •

أصبحت طليطلة بعد دخولها فى طاعة عبد الرحمن الناصر قاعدة تنطلق منها جيوش المسلمين لغزو نصارى الأسبان ، ففى ســنة ٣٢١ هـ غزا بالصائفة الوزير القائد عبد الحميد بن بســيل فجاء بالجيش الى مدينة طليطلة فدخل منها الى جليقية وجال فى الثغر (٢) • وفى سنة ٣٢٥ هـ علم الخليفة الناصر لدين الله أن العدو الأسبانى يحشد قواته بأطراف الثغر الأعلى مترصدا لغزوة يصيبها من المســلمين ويبدو أنهم كانوا يريدون الزحف الى طليطلة لاثارة أهلها وتحريضهم على الثورة ففزع أهل طليطلة وخافوا على غلاتهم من افساد العدو ، فخرج الناصر لدين الله فى جيش كبير لردع هذه الحشود الأسبانية وعرج بجنوده على طليطله فنزل بها وأقام فيها كيما ينبسط أهلها بأرضهم ويأمنوا مما حذروا على غلاتهم ويدركوا أن حكومة الخلافة ســاهرة على أمنهم وحمايتهم ، فلما علم نصارى الأسبان بوصول الخليفة الناصر الى طليطلة ودنوه منهم عدلوا عما كانوا عزموا عليه وتجيشو له وعادوا أدراجهم مذعورين الى بلادهم ، وقبل أن يعود الناصر الى قرطبة سار الى الثغر الأعلى من طريق وادى الحجارة متفقدا لأحواله وترك قوة من جيشه فى منطقة طليطلة بقيــادة مولاه « درى » لتأمين المنطقة (٣) التى كانت عرضة لغارات العدو وقبل أن تنتهى سنة ٣٢٥ هـ ورد الى الناصر كتاب من أحمد بن محمد بن مبشر عامل طليطلة يخبره بانتصاره هو ورجاله مع من انضم اليهم من أهــل طليطلة على سرية ثقيلة من أهل سمورة التقى بها فى دار الحرب متجهة نحو طليطلة لكنه هزمهم وقتل الكثير من فرسانهم وأسر آخرين كثيرين منهم وعاد بجيشه غانما ومعه الأسرى والخيول والغنائم (٤) •

---

(١) نفس المصدر ، جـ ٥ ، ص ٢٨٤ •
(٢) ابن حيان : المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٢١٨ •
(٣) نفس المصدر : جـ ٥ ص ٢٦٧ •
ومحمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام فى الأندلس ، القسم الثانى ، ص ٤٠٧ •
(٤) ابن حيان : المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٢٧٣ •

وفى صيف عام ٣٢٧ هـ / ٩٣٩ م خرج الناصر فى جيش عظيم لغزو مملكة ليون ووصل بقواته الى طليطلة ثم خرج منها الى أرض العدو ، الذى تمكن من هزيمة المسلمين عند شنت منقش (سيمانقه) بسبب تجمع القوى النصرانية واتحادها من ناحية وخيانة أمية بن اسحاق الثائر وامداده العدو النصرانى من جهة أخرى • وزاد من قسوة الهزيمة تردى كثير من المسلمين فى خندق عميق قتل فيه الكثير منهم مما جعل الناصر يتقهقر بقواته ويحتل أعلى النهر فعجز العدو عن اتباعه وملاحقته ، وعاد الناصر الى طليطلة فمكث بها أربعة أيام قبل أن يأخذ طريقه عائدا الى قرطبة (١) •

على الرغم من هذه الهزيمة الثقيلة التى منى بها جيش الناصر فان أهل طليطلة ظلوا على الطاعة والهدوء ولم ينتهزوا الفرصة للتمرد أو الثورة مما يدل على التزامهم بالطاعة والركون اليها ، واستمرت طليطلة حصنا منيعا فى وجه غارات العدو النصرانى وقلعة لمهاجمته ، ففى سنة ٣٣٦ هـ ورد كتاب فى يوم الجمعة التاسع من المحرم من « قد » مولى الخليفة الناصر والقائد بطليطلة يومئذ يخبر سيده بفتح فتحه الله على يده فى أهل جليقية (٢) •

ويبدو من كثرة من تولى على طليطلة من كبار القادة مدى عناية خلافة قرطبة بتأمين أهلها من غارات العدو النصرانى من جهة وضمان طاعتهم وولائهم من ناحية أخرى فقد تولاها من هؤلاء القادة الكبار غير « قد » مولى الناصر كل من القائد محمد بن عبد الله بن حدير الذى صرف عنها سنة ٣٤٣ هـ والقائد أحمد بن يعلى الذى تولاها بعد ابن حدير (٣) •

مالت طليطلة الى الهدوء والطاعة بقية خلافة الناصر لدين الله حتى توفى سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م فتولى الخلافة بعده ابنه الحكم المستنصر فلم تغير طليطلة من موقفها وظلت على الطاعة والهدوء ، كما أنها ظلت قاعدة هامة لانطلاق الجيوش الاسلامية لمهاجمة العدو النصرانى ، ففى

---

(١) محمد عبد الله عنان ، المرجع السابق ، صص ٤١٢ — ٤١٥ .
(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢١٤ .
(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣١٩ .

صيف سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م خرج الحكم المستنصر معلنا الجهاد وغازيا لأراضى الأسبان النصارى (١) فاجتمعت اليه الجنود فى طليطلة ومنها سار الى أراضى قشتاله حتى أشرف على قلعة شنت أشتيبن المنيعة فحاصرها واستولى عليها واجتاح أراضى الكونت فرنان جونثالث حتى أذعن الى طلب الصلح ولكنه نكث عهده فعاود المسلمون مهاجمته واستولوا على بلدة أتيشة الحصينة (٢) .

ويبدو أن الحكم المستنصر أراد مزيدا من التأمين لمنطقة طليطلة من غارات العدو النصرانى من ناحية واحكام قبضته على طليطلة ومراقبتها من ناحية أخرى فأنفذ فى سنة ٣٥٣ هـ / ٩٦٤ م أحمد بن نصر لبنيان مدينة بثغر طليطلة وجعل بين يديه أحمال من المال حتى أتم تشييدها وتوثيق أمورها (٣) ويبدو أن هذه المدينة المشار اليها لم تكن الا حصنا لاستكمال سلسلة الحصون التى كان الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط قد بدأ بنيانها ومنها مجريط وحصن طلمنكه وبنه فراطه .

وبلغ من استكانة أهل طليطلة أنهم لم يعترضوا على أن يتولى عليهم وال من قبل خلافة قرطبة ، فعلى الرغم من أنه لم يصل الينا ما يفيد تراجع الناصر والحكم المستنصر عن الامتيازات الممنوحة لأهل طليطلة ممثلة فى اعطائهم نوعا من الحكم الذاتى وحريتهم فى اختيار عمالهم ، فاننا نلاحظ تتابع عدد من القادة تولوا على طليطلة من قبل الخليفة الناصر مثل « قد » ومحمد بن عبد الله بن حدير وأحمد بن يعلى ، ومن قبل الخليفة الحكم المستنصر مثل القائد سعادة الذى أرسل الى قرطبة سنة ٣٦٢ هـ كتيبة من الرجال الأشداء انتقاهم من ثغر طليطلة من ذوى البأس والرجولة وبلغ عددهم ألفا وسبعمائه فى أحسن عدة يتقلدون السيوف الافرنجية وبأيديهم التراس والرماح المسنونة الأسنة فقدموا الى الزهراء يتقدمهم العرفاء الموكلون بهم فاستعرضهم الوزراء وقادة الحشم وأمدوهم بالعتاد والميرة

(١) الضبى : المصدر السابق ، ص ٣٣٣ .
(٢) محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ص ٤٨٦ .
(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٢٣٦ .
وعبد الرحمن على الحجى : المرجع السابق ، ص ٣٠٦ .

اللازمة ثم أرسلوهم للانضمام الى عسكر الخليفة المستنصر بالعدوة المغربية (١) .

أغلب الظن أن اهل طليطلة لم يسلبوا امتيازهم الذى حصلوا عليه من قبل وحقهم فى اختيار حاكمهم بأنفسهم وانما كان يسير أمورهم الداخلية بعض رجالاتهم الذين لم يميلوا الى التمرد ولم ينزعوا الى العصيان خاصة مع وجود هؤلاء القادة العسكريون الذين كانوا فيما يبدو حكاما لثغر طليطلة كله وليس مدينة طليطلة وحدها ، ولعلهم لم يقيموا داخل مدينة طليطلة وانما سكن من كان منهم فى خلافه الناصر بمدينة الفتح التى كانت قد أقيمت عشية فتح الناصر لطليطلة ومن كان منهم فى خلافة الحكم المستنصر فقدسكن الحصن الذى بناه أحمد بن نصر بثغر طليطلة بأمر من الحكم المستنصر فى سنة ٣٥٣ هـ .

تولى هشام بن الحكم المستنصر الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٣٦٦ هـ وتلقب بالمؤيد بالله ، وكان هشام المؤيد حدثا صغيرا. فاستبد بالحكم من دونه حاجبه المنصور أبو عامر محمد بن أبى عامر بعد منافسة شديدة مع الحاجب جعفر المصحفى وذى الوزارتين غالب الناصرى . وظلت طليطلة على ولائها وطاعتها للخلافة دون أن تسعى الى انتهاز فرصة هذه الأحداث والمنافسات لاظهار التمرد أو الثورة . وتولى طليطلة من قبل هشام المؤيد رجال من البيت الأموى الحاكم مثل الوزير أبى بكر عبد الله ابن عبد العزيز المروانى الذى ينتهى نسبه الى الحكم الربضى ، وكان يقال لعبد الله بن عبد العزيز البطرشك بالعجمية ومعناه الحجر اليابس ، وقد فوض اليه هشام المؤيد أمر طليطلة وقلده اياها مع خطة الوزارة ، وكان للبطرشك دور هام فى مقاومة غالب الناصرى أيام فتنته وخلافه مع المنصور ابن أبى عامر ودعاه غالب الى القيام بالخلافة لكنه لم يجبه الى ذلك بل ظل على ولائه لهشام المؤيد وحاجبه المنصور ابن أبى عامر ، وكان على مقدمة المنصور بن أبى عامر فى غزاته الى جليقية التى غزاها بعد منصرفه من قتل غالب الناصرى بالثغر فى أول المحرم سنة ٣٧١ هـ وشاركه الغزو خيل طليطلة وطبقات الأجناد والرجالة وحصر فى غزوته هذه مدينة

---

(١) ابن حيان : المقتبس ، نشر الحجى ، ص ١١٧ .

سمورة (١) . وقد كافأ المنصور أبن أبى عامر الوزير عبد الله بن عبد العزيز المروانى على موقفه من غالب الناصرى فأبقاه على طليطلة حتى سنة ٣٧٩ هـ ولم يعزله عنها الا بعد أن تواطأ عبد الله بن عبد العزيز مع عبد الله بن المنصور بن أبى عامر فى تآمره مع عبد الرحمن بن مطرف صاحب سرقسطة على قتل أبيه المنصور واقتسام الأندلس فيما بينهما ، وقد تخلص المنصور من أطراف هذه المؤامرة فقتل عبد الرحمن بن مطرف التجيبى صاحب سرقسطة وقتل ابنه عبد الله وصرف عبد الله بن عبد العزيز المروانى عن طليطلة ثم أقاله بعد ذلك من الوزارة واعتقله بداره (٢) .

وكان ممن تولى طليطلة أيضا فى خلافة هشـام المؤيد أبو مروان عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد (٣) وبنو شـهيد من أهل الرياسة والنباهة قديما مما يدل على اهتمام المنصور أبى عامر بتعيين ولاة أكفاء على طليطلة اداركا منه لأهميتها وخطورتها .

وقد ظلت طليطلة فى عصر المنصـور أبى عامر محمد بن أبى عامر احدى القواعد الثغرية الهامة التى تنفد منها الجيوش الاسلامية الى دار الحرب لمجاهدة نصارى الأسبان ، ففى عام ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م اتخذها المنصور أبى عامر قاعدة لانطلاقه الى غزوته الثالثة ، فقد سار اليها والتقى مع غالب الناصرى ــ وكان مصاهرا له حينذاك ــ فسار الاثنان معا الى سلمنقه وعاثا فيمـا مروا به من أراضى مملكة ليون واقتحمـا سلمنقه واستوليا على كثير من الغنائم ثم عاد ابن أبى عامر الى قرطبة بعد أن أمضى فى غزوته اكثر من شهر (٤) وفى سنة ٣٧١ هـ كان انطلاق المنصور بن أبى عامر فى غزاته الى جليقية من ناحية طليطلة وانضـم اليه واليها حينذاك عبد الله بن عبد العزيز المروانى بخيل طليطلة وجندها وكان على مقدمته على نحو ما أشرنا سابقا . وكانت طليطلة منطلق المنصور أبى عامر الى غزوته الأخيرة التى توفى فيها ، فقـد اجتمعت اليه الجيوش فى طليطلة وانطلق منها الى دار الحرب . وتختلف الروايات عن هذه الغزوة فبينما

---

(١) ابن الآبار : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢١٥ .
(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٨٢ وابن سعيد ، المغرب ، جـ ٢ ص ١٠ محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ، ص ٥٤٩ .
(٣) ابن الآبار : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٣٩ .
(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٢٦٧ .

يقول لافوينتى أن ملوك النصارى اتحدوا ضد المنصور وتمكنوا من هزيمته فى موضع يسمى قلعة النسور وأصابوه بجراحات عديدة فارتد محمولا على محفة الى مدينة سالم حيث توفى فيها سنة ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢م. وقد أخذ برواية لافوينتى بعض الباحثين الأسبان مثل سافدرا وكوديرا لكن باحثين آخرين مثل دوزى يكذبون هذه الرواية ليس فقط لسكوت المصادر الاسلامية عن ذكرها وانما لأن ملوك الأسبان النصارى التى قالت الرواية بتحالفهم واتحادهم ماتوا جميعا قبل تاريخ هذه الموقعة المزعومة (١) .

وظلت طليطلة على هدوئها وطاعتها فى عهد عبد الملك بن المنصور أبى عامر ، وظلت قاعدة تنطلق منها الجيوش الاسلامية لمجاهدة نصارى الأسبان ، فقد جعلها عبد الملك بن المنصور أبى عامر على طريق أول غزاته الى بلاد نصارى الأسبان سنة ٣٩٣ هـ (٢) ، كما أنها كانت قاعدة انطلاق الحاجب عبد الملك بن المنصور أبى عامر الى غزاته الثانية التى قصد فيها جليقية سنة ٣٩٥ هـ ، فقد خرج الحاجب عبد الملك بجيوشه الى طليطلة فنزلها وأخذ فيها يستعد ويتأهب ويتزود بالعتاد والميرة ثم انطلق منها الى غزوته (٣) .

وكان لطليطلة دورها فى الفتنة الأندلسية الكبرى التى اندلعت فى مستهل القرن الخامس الهجرى والمعروفة بالفتنة البربرية ، وان كان ابن عذارى يرى أن الأحق والأولى تسميتها بفتنة ابن عبد الجبار لأنه كان سبب اشتعالها (٤) . وقد رفضت طليطلة فى مستهل هذه الفتنة أن تنحاز الى عبد الرحمن شنجول بن المنصور بن أبى عامر والذى كان قد تولى الحجابة بعد وفاة أخيه عبد الملك المفاجئة سنة ٣٩٩ هـ لكنه أساء السيرة وطمع فى اقتناص الخلافة فنصب نفسه وليا لعهد هشام المؤيد فزاد سخط الناس عليه وبدلا من أن يحاول تهدئة خواطر الناس خرج لغزوة غير مجدية فى غير موسم الغزو اذ خرج فى الشتاء معرضا جنده للصقيع والبرد ووصل جليقية فلم يجد من ينازله اذ احتمى نصارى

---

(١) محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ، ص ٥٦٤ .
(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٥ .
(٣) نفس المصدر ، ج ٣ ص ١١ .
(٤) نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٧٦ .

الأسبان بالجبال فعاد أدراجه دون أن يسل سيفا أو يحرز نصرا ومر فى طريق عودته بطليطلة فجاءه الخبر بقيام الثورة فى قرطبة .

كان يحكم طليطلة حينئذ الفتى واضح الكبير مولى المنصور بن أبي عامر فنصح الحاجب عبد الرحمن شنجول بالبقاء فيها لكن شنجول خرج قاصدا قرطبة ظنا منه أنه يستطيع اخمــاد الثورة لكن يبدو أنه أحس بخطورة الأمر فما أن نزل قلعة رباح حتى أعلن التبرأ عن ولاية العهد وكتب الى أهل طليطلة يخبرهم بذلك ويستميلهم الى طاعته فلم يميلوا اليه وكان أسبق الناس الى الغدر به واضح الكبير حاكم طليطلة (١) . وما لبث أن قبض رجال محمد بن هشام بن عبد الجبار على شنجول فى دير على نهر أرملاط وقتلوه فى رجب سنة ٣٩٩ هـ فلم يمكث الا أقل من خمسة شهور حاكما للأندلس .

انتزع محمد بن هشام بن عبد الجبار خلافة الأندلس وتلقب بالمهدى وصرف عنها هشام المؤيد لكن نزاعا نشب حول الخلافة بين المهدى ابن عبد الجبار وهشام بن سليمان الملقب بالقائم ثم من بعــده ابن أخيه سليمان بن الحكم بن سليمان الملقب بالمستعين وكان البربر قد قدموهما واحدا بعد الآخر منافسة للمهدى ابن عبد الجبار وخوفا منه واستياء من معــاملته للبربر أقوى فرق الجيش الأندلسى حينذاك . وقــد مالت طليطلة فى هذا الصراع الى جانب محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدى حتى أنه فر اليها بعد هزيمته فى قرطبة لكن طليطلة أحسنت قبوله وانضم اليه واضح الفتى الكبير العامرى ، وعبثا حاول سليمان المستعين استمالة اهل طليطلة فأرسل اليهم جيشا بقيادة أحمد بن وداعة لارهابهم واستمالتهم لكن أحمد بن وداعة عاد الى المستعين يخبره بخلاف اهل طليطلة والثغر كله وتمسكهم بطاعة المهدى ابن عبد الجبار (٢) .

انتهى الصراع بين المهدى بن عبد الجبار وسليمان المســتعين بهزيمة المهدى وقتله فى ذى الحجة سنة ٤٠٠ هـ / يوليو ١٠٠١ م ، لكن طليطلة

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٦٩ .

(٢) نفس المصدر ، جـ ٣ ص ٩٣ .

والحميدى : جذوة المقتبس ، ص ١٨ وابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ١١٣ .

لم تقبل طاعة المستعين حتى أنه خرج بنفسه متوجها اليها لارهابها فلما قرب منها أرسل الى أهلها جماعة من الفقهاء ليستميلوهم لكنهم عادوا اليه بخلاف طليطلة ، ولم يشأ سليمان المستعين اثارة اهل طليطلة أو مهاجمتهم فتجاوز عنها بغير اساءة اليهم عسى أن يدخلوا فى طاعته سلما ورحل سليمان المستعين حتى نزل على مدينة سالم ثم عاد الى قرطبة لشدة البرد وقلة الميرة (١) ٠

استعادت طليطلة حكمها الذاتى الذي طالما تخلت عن ممارسة حقهـا فيه منذ خلافة الناصر وابنه الحكم المستنصر ، وقد كان واضح الكبير فيما يبدو آخر الحكام الموفدين اليها من قرطبة ، لكنها وجدت الفرصة سانحة بعد تهالك خلافة قرطبة وتدهورها ابان الفتنة التى نشبت والصراع بين المهدى والمستعين ، فقام على حكمها الزعماء المحليون من أهلها ويبدو أنها اختارت نوعا من الحكومة الجماعية تشبه ما حدث بقرطبة عند قيام دولة بنى جهور بها فقد خرجت طليطلة من الفتنة بحكومة جماعية يترأسها قاضيها حينذاك أبو بكر يعيش بن محمد بن يعيش الأسدى وشاركه عدد من أعيانها هم ابن مسرة وعبد الرحمن بن منيوه وسـعيد بن شتطير ، لكن الخلاف وقع بين الجماعة الحاكمة وانتهى الأمر بعزل القاضى أبى بكر يعيش الذى سار الى قلعة أيوب واستقر بها حتى توفى سنة ٤١٨ هـ ، وانفرد بالحكم عبد الرحمن بن منيوه ثم خلفه ابنه عبد الملك الذى أساء السيرة فاضطربت أحوال طليطلة ولم يجد اهلها خلاصا من هذه الأحوال المتردية الا الاستعانة بحاكم شنتبرية القوى عبد الرحمن بن ذى النون الهوارى فأرسل اليهم ولده اسماعيل الذى تولى حـكم طليطلة سـنة ٤٢٧ هـ /١٠٣٦ م (٢) وأقام فيهـا احدى ممالك الطوائف المشهورة ٠

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٩٣ ٠

(٢) نفس المصدر ، ج ٣ ص ٢٧٦ وابن الخطيب ، المصدر السابق ص ١٧٧ ٠ ومحمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٩٧ ٠ وليفى بروفنسال : دائرة المعارف الاسلامية ، مادة طليطلة ٠

طليطلة فى عصر دويلات الطوئف

« دولة بنى ذى النون »

كانت الفتنة الأندلسية الكبرى التى اندلعت فى أواخر عصر الخلافة تسمى الفتنة البربرية ، بينما يرى ابن عذارى أن لأحق والأولى أن تسمى فتنة ابن عبد الجبار اذ كان فساد رأيه هو المسبب لها لكننا نرى أن تسمية هذه الفتنة بالفتنة القرطبية أوجب اذ كانت قرطبة محور أحداثها ومركز صراعاتها بينما وقفت المدن الأندلسية الأخرى موقف المراقبة ، تنظر الأحداث وتنتظر نتائجها ، وقد أسفرت هذه الفتنة القرطبية ــ ان صحت التسمية ــ عن أسوأ النتائج وأوخم العواقب على الأندلس الاسلامى وأودت بوحدته وهوت بها هاوية لم تستطع أن تنهض منها أبدا ، وقضت على الخلافة عامود الوحدة الأندلسية فتمزق الكيان الأندلسى الى أشلاء صعب تجميعها أو لم شعثها مرة أخرى •

وقفت طليطلة كغيرها من المدن الأندلسية ترقب أحداث الفتنة وتنتظر ما سينجلى عنها ، وكان غريبا أن تقف طليطلة هذا الموقف دون أن تجنح الى الثورة أو تنزع الى الاستقلال وهى المدينة الطموحة التى اعتادت على انتهاز كل فرصة للتمرد ولم تترك أمير من أمراء قرطبة الأمويين الا وثارت عليه وتمردت على سلطانه حتى لقبها ابن حيان بأم النفاق ، لكنها اليوم والفتنة مستشرية والخلافة هشة متهاوية ــ حتى أن أبا الحزم بن جمهور أجهز عليها بغير مشقة فى ق القعدة ٤٢٢ هـ / نوفمبر ١٠٣١ م ــ لا تنتهز الفرصة ولا تثور ولا تتمرد •

وواقع الأمر أننا لا ندهش كثيرا لهذه الاستكانة غير المعهودة من طليطلة فلم تكن هذه الاستكانة وليدة الوقت أو الساعة وانما كانت نتيجة طبيعية لالتزام طويل بالطاعة بدأ منذ استسلامها للخليفة الناصر بعد آخر ثوراتها عليه سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م ؛ فقد ركنت طليطلة الى الدعة والطاعة التامة طيلة ما تبقى من خلافة الناصر الذى توفى سنة ٣٥٠ هـ وطيلة خلافة الحكم المستنصر الذى توفى سنة ٣٦٦ هـ ، ولم تشذ عن ذلك ابان حكم العامريين

باسم هشام المؤيد حتى أنها لم تنبذ طاعة عبد الرحمن شنجول بن المنصور أبي عامر الا التزاما منها بطاعة الخلافة بعد أن سولت لشنجول نفسه اقتناص الخلافة من هشام المؤيد فانحازت الى طاعة المهدى محمد بن هشام ابن عبد الجبار الذى أشعل الثورة فى قرطبة ضد عبد الرحمن شنجول بولا التزام طليطلة بطاعة المهدى بن عبد الجبار وفراره اليها بعد هزيمته من سليمان المستعين ما وجدنا فى المصادر أى اشارة لمشاركة طليطلة فى أحداث الفتنة ، فحتى حكومتها الذاتية الجماعية التى أدارت شئونها ابان الفتنة قبل أن تصير طليطلة الى ابن ذى النون لم تحظ بكبير اهتمام من المؤرخين ولم تتعد كتاباتهم عنها بضع كلمات لا يزيد عددها كثيرا على أصابع اليد الواحدة •

واذا كان لنا أن نتساءل عن أسباب هذا الموقف غير المعهود من أهل طليطلة ، فأغلب الظن أنه كان نتيجة عدة عوامل منها :

١ ــ فقدت طليطلة كثير من سكانها لكثرة ما كيل لها من ضربات عنيفة بعد كل تمرد أو ثورة من ثوراتها العديدة على حكومة قرطبة المركزية ، فقد كانت جملة ما فقدته طليطلة من أهلها من جراء تلك الثورات خلق كثير يبلغ عددهم آلاف كثيرة جدا منها على سبيل المثال خمسة آلاف وثلثمائة ونيف فى مذبحة الحفرة وحدها (١) وعدة آلاف فى ثورة هاشم الضراب (٢) وكثرة هائلة من القتلى بعد مهاجمة قلعة رباح اذ أوقع بهم ميسرة الفتى مقتلة عظيمة حتى أن ارتاع لكثرة قتلاهم وندم واغتم غما شديدا لم يلبث أن توفى بسببه (٣) • وقتل الأمير محمد ابن عبد الرحمن منهم ومن حلفائهم نحو عشرين ألفا (٤) وقتل منهم مسعود

---

(١) ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص ٦٦ وابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٦٩ • وابن الخطيب : المصدر السابق ، ص ١٥ •

(٢) ابن عذارى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٨٣ وابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ٦ ص ٤٧٦ • وابن خلدرن : المصدر السابق ، جـ ٤ ص ٢٧٩ •

(٣) ابن عذارى : المصدر لسابق ، جـ ٢ ص ٨٤ وابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ٦ ص ٤٤٤ •

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٩٥ وابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ٧ ص ٧٤ •

ابن عبد الله العريف والى طلبيرة سنة ٢٤٣ هـ خلقا عظيما أرسل الى قرطبة منهم سبعمائة رأس من رؤوس أكابرهم وحدهم (١) . وقتل منهم يوم القنطرة خلق عظيم (٢) وقتل منهم أهـل حصن سكتنان خلق كثير (٣) وقتل منهم موسى بن ذى النون الهوارى خلق كثير (٤) وقتـل منهم المنذر بن محمد سنة ٢٧٣ هـ عدة ألوف (٥) وأوقع بهم عبد الله بن محمد وحفيده عبد الرحمن الناصر . لقد كلفت هـذه الوقائع وكثير غيرهـا مدينة طليطلة الكثير جـدا من سـكانها بين قتيل ومفقود مما أوهن من عزيمتها وجعلها تركن الى الدعة والطاعة لا تقوى على انتهاز فرصة الفتنة لممارسة هوايتها السابقة فى التمرد والثورة .

٢ — وكان لاهتمـام الخـلافة القرطبية بمراقبة طليطلة من ناحية واستمالتها أهلها واسترضائهم من ناحية أخرى فضلا عن اتخاذ طليطلة قاعدة لانطلاق الجيوش الاسلامية لمجاهدة نصارى الأسبان أثر كبير فى ركون أهل طليطلة الى الطاعة . فقد راقبت الخلافة طليطلة فى يقظة تامة من خلال سلسلة الحصون التى كانت قد أنشأت فى عهد الأمير محمد ابن عبد الرحمن ، وازدادت هذه المراقبة احكاما من خلال مدينة الكتح التى شيدها الناصر فى محلة حرنكش قبالة طليطلة أثناء حصارها (٦) فضلا عن المدينة التى أوفد الحكم المستنصر لبنائها بثغر طليطلة على مقربة منها أحمد بن نصر سنة ٣٥٣ هـ / ٩٦٤ (٧) .

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٩٦ وابن الأثير ، جـ ٧ ص ٨٣ .

(٢) ابن حيان : المصدر السابق ، جـ ٥ ص ٣٠٥ وابن عـذارى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٩٦ .

(٣) ابن حيان : المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٣٢٩ .
وابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ٧ ص ٢٦٥ .

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ، جـ ٤ ص ٢٨٥ .
وابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ٧ ص ٢٧١ .

(٥) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ١١٦ .

(٦) ابن حيان : المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص‌ص ١٨٨ — ١٨٩ .
وابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٢٠٣ .

(٧) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٢٣٦ والحجى : المرجع السابق ، ص ٣٠٦ .

وبينما كانت الخلافة الأندلسية تراقب طليطلة فى يقظة تامة كانت تحرص فى نفس الوقت على استرضاء أهلها واستمالتهم فلم تسلبهم امتياز اختيار حكامهم بأنفسهم على الرغم من تقاعس أهل طليطلة عن ممارسة هذا الاختيار الا فى أقل الأوقات وكان يكفيهم فى عصر الخلافة مجرد الاحساس بوجود هذا الامتياز •

وكان لاتخاذ طليطلة فى عصر الخلافة قاعدة لانطلاق القوات الاسلامية لمجاهدة نصارى الأسبان أثره فى التزام أهل طليطلة بالطاعة ، فقد عمل أهلها حسابا لتلك القوات التى تمر بها ذهابا وجيئة ، كما أنهم انشغلوا بالمشاركة مع هذه القوات فى الجهاد عن اشعال الثورات فضلا عن قطع الصلة والتحالف بينهم وبين العدو النصرانى والذى كان سببا فى تحريضهم على الثورة أحيانا كثيرة فى عصر الامارة •

٣ — ولم تسلم طليطلة من الفتن الداخلية والمنافسات بين زعمائها على الرياسة فيها ، نعرف من تلك الفتن — على سبيل المثال — فتنة سنة ٣١٩ هـ المعروفة بملحمة العراس والتى قتل فيهـا الكثير من أهل طليطلة (١) ونعرف من المنافسات بين زعمائها ما حدث من تنافس بين مطرف بن عبـد الرحمن وطريبشـه بن مسـوونة ثم بين مطرف ولب ابن طريبشه ، هذا التنافس الذى يجعل أحد المتنافس ينهزم معرضـا أهل طليطلة للهزيمة وقتل الكثير من أهلها نكاية فى منافسة مما أودى بحياة الكثيرين من أهل طليطلة وأوقع بهم الكثير من الهزائم وأضعف من عزيمتهم وجعلهم يركنون فى النهاية الى الدعة والطاعة •

٤ — ويمكن أن تضيف عاملا آخر هو اهتمام طليطلة فى عصر الخلافة الأندلسية بالعلم أكثر من اهتمامها بالتمرد والثورة ، فلا يخلو من مغزى أن يكثر علماء طليطلة وفقهائها فى ذلك العصر أكثر من أى وقت سابق وهو الأمر الذى سنستوضح جوانبه حين دراسـتنا للحياة الفكرية فى طليطلة •

خرجت طليطلة من غيوم الفتنة بحكومة جماعية على رأسها القاضى أبى بكر يعيش الأسدى يشاركه على نحو ما أشرنا آنفا عدد من أعيان

(١) ابن الأثير : المصدر السابق •

طليطلة ، ولا يخلو من دلالة أن تصل الرياسة فى طليطلة الى قاض من الفقهاء ، فلعله يدل على افتقار طليطلة حينذاك الى ساسة أكفاء . ويبدو أن القاضى يعيش على الرغم مما اتصف به من علم وفقه وخصال حميدة لم يكن رجل الساعة فلم يستطع أن يحكم قبضته وما لبث أن أفلت منه زمام الأمور فأقصى عن الرياسة فخرج عن طليطلة الى قلعة أيوب وسكنها حتى توفى فيها سنة ٤١٨ هـ (١) .

خلف القاضى يعيش على الرياسة فى طليطلة أحد المشاركين فى الحكومة الجماعية هو عبد الرحمن بن منيوه الذى يبدو أنه تمكن من الاستبداد بالسلطة فساقها من بعده الى ولده عبد الملك بن منيوه الذى لم يحسن السياسة وأساء الى أهل طليطلة فنفروا منه ، ويذكر ابن عذارى أن أهل طليطلة خلعوا عبد الملك بن منيوه ، «وولوا على أنفسهم من ينظر فى أمورهم ثم أنهم نقموا عليه شيئا فعزلوه وولوا غيره ثم خلعوه » (٢) وعلى الرغم من أن ابن غذارى لا يذكر أسماء من تولوا طليطلة بعد عبد الملك ابن منيوه فمن الواضح أن أحوال طليطلة لم تكن وقتذاك مستقرة ولم يوجد من بين زعمائها من يمكنه أن يمسك زمام الأمور فى شدة وحزم فاتجه أهل طليطلة الى عبد الرحمن بن ذى النون صاحب شنتبرية يطلبون زعامته ورياسته لهم خلاصا مما هم فيه من اضطراب ، ويبدو أن عبد الرحمن بن ذى النون لم يكن واثقا من اخلاص أهل طليطلة ، فضلا عن ادراكه لتقلبهم فلم يغامر بترك قاعدته فى شنتبرية وانما أرسل الى طليطلة ابنه اسماعيل ليتولى حكمها .

ولعلة من غير المتوقع أن يطلب أهل طليطلة زعامة ابن ذى النون الهوارى البربرى ، فقد كانت علاقتهم بالبربر متوترة أغلب الأحيان خاصة علاقتهم بابن ذى النون صاحب شنتبرية الذى شن على طليطلة أكثر من هجوم وقتل من أهلها خلقا كثيرا ، فاذا بهم يتناسون هذا العداء ويطلبون بأنفسهم أن يتولى ابن ذى النون حكمهم . ومع أنه من الصعب فهم هذا الموقف من جانب أهل طليطلة وايجاد مبرراته فلعل أهل طليطلة قد لجأوا اليه لافتقادهم الى زعامة قوية من ناحية ومن ناحية أخرى لاتفاق

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ص ٦٨٩ .
(٢) البيان المغرب ، جـ ٣ ، ص ٢٧٦ .

موقف ابن ذى النون حينذاك من سليمان المستعين مع موقف أهل طليطلة ، فعلى الرغم من أن سليمان المستعين قد أقر له بحكم شنتبرية ومنحة رتبة الوزارة ولقبه ناصر الدولة فان ابن ذى النون — على حد قول ابن بسام • « استقل ذلك كله وآثر الفرقة واقتطع جانبه فكان أول الثوار لمفارقة الجماعة » (١) فكان خروجه على سليمان المستعين من أسباب التقارب بينه وبين أهل طليطلة •

اختلف المؤرخون فى أولية نباهة بنى ذى النون فيذهب ابن عذارى (٢) وابن الخطيب (٣) الى أنهم لم تكن لهم نباهة ولا رياسة الا فى دولة المنصور محمد بن أبى عامر ، لكن بن بسام يرجع أولية نباهتهم الى جدهم ذى النون فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وكان ذى النون يسكن حض اقليش فقام بتمريض خصى للأمير محمد بن عبد الرحمن فكافأه على ذلك بتقديمه على حض اقليش (٤) ونفهم من ابن حيان أن موسى بن ذى النون الهوارى ثار سنة ٢٥٩ هـ على الأمير محمد ابن عبد الرحمن (٥) ويبدو أنه خرج على طاعة الحكومة المركزية حتى امارة عبد الله بن محمد الذى تولى ٢٧٥ هـ ، وغزا فى أثناء ذلك أهل طليطلة وأوقع بهم بعد أن تواطأ عليهم معه أميرهم لب بن طربيشة (٦) • وقد حاول الفتح بن موسى بن ذى النون أن يعاود الخروج على طاعة الحكومة المركزية فى مستهل عهد عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله فثار فى قلعة رباح وأحوازها فأرسل اليه عبد الرحمن الثالث حملة طاردته وأخضعته (٧) • وفى عهد الحكم المستنصر بالله سجل لمطرف بن اسماعيل ابن عامر بن ذى النون على وبذة وأضيفت اليه أكثر حصون شنتبرية وقراها (٨) • أما فى أيام المنصور محمد بن أبى عامر فقد ظهر عبد الرحمن

---

(١) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، جـ ٧ ص ١٤٣ •
(٢) البيان المغرب ، جـ ٣ ، ص ٢٧٦ •
(٣) إعمال الأعلام ، ص ١٧٧ •
(٤) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، جـ ٧ ص ١٤٢ •
(٥) المقتبس ، تحقيق مكى ص ٣٢٩ •
(٦) نفس المصدر ، ص ٣٤٢ •
(٧) محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ، ص ٩٦ •
ومؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٣٦٢ •
(٨) محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ، ص ٩٦ •

ابن ذي النون وولده سماعيل . وقد لحق عبد الرحمن (١) بالثغر بعد انقراض الدولة العامرية وجمع اليه بنى عمه وحصل من سليمان المستعين على ولاية اقليش وتوسع على حساب مجاوريه من قادة الثغور فعلا شأنه فمنحه سليمان المستعين رتبة الوزارة ولقبه ناصر الدولة (٢) لكن ابن ذى النون ما لبث أن خرج على طاعة سليمان المستعين — كما أسلفنا — واستقل بناحيته واتخذ شنتبرية قاعدة له حيث جاءه طلب أهل طليطلة أن يلى حكم مدينتهم فأرسل اليهم ابنه اسماعيل ليتولى حكمها فاستولى اسماعيل بن عبد الرحمن بن ذى النون على طليطلة وأعمالها سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٦ م وساس أهلها سياسة حسنة رضوا بها واستقاموا عليها خاصة وأنه كان يستشير فى أمور الحكم شيخ طليطلة حينذاك وكبيرها والمقدم فى الرأى بين أهلها أبا بكر بن الحديدى فلم يقطع أمرا دونه أو ينفذ عملا دون مشورته (٣) . وتلقب اسماعيل بن عبد الرحمن ابن ذى النون بلقب الظافر واتسعت دولته حتى ضمت قونكة وجنجالة شرقا وورث شنتبرية وأعمالها عن أبيه فأصبحت طليطلة حاضرة واحدة من كبريات دويلات الطوائف تصل مساحة أعمالها الى نحو خمس مساحة الأندلس الاسلامى حينذاك (٤) وتشغل رقعة كبيرة فى قلب الأندلس تمتد بين أجواز بطليوس غربا الى قلعة أيوب وشنتبرية الشرق شرقا متاخمة لدولة بنى هود فى الثغر الأعلى وحاضرتها سرقسطة ، وتمتد شمالا بشرق حتى تتاخم قشتالة وجنوبا بغرب حتى حدود دولة قرطبة عند مدينتى المعدن والمدور وضمت فى أعمالها مدينة سالم ووادى الحجارة وقونكة ووبذة واقليش ومورة وطلبيرة ومجريط وترجالة وغيرها .

هكذا أصبحت دولة طليطلة فى عهد الظافر اسماعيل بن عبد الرحمن ابن ذى النون الذى كان سياسيا حصيفا فمع أنه كان يرتكن الى رأى ومشورة أبى بكر بن الحديدى الا أنه لم يبعد عنه أعيان طليطلة الآخرين مثل ابن محقور وابن لبون وابن سعيد بن الفرج ، لكن هؤلاء الأعيان كانوا يحقدون على أبى بكر بن الحديدى مكانته عند الظافر اسماعيل

---

(١) يسميه ابن بسام : المفراس (الذخيرة ، جـ ٧ ص ١٤٢) .
(٢) ابن بسام : المصدر السابق ، جـ ٧ ص‌ص ١٤٢ — ١٤٣ .
(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٢٧٦ وابن الخطيب المصدر السابق ص ١٧٧ .
(٤) مؤنس : المرجع السابق ، ص ٣٦٢ .

فنافسوه وعادوه (١) وعاجلت المنية الظافر اسماعيل دون أن يتخذ موقفا من الطرفين المتنافسين وترك لوريثه يحيى بن اسماعيل معالجة هذا التنافس الشائك .

ورث يحيى بن اسماعيل الذى تلقب بالمأمون عن أبيه الظافر اسماعيل دولة وطيدة الأركان يرضى عن سياستها أهل طليطلة فتوفر لها الاستقرار الداخلى ،. وورث عن أبيه الظافر اسماعيل أموالا وفيرة اذ كان اسماعيل مع كثرة جبايته وجمعه للأموال بخيلا مقترا فى الانفاق الى درجة لا مثيل لها فى عصره (٢) ، فهيأ ذلك المال والاستقرار للمأمون يحيى بن اسماعيل أن ينعم بالرفاهة والترف وأن يهتم بالحضارة والعمران والتزم فى سياسته الداخلية نهج أبيه اسماعيل فى استشارة أعيان طليطلة والانتهاء الى رأيهم خاصة أبى بكر بن الحديدى ، وقسم ادارة طليطلة على رجلين كانا هما المقدمين من أعيانها « فجعل تدبير الأجناد والنظر فى طبقات القواد الى سائر الشئون السلطانية والأعمال الديوانية الى ابن الفرج وبقية الاصدار والايراد والنظر لجماهير الناس وكواف البلاد والرأى والمشورة والصغيرة والكبيرة الى الفقيه أبى بكر بن الحديدى » (٣) وكان يمكن لطليطلة أن تعيش معه أحلى أيامها لولا ما انزلق اليه من خلاف وحروب مع غيره من ملوك الطوائف .

كان أول نزاع انزلق اليه المأمون بن ذى النون هو نزاعه مع سليمان ابن هود صاحب سرقسطة ، والحق يقال ان ابن هود هو الذى فجر هذا النزاع حينما طمع فى الاستيلاء على مدينة وادى الحجارة من أملاك ابن ذى النون . وكانت مدينة وادى الحجارة حينذاك تعانى انقساما داخليا بين أهليها تدخل فيه ابن هود لتوسيع شقته فانقسم أهلوها فريقين أحدهما ينحاز الى ابن هود والآخر يستمسك بالولاء لابن ذى النون فاستغل ابن هود هذا الانقسام الداخلى لتحقيق أطماعه فى الاستيلاء على المدينة فأرسل اليها جيشا بقيادة ابنه وولى عهده أحمد تمكن من دخول وادى الحجارة بمعاونة الموالين من أهلها (٤) .

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٧٦ .
(٢) ابن بسام : المصدر السابق ، ج ٧ ص ١٤٣ .
(٣) نفس المصدر : ج ٧ صص ١٥٠ — ١٥١ .
(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٧٧ .

كان من الطبيعي أن يهرع المأمون بن ذي النون غاضبا الى وادي الحجارة ليجلي عنهـا أحمد بن سليمان بن هود ، فوقعت بينهما معارك كشفت عن ضعف جيش ابن ذي النون وانتصر أحمد بن سليمان بن هود فلجأ المأمون بن ذي النون الى طلبيرة فحصره ابن هود فيها وضيق عليه الخناق لكنه ما لبث أن رفع الحصار عن ابن ذي النون وعاد بقواته الى سرقسطه بأمر من أبيه سليمان بن هود (١) .

كشفت معارك ابن ذي النون ضد ابن هود عن قصور شديد في قواته وعن تراخي أهل طليطلة وعدم تحمسـهم للقتال ، وبدلا من أن يدرك المأمون ابن ذي النون هذه الحقيقة ويحاول أن يطوي صفحة النزاع مع ابن هود في هدوء اذا به يستبد به الغضب والرغبة في الانتقام من ابن هود حتى أنه لم يتورع عن مخـالفة الشيطان لتحقيق غايته « فأداه اللجج والجنوح الى الغلبة والاباية من الاستهضام الى مظاهرة النصارى » (٢) ، فتحالف المأمون بن ذي النون مع فرناندو الأول ملك قشتاله واستعان به على الانتقـام من ابن هود (٣) مجددا بذلك أسلوبا طليطليا قديما هو الاستعانة بالنصارى الأسبان ، ولكن شتان ما بين اليوم والأمس فلم تكن استعانة ابن ذي النون بنصارى الأسبان ضد حكومة مركزية قوية يمكنها رأب الصدع وتلافي الأخطار وتخفيف الأضرار ولكن استعانته بهم كانت ضد أمير آخر من أمراء الطوائف لم تكن له ـ كسائرهم ـ قوة على التصدي لملوك قشتاله ونافار ، فعاث نصارى الأسبان في أرض الأندلس الاسلامي وأوسعوها تخريبا دون أدنى مقاومة ولم يقتصر تخريبهم على أراضي ابن هود بل سرعان ما تجرع ابن ذي النون من نفس الكأس التي أراد أن يسقيها لابن هود .

تحالف المأمون بن ذي النون مـع فرناندو الأول ملك قشـتالة أو بالأحرى استأجره ضـد ابن هود فبذل له مالا وتعهد بأداء الجزية اليه فبعث فرناندو سراياه وجنوده لتعيث في أراضي ابن هود فسادا وتمعن في تخريبها ، ولم يكن في وسـع ابن هود ـ كغـيره من أمراء الطوائف

---

(١) ابن عذاري : المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٢٧٧ .
وابن الخطيب : المصدر السابق ، ص ١٧٨ .
(٢) ابن عذاري : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٧٨ .
(٣) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٩٨ .

الضعفاء ـ أن يتصدى لقوات قشتاله فلاذ هو وولده أحمد بالحصون تاركا القشتالين يخربون احوازه دون مقاومة « فانبسطوا هنالك آمنين وجرت خيولهم كيف شاءت فى بلاد المسلمين •• وكان أوان الحصاد فنزل المشركون بساحتها نزول اقامة وحشروا لها علوجهم للحصاد والنقلان مدة شهرين كاملين حتى استوعبوا جميع ما فيها حصادا ودرسا ونقلانا الى بلادهم والمسلمون ينظرون اليهم لا يملكون دفاعا ثم انصرف العدو عنهم الى أرضه بعدما قتل وأسر ودمر فقوى طمعه وامتدت آماله الى التغلب على بلاد المسلمين » (١) •

وأراد المأمون يحيى بن ذى النون أن يحكى صولة الأسد فانتهز فرصة اعتصام ابن هود بحصونه خوفا من القشتاليين وأخذ يعيث هو الآخر فى أرض ابن هود فسادا وتخريبا (٢) •

أراد ابن هود أن ينتقم من ابن ذى النون فارتكب نفس الخطيئة وسعى بدوره الى محالفة نصارى الأسبان واستعدائهم على خصمة ابن ذى النون فبذل لفرناندو ملك قشتاله أموالا طائلة وهدايا ثمينة حتى يتحول الى جانبه ضد المأمون بن ذى النون فانتهز فرناندو الفرصة وتنكر لحليفه السابق واستجاب لدعوة ابن هود وأرسل جنده للاغارة على أراضى طليطلة فاخترقتها حتى وادى الحجارة وقلعة النهر (هنارس) وأمعنت فيها تخريبا وفسادا ولم يستطع ابن ذى النون أن يفعل شيئا لوقف هذه الاعتداءات الا السعى وراء حليف جديد يعينه على الانتقام من ابن هود ، ورأى أن يحالف ابن عباد صاحب اشبيلية واعترف بالدعى الذى ادعى أنه هشام المؤيد أملا فى أن يعينه ابن عباد ضد خصومه لكن ابن عباد لم يكن يريد من هذا التحالف مساعدة ابن ذى النون بقدر ما يريد تدعيم مركزه ونفوذه فلم يغن عن ابن ذى النون شيئا فسعى ابن ذى النون الى محالفة نصارى الأسبان مرة أخرى واتجه هذه المرة الى غرسيه ملك نافار أخى فرناندو ملك قشتاله فبذل له الأموال والهدايا حتى قبل غرسيه أن يغير على أراضى ابن هود المتاخمة له فيما بين تطيلة ووشقه وعاث فيها فسادا وتخريبا وتمكن من الاستيلاء على قلعة قلهرة سنة

---

(١) ابن عذارى : المصدر لسابق ، جـ ٣ ص ٢٧٨ •
(٢) نفس المصدر ، جـ ٣ ص ٢٧٨ •

٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م فقام فرناندو الأول ملك قشتالة بالرد على ذلك بالاغارة على أحواز طليطلة مرة أخرى (١) وهكذا تبارى الملكان النصرانيان فى تخريب أراضى المسلمين التابعة لابن هود وابن ذى النون دون أن يصطدم أى منهما بالآخر وكأنهما قد عقدا اتفاقا غير مكتوب على تخريب بلاد المسلمين وان تظاهر أحدهما بمحالفة ابن هود وتظاهر الآخر بمحالفة ابن ذى النون .

كشف الصراع بين ابن هود وابن ذى النون عن ضعف شديد فى القوى العسكرية لطليطلة وضعف عزائم أهل الأندلس عن التصدى للعدو الأسبانى الذى انفتح المجال أمامه لتخريب أراضى المسلمين دون مقاومة فقد « صب الله تعالى على أهل الثغور من الجبن عن العدو ما لا كفاء له فلا يكاد أحد منهم يلقى نصرانيا فى قرار من الأرض الا ويوليه الدبر غير مستحيى من الله سبحانه من الفرار أمامه حتى تعود أعداء الله ذلك منهم فلا يعدون حيالهم شيئا فذهبت اكثر أموال أهل طليطلة وطرافهم الى قاعدتهم » (٢) .

وسعى أهل طليطلة فى الصلح والمهادنة بين الخصمين المتحاربين فذهبوا الى ابن هود بسرقسطه ودعوه الى الصلح اصلاحا لحال المسلمين الذين نالهم الأذى من العدو النصرانى فتظاهر ابن هود بقبول ما دعوه اليه فرجعوا الى ابن ذى النون فنهوه عما يفكر فيه من الاستعانة بنصارى الأسبان فانقاد لهم . لكن ابن هود كشف عن مخادعته وجاء بحلفائه من نصارى الأسبان مغيرا على مدينة سالم التابعة لابن ذى النون فدافع اهلها عن أنفسهم لكنهم هزموا وقتل منهم الكثير ، ومال سليمان بن هود الى الحصون التى كان ابن ذى النون قد انتزعها منه فاستردها وعاث فى أحواز طليطلة فسادا وتخريبا ، يعينه على ذلك عبد الرحمن بن اسماعيل ابن ذى النون أخو يحيى المأمون المنازع له على السلطة ، فكشف عبد الرحمن لسليمان ابن هود عن نقاط ضعف أخيه (٣) .

---

(١) محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ، ص ٩٩ .
(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٧٨ .
(٣) نفس المصدر ، جـ ٣ ص ٢٨٠ .
ومحمد عبد الله عنان ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

اشتد حنق المأمون بن ذى النون لخديعة ابن هود اياه وصمم على الانتقام منه فبذل أموالا طائلة الى غرسيه ملك نافار ليغير على ابن هود فخرج غرسيه فى جنده الى الثغر الأعلى وعاثت خليه وسراياه فى أحواز سرقسطة على نحو ما فعلت جنود أخيه فرناندو فى أحواز طليطلة ، وتجنب ابن هود لقاء غرسيه على الرغم من وفرة جموعه وأعداده واقتصر على ضبط الحصون والقلاع وشحنها بالأطعمة والرجال تاركا غرسيه وجنوده يخربون ويحرقون بسائط سرقسطة (١) بينما توجه المأمون بن ذى النون الى مدينة سالم لتأمينها وضمان عدم استيلاء ابن هود عليها (٢) .

وردا على تخريب غرسيه للثغر الأعلى خرج أخوه فرناندو حليف ابن هود الى ثغر طليطلة فى جيش كبير يدله ابن عم (٣) للمأمون بن ذى النون على عورات البلاد ، وفر الناس أمامه من كل جهة الى مدينة طليطلة حتى غصت بهم واضطربت أحوال أهلها وضجوا مما نالهم من أذى على يد النصارى الأسبان فجاء المأمون فى جنده من مدينة سالم لكنه لم يتصد لفرناندو وجبن عن لقائه فزاد اضطراب أحوال الناس فى مدينة طليطلة وغلت الأسعار فيها وضاق بهم العيش (٤) .

رأى أهل طليطلة عدم قدرة أميرهم المأمون بن ذى النون على أن يدفع عنهم عدوان فرناندو فبادروا بالاتصال بفرناندو ليعقدوا معه صلحا على مدينتهم طليطلة وما حولها على مال يؤدونه اليه ويرحل عنهم لكنه اشترط عليهم شروطا فادحة لا يمكنهم قبولها وطلب منهم أموالا باهظة فأجابوه بأنهم لا يستطيعون تنفيذ هذه الشروط ولا أداء هذه الأموال التى لو كانت فى حوزتهم لأنفقوها على البربر واستدعوهم لنصرتهم وكشف هذه المحنة عنهم (٥) .

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٨٠ .
(٢) نفس المصدر ، ج ٣ ص ٢٨١ .
(٣) كان ابن عذارى قد اشار الى خروج عبد الرحمن بن اسماعيل ابن ذى النون على اخيه المامون يحيى بن اسماعيل لكنه يضيف هنا خارجا آخر لم يذكر اسمه وانما ذكر انه ابن عم المامون بن ذى النون .
(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٨١ .
(٥) نفس المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٨٢ ، ومحمد عبد الله عنان : المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

فطن فرناندو للتهديد الضمنى الذى ألمح اليه أهــل طليطلة دون تصريح لكنه لم يعبأ به ورد عليهم ردا عنيفا أبان عن شدة أطماعه فى جميع أملاكهم وهون من شأن تهديدهم الخفى بالاستعانة بالبربر لعلمه بأن أهل طليطلة لن يقدموا على ذلك لعدائهم للبربر وكشف فرناندو عن حقيقة أطماعه فى الاستيلاء على طليطلة وغيرها من أراضى المسلمين قائلا لأهل طليطلة : « ما نبالى من أتانا منكم فانما نطلب بلادنا التى علبتمونا عليها قديما فى أول أمركم فقد سكنتموها ما قضى لكم وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم فارحلوا الى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا فلا خير لكم فى سكناكم معنا بعد اليوم ولن نرجع عنكم » (١) .

لم يجد أهل طليطلة عند فرناندو قبولا للصلح الذى عرضوه عليه فعانوا من غاراته المتوالية عليهم أشد العناء وفى نفس الوقت كان أهل سرقسطة والثغر الأعلى يعانون مثل هذه المعاناه من اغارات غرسيه أخى فرناندو عليهم مما أنذر بأوخم العواقب على أهل الثغور الاســلامية فى الثغرين الأوسط والأعلى واستمرت الفتنة ما بن ابن هود وابن ذى النون من سنه خمس وثلاثين وثلثمائة الى سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة ولم تنقطع الا بوفاة سليمان بن هود (٢) .

تنفس المأمون يحيى بن ذى النون الصعداء لموت خصــمه اللدود سليمان بن هود وكان من الواجب عليه حينذاك أن يلتفت الى خطورة الأطماع النصرانية فى ثغور المسلمين فيبدأ صفحة جديدة من العلاقات الطيبة والتعاون مع جيرانه من أمراء الطوائف ، ا لاأنه فيما يبدو كان قد اعتاد على الخلاف والشقاق ، وسرعان ما دخل فى صراع آخر مع جاره ابن الأفطس صاحب بطليوس مقحما أهل طليطلة فى معاناة جديدة كانوا أحوج ما يكونون للابتعــاد عنها بعــد طول معاناتهم ابان الحرب مع ابن هــود (٣) .

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٨٢ .
(٢) ابن الخطيب : المصدر السابق ، ص ١٧٨ .
(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٨٣ وابن الخطيب : المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

وما لبث المأمون ابن ذى النون أن دخل فى صراع جديد كأنه لم يكفه ما دخل فيه من صراعات سابقه ، وكان صراعه هذه المرة مع ابن عباد صاحب اشبيلية (١) الذى كان قد عاهد المأمون بن ذى النون على أن يساعده فى الاستيلاء على قرطبة مقابل تنازل ابن ذى النون له عن قرمونه التى كانت قد آلت لابن ذى النون بتنازل العز بن اسحاق البرزالى عنها وأعطاه ابن ذى النون عوضا عنها حصن المدور ثم وافق على اعطائها لابن عباد من أجل مساعدته فى تحقيق حلمه فى الاستيلاء على قرطبة لكن ابن عباد لم يف بوعده فحنق ابن ذى النون حنقا شديدا ووجه جنده الى قرطبة للاستيلاء عليها وقاومهم أهل قرطبة مقاومة شديدة لكنهم اضطروا الى استغاثة صاحب اشبيلية الذى تمكن من أن يستولى على قرطبة لنفسه وأجهز على حكم بنى جهور لها (٢) . لكن المأمون بن ذى النون عاذما فاستولى على قرطبة عن طريق ابن عكاشه الا أنه ما لبث أن واتته المنية فيها سنة ٤٦٧ هـ فخلفه على طليطلة حفيده وسميه يحيى الذى تلقب بالقادر بالله (٣) .

كان القادر بالله يحيى بن ذى النون ضعيفا عاجزا تقصر امكانياته عن ادارة شئون الحكم فى مملكة هامة كطليطلة ولعله كان من الأجدى له أن يلتزم بالسياسة التى رسمها له جده المأمون قبل وفاته ، وكان المأمون ابن ذى النون قد « قسم الحضرة قسمين وأدار سياستها على رجلين فجعل تدبير الأجناد والنظر فى طبقات القواد الى سائر الشئون السلطاية والأعمال الديوانية الى ابن الفرج وبقية الاصدار والايراد والنظر لجماهير الناس وكوافى البلاد ولرأى والمشورة والصغيرة والكبيرة الى الفقيه أبى بكر ابن الحديدى وكان قد عهد لحفيده هذا الترشيح لأمره متى ورث سلطانه أن يشد على ابن الحديدى كلتا يديه ولا يفتات بأمن من الأمور عليه » (٤) . وفى نفس الوقت « آخذ المواثيق على ابن الحديدى ليبلغن كل مبلغ فى شد أذره وتثبيت أمره » (٥) .

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٧٨ .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٨٣ .
(٣) ابن الخطيب : المصدر السابق ، ص ١٧٨ .
(٤) ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، ج ٧ (قسم ٤/ مجلد١) ص‌ص ١٥٠ — ١٥١ .
(٥) ابن الخطيب : المصدر السابق ، ص ١٧٩ .

كان المـأمون بن ذى النون يثق فى أبى بكر بن الحديدى ثقة تامة لتصديه من قبل لجماعة من أهل طليطلة تآمروا على خلع المأمون أثناء غيابه عن طليطلة فى بلشية ، لكن أبا بكر بن الحديدى خشى على طليطلة من الفتنه وخاف على أهلها المحنة فلم يدخل معهم فى مؤامرتهم وكتب الى المأمون بأمرهم فأسرع المأمون بالعودة الى طليطلة وقبض على المتآمرين وسجنهم بمطبق وبذة ورعى المأمون لابن الحديدى صنيعه « فوضع فى حياته زمامه بيده واستحلفه بعد وفاته على بلده وولده » (١) .

لكن القادر بالله يحيى حفيد المأمون بالله يحيى بن ذى النون لم يلتزم بالسياسة التى رسمها له جده قبل وفاته ولم ينتصح بنصائحه وفضلا عن عجزه وفساد رأيه كان « مضعفا كثير الجلبة خبيث الفكرة يصاحبه مرض درن قلما ينعش به وأغرته الطائفة الغالبة على أمره بابن الحديدى فعجل على مكروهه » (٢) .

لقد اجتمعت حول القادرة بالله يحيى بن ذى النون بطانه سوء أخذت تصور له أن سلطانه لا يستقيم الا بالخلاص من ابن الحديدى وأخذت تزين له الفتك به والخلاص منه حتى انقاد لهم وقر عزمه على الفتك بأبى بكر ، وعبثا حاول الوزير أبو سعيد بن الفرج أن يثنى القادر بالله عما عزم عليه وخوفه سوء العاقبة لكن القادر بالله يحيى بن ذى النون « ركب هواه وخالف ناصـحه وعصـاه وجرد قطعة من جنده أمرها باستقبال تابوت جـده فى طريقهم من قرطبة وأنهى اليهم سرا قتـل ابن الحديد » (٣) .

ونما الخبر الى ابن الحديدى فنكب الى بعض ضياعه فى جماعة من أتباعه وأنصاره وفشلت مؤامرة القادر بالله التى دبرها لقتله (٤) وأخذ بعض أتباع أبى بكر بن الحديدى يحرضونه على الانتقام من القادر بالله والقضاء عليه ، ويرى ابن بسام أن ذلك كان فى امكانه وأنه « لو أمضاها ما اختلف بها اثنان ولا انتطح فيها غزان » (٥) . لكن أبا بكر بن الحديدى

---

(١) ابن بسام : المصدر السابق ، جـ ٧ ص ١٥١ .
(٢) ابن الخطيب : المصدر السابق ، ص ١٧٩ .
(٣) ابن بسام : الذخيرة ، جـ ٧ ص ١٥١ .
(٤) نفس المصدر ، نفس الصفحة .
(٥) الذخيرة ، جـ ٧ ص ١٥٣ .

آثر الوفاء بوعده للمأمون جد القادر بالله فلم يستجب لمحرضيه بينما تمادى القادر بالله فى غيه وظلت بطانة السوء تحرضه على الاستمرار فى معاداة أبى بكر بن الحديدى ومعاودة المحاولة للخلاص منه •

تفتق ذهن القادر بالله بن ذى النون عن خطة خبيثة للنيل من ابن الحديدى فأخرج من السجن أعداء ابى بكر القدامى الذين كان المأمون ابن ذى النون قد سجنهم بوشاية منه فى مطبق وبذة ، وأدخلهم القادر بالله سرا الى قصره بطليطلة متخفين فى هيئة بعض حرمه • وكان الجزء الآخر من الخطة استدراج أبى بكر بن الحديدى الى قصر ابن ذى النون وقد تواطأ القادر بالله على ذلك مع الفقيه ابن المشاط الذى كان صديقا قديما لأبى بكر بن الحديدى يألفه ويسكن اليه لكنه مالأ ابن ذى النون على استدراج ابن الحديدى الى القصر ونجح ابن المشاط فى مهمته اذ لم يشك أبو بكر فى نوايا صديقه القديم حتى اذا دخل الى مجلس القادر بالله ابن ذى النـون انقض عليه أعـداؤه وقتلوه • وهاجت العـامة لمقتل ابن الحديدى لكن قاتليه تصدوا لهم فأخافوهم من ناحية وشغلوهم من ناحية أخرى بنهب دور ابن الحديدى واطلاق أيديهم على ماله (١) •

لم ينعم القـادر بالله بالخـلاص من أبى بكر بن الحديدى فسرعان ما انقلب عليه قتلة أبى بكر يريدون أخذ القادر بالله بجرائر جده المأمون واستغل ابن عبد العزيز اضطراب الأحوال فى طليطلة وهوان القادر بالله وعجزه فاستقل ببلنسية ، وانتهز الأدفونش (ألفونسو السادس) الفرصة ففغر فاه وأخذ يلتهم ثغور طليطلة ويستولى على أملاك ابن ذى النون ولم يجد القادر بالله يحيى سبيلا للنجاة من قتلة ابن الحديدى الذين انقلبوا عليه وثاروا ضده وسعوا فى هلاكه الا التسلل من بعض أبواب القصر السرية فلرا بنفسه لا يلوى على شىء حتى لحق بحصن وبذة (٢) •

أصبحت طليطلة بلا حاكم يتولى أمورها بعد فرار القادر بالله يحيى عنها فاضطربت أحوالها وأقام أهلها أياما « كالسائمة المهملة ليس عليهم

---

(١) ابن بسام : المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ص ١٥٣ — ١٥٥ •
(٢) ابن الخطيب : المصدر السابق ص ١٧٩ وابن بسام : المصدر السابق ، جـ ٧ ص ١٥٦ وليفى بروفنسال : دائرة المعارف الاسلامية ، مادة طليطلة •

أمير ولا منهم بالصواب مشير الى أن جنحوا الى المظفر بن الأفطس من ملوك الطوائف على بعد داره وانتزاح أقطاره فجاءهم متثاقلا فدخل طليطلة سنة ٤٧٢ هـ » (١) .

أقام المظفر بن الأفطس فى طليطلة أياما يدبر أمورها أسوأ تدبير لا يعنيه من أمرها الا نهب اموالها وأموال ابن ذى النون وذخائره ثم عاد بها الى بلده بطليوس (٢) تاركا طليطلة فى حال أسوأ من التى كانت عليها قبل قدومه ، دون أن تجد من رجالها من يقدر على أن يقيلها من عثرتها ويدبر أمورها للخروج بها من هذه الأزمة السيئة التى ألمت بها ، ولا يملك المرء الا الأسى على هذه المدينة التى طالما شقت عصا الطاعة للحكومة المركزية ورأت فى نفسها ندا لها لكنها اليوم لا تجد من أهلها من يقدر على التصدى لقيادها والخروج بها من أزمتها .

وبينما كانت طليطلة تعاني من اضطراب أحوالها وفراغ ساحتها من قيادة قادره على الامساك بزمام الأمور فيها ، كان القادر بالله ابن ذى النون الهارب الى وبذه يستجدى ألفونسو السادس ملك قشتاله ليعينه على استعادة سلطانه ، واهتبل ملك قشتالة هذه الفرصة المواتية لتحقيق حلمه وحلم أسلافه فى الاستيلاء على طليطلة فاشترط على القادر بالله أن يتنازل له عن طليطلة مقابل أن يعينه فى الاستيلاء على بلنسية عوضا عنها ولم يكن فى استطاعة القادر بالله ابن ذى النون رفض ما يمليه ملك قشتاله عليه من شروط فقبل ذلك سرا فتقدم ملك قشتاله مع ابن ذى النون الى طليطلة وحاصرها حصارا شديدا ساءت بسببه أحوال أهلها وبلغ منهم الجهد والجوع مبلغا عظيما ، وتمكن ألفونسو السادس من دخول طليطلة باسم حليفه ابن ذي النون فى السابع والعشرين من المحرم سنة ٤٧٨ هـ / ٢٥ مايو ١٠٨٥ م ، وسرعان ما كشف ألفونسو عن حقيقة أطماعه وألزم

---

(١) ابن الخطيب : المصدر السابق ، ص ١٨٠ .
(٢) نفس المصدر ، نفس الصفحة ، وبروفنسال : المرجع السابق ، مادة طليطلة .

القادر بالله ابن ذى النون تنفيذ ما اشترطه عليه فخرج له عن طليطلة وتوجه الى بلنسية فتمكن منها بمساعدة جند ملك قشتالة (١) وهكذا سقطت طليطلة فى يد ألفونسو السادس ملك قشتاله وكان لسقوطها آثار ونتائج خطيرة سياسية واجتماعية ومعنوية على المسلمين والنصارى فى الأندلس وكانت نذيرا مدويا بالنهاية المحتملة للوجود الاسلامى فى الأندلس •

---

(١) ليفى بروفنسال : المرجع السابق ، مادة طليطلة .

حضارة طليطلة فى عصرها الاسلامى

مدينــة طليطلة

موقعها وحصانتها :

كانت مدينة طليطلة حين الفتح الاسلامى للاندلس تحتل أكثر المواقع أهمية فى شبه الجزيرة الأيبيرية قاطبة (١) اذ كانت أكثر المدن القائمة حينذاك توسطا لشبه الجزيرة تكاد المسافات بينها وبين غيرها من المدن الاندلسية أن تتساوى أو تتقارب على أقل تقدير مما جعلها موسطة الاندلس وقاعدته (٢) ومركز لجميع بلدانه وقاعدة نموذجية للحكم فى أيبيريا (٣) يقول عنها القاضى صاعد الطليطلى « ووسط الاندلس مدينة

---

(١) عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، ص ١٦ .

(٢) أبو الفدا : تقويم البلدان ، ص ١٧٧ .

(٣) يذكر ابن حيان (المقتبس ، ج ٥ ص ١٨٥) أن « بينها وبين البحر الجنوبى الجارى الى الشام عشرة مراحل وبينها وبين البحر الشمالى افيانس الذى من ساحله مدينة اشبونة وشنترة ثلاث عشرة مرحلة وبينها وبين البحر الشرقى الشامى الذى من ساحله مدينة طرطوشة قاصية الاندلس وما والاها من ساحل الارض ثلاث عشرة مرحلة أيضا » .

ويذكر ابن سعيد الأندلسى (المغرب فى حلى المغرب ، ج ٢ ص ٨) أنها : « موسطة الأندلس منها الى الحاجز الذى هو درب الأندلس نحو نصف شهر وكذلك الى البحر المحيط بجهة شلب ..... ومنها الى قرطبة والى غرناطة والى مرسية والى بلشية نحو سبعة أيام » .

وبينما يذكر الادريسى فى نزهة المشتاق (المغرب وارض السودان ومصر والأندلس ، ص ١٣٧) أنها « مركز لجميع الأندلس وذلك أن منها الى مدينة قرطبة بين غرب وجنوب تسع مراحل ومنها الى مدينة اشبونة غربا تسع مراحل ومنها الى جاقة شرقا تسع مراحل ومنها الى مدينة بلنسية من شرق وجنوب تسع مراحل ومنها الى مدينة المرية على البحر الشامى تسع مراحل » فانه نفسه — الادريسى — يذكر فى كتابه انس المهج وروض الفرج (ص ١٤٧ تقديرا آخر للمسافات بين طليطلة ومدن الأندلس فيقول : « منها الى قرطبة سبعة أيام ومن طليطلة الى مرسية سبعة أيام ومن طليطلة الى سرقسطة سبعة أيام ومن طليطلة الى بلنسية سبعة أيام ومن طليطلة الى اشبونه عشرة مراحل » .

ويذكر ابن فضل الله العمرى (مسالك الأبصار ، السفر الثانى ، ص ١٩) أن « مدينة طليطلة هى مركز جميع الأندلس منها الى كل قطر من

طليطلة العتيقة التى كانت قاعدة القوط وعرضـها تسع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة وطولها ثمان وعشرون درجة بالتقريب » (١) .

وتوفرت لطليطلة منعة طبيعية قلما وجد مثيل لها ، فقد وقعت طليطلة على تل جرانيتى عال وعر يزيد ارتفاعة على ألفى قدم فوق سطح البحر فى ثنية من ثنايا نهر التاجة حيث يشق النهر مجراه فى قاع لصـدع عميق من الارض فيبدو بنيان المدينة وكأنه شبه جزيرة (٢) تحيط المياه بسبعة أثمانها (٣) من جهات الشرق والغرب والجنوب (٤) ولا تتصـل باليابسة الا من الجهة الشمالية بما لا يزيد اتساعه على ثمن محيط المدينة أو مقدار شأو فرس على حد تعبير ابن عثمان المكناسى (٥) .

ويبدو وادى التاجة فى احاطته بمدينة طليطلة كسور طبيعى لها (٦) أحاط بها « احاطة الصفيحة بالحافر » أو يستدير عليها « اسـتدارة كوكبية كاسـتدارة الحلزونة البحرية » على حـد تعبير ابن فضل الله العمـرى (٧) .

جعلت تلك المنعة الطبيعية من مدينة طليطلة مدينة منيعة يعز مرامها ويصعب على الغزاة اقتحامها لاسيما وأن هذه المنعة الطبيعية قد تدعمت بحصانة صناعية تمثلت فى سور صلد منيع أحاط بالمدينة احاطة السوار

=

اقطار الجزيرة تسعة ايام » بينما يذكر أبو الفدا (تقويم البلدان ، ص ١٧٧) أن بينها وبين نهاية الأندلس عند الحاجز نحو نصف شهر وكذلك الى البحر المحيط بجهة شلب » .

(١) طبقات الأمم ، ص ١٥٧ .

— ولا يجعلها صاعد فى وسط الأندلس فقط بل يجعلها « فى قريب وسط الأقليم الخامس » .

(٢) Marquez, R.C.; Descripcion de Al-Andalus, Al-Andalus, XXXIV (1969) PP. 83-103.

وحسين مؤنس : رحلة الأندلس ، ص ٣٢٣ .

(٣) ابن المهدى الغزال : نتيجة الاجتهاد فى المهادنة والجهاد ، ص ١٣٦ .

(٤) ليفى بروفنسال : المرجع السابق ، مادة طليطلة .

ومحمد عبد الله عنان : الآثار الأندلسية الباقية ، ص ٨٠ .

(٥) الاكسير فى افتكاك الأسير ، ص ١٤٥ .

(٦) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٧) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، السفر الثانى ، ص ٢٨ .

بالمعصم وكانت منعة وحصانة بنيانه مثار اعجاب جغرافى المسلمين ومؤرخيهم (١) وقد زاد فى حصانته أن شكل الوادى من حوله خندق عميق عريض (٢) لا سبيل الى عبوره الا فوق قنطرة وحيدة كانت تعلو وادى التاجة مؤدية الى الباب الرئيسى ، وكان بنيان تلك القنطرة متميزا ومحكما « على قوس واحد والماء يدخل تحته بعنف وشدة جرى » (٣) وقد زاد من اتساع صفحة النهر وارتفاع منسوب الماء فيه وشده جريانه عند طليطلة وتحت قنطرتها اجتماع رافدين من روافد نهر التاجة بالمجرى الرئيسى للنهر فى موقع قريب من وصول النهر الى المدينة بمسافة قصيرة (٤) مما جعل خوض النهر الى طليطلة أمرا عسيرا فلا يمكن الجواز اليها الا على قنطرتها الفريدة الغريبة (٥) .

وهكذا توفر لمدينة طليطلة منعة طبيعية وحصانة صناعية جعلتها أكثر

---

(١) منهم على سبيل المثال : ابن حوقل : صورة الأرض ص ١١١ والحميرى ، الروض المعطار ، مادة طليطلة والقزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ، مادة طليطلة .

(٢) يذكر ابن حيان (المقتبس ، ج ٥ ص ١٨٦) أن نهر طليطلة أكبر انهار الأندلس عرضا ، ويرى ابن فضل الله العمرى (مسالك الأبصار ، السفر الثانى ص ٢٨) أن عرضه مثل عرض النيل أما ابن حوقل (صورة الأرض ص ١١١) فيجعل طول القنطرة المشار اليها خمسون ذراعا .

(٣) المقرى : المصدر السابق ج ٤ ص ٣٣٥ والحميرى : المصدر السابق ، مادة طليطلة وابن فضل الله العمرى : المصدر السابق ، السفر الثانى ص ٢٧ .

(٤) ابن عثمان المكناسى : المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

(٥) الادريسى : المصدر السابق ص ١٨٧ والحميرى : المصدر السابق ، مادة طليطلة ، وابن فضل الله العمرى ، المصدر السابق ص ٢٨ وياقوت معجم البدان ، مادة طليطة .

— لا يعرف على وجه التحقيق تاريخ أول بناء لهذه القنطرة وهناك من يظن أن أول بناء لها يرجع الى ما قبل الفتح الاسلامى ، لكنها بنيت أكثر من مرة فى العصر الاسلامى نعرف منها أنها بنيت فى سنه ٢٤٠ هـ على يد محمد بن سويد المجاشعى (ارسلان ، الحلل السندسيه ج ١) ص‌ص ٤٢١ — ٤٢٣) وما لبثت أن تهدمت بعد سنوات قليلة ابان ثورة طليطلة على الأمير محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٤٤ هـ وأعيد بناؤها ثم قام خلف بن محمد العامرى عامل طليطلة من قبل المنصور بن أبى عامر بترميم تلك القنطرة (مورينو : الفن الاسلامى فى اسبانيا ، ص ٢٣٥) .

مدن شبه الجزيرة الايبيرية منعة وحصانة أو على حـد قول اليعقوبى « ليس فى الجزيرة مدينة أمنع فيها » (١) .

تخطيطهـا :

طليطلة مدينة أيبيرية أولية البناء أو عتيقة ــ على حد تعبير القاضى صاعد الطليطلى ــ وجدت قبل الغزو الرومانى لأيبيريا ــ كما سبق أن أشرنا ــ ومن ثم لم تكن مدينة رومانية ولم يكن تخطيطها رومانيا وأيضا لم يكن تخطيط مدينة طليطلة تخطيطا اسلاميا ، ولم يكن اطارها العام اسلامى الطراز (٢) الا أن المؤثرات الاســلامية أخذت تظهر بعد الفتح الاسلامى فى داخل المدينة وتصطبغ شوارعها ومبانيها بصبغة اسلامية واضحة جلية وصعب على ملوك الأسبان بعد استيلائهم على طليطلة أن يطمسوا كل آثارهـا أو يزيلوا كافة معالمها ، فتبقى منها ــ على الرغم منهم ــ ما يكفى للدلالة على روعة ما أنشأه المسلمون فى طليطلة من عمائر وأبنية من ناحية وما يكشف عن قسوة ما أصاب المعالم الاسلامية فى طليطلة من طمس وتشويه على أيدى الأسبان من ناحية أخرى .

وأغلب الظن أن الاطار العام لمدينة طليطلة لم يكن اختياريا وانما كان الزاميا محكوما بشكل البقعة التى نشأت عليها المدينة . فقد نشأت مدينة طليطلة ــ كما أسلفنا ــ فى أحضان ثنية شــديدة الانحناء من ثنايا نهر التاجه ، وكان شكل هذه الثنية هو العامل الحاسم فى رسم الاطار الخارجى للمدينة فجاء هذا الاطار العام فى تقدير البعض مستديرا (٣) وفى تقدير البعض الآخر « قريب من الاستدارة شبيه بثريا » (٤) ، أو كاستدارة الحلزونة البحرية على حد تعبير ابن فضل الله العمرى (٥) . ولم يصــل الينا ما يشير الى أن المسلمين بعد فتحهم لمدينة طليطلة قد غيروا فى شكلها العـام تغييرا جوهريا اذ كان الاطار العام شــبه المستدير لمدينة طليطلة

---

(١) كتاب البلدان ، ص ٣٥٥ .

(٢) يرى الزهرى (الجغرافية ص ٨٣) أنها من بناء الخزر وعنده أنهم معاصرين لابراهيم عليه السلام .

(٣) ابن المهدى الغزال : المصدر السابق ، ص ١٦٣ .

(٤) ابن حيان : المقتبس ، جـ ٥ ص ١٨٦ .

(٥) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار السفر الثانى ص ٢٨ .

محكوما بعاملين حاسمين هما ثنية النهر من ناحية والمرتفعات التى اعتلتها أبنية المدينة من ناحية أخرى . الا أن المدينة — فيما يبدو — قد أضيف اليها بعد الفتح الاسلامى ربض يشار اليه فى بعض ما وصل الينا من تراجم أهل طليطلة (١) .

واذا لم يكن بالامكان أن نجزم بحدوث تعديلات جوهرية فى الاطار العام لمدينة طليطلة بعد الفتح الاسلامى لها ، فان البصمات الاسلامية مطبوعة بوضوح على التخطيط الداخلى للمدينة ، وكما أشرنا سابقا ، لم يستطع نصارى الأسبان أن يمحوها تماما على الرغم من الجهد الكبير الذى بذلوه لطمس معالم المدينة الاسلامية .

وعلى الرغم من افتقارنا الى وصف مسهب لما كان عليه تخطيط المدينة وبنيانها ومعالمها ابان عصرها الاسلامى ، فقد أمدنا بوصف لها قريب الى ما كانت عليه فى عصرها الاسلامى بعض السفراء المغاربة الذين زاروا مدينة طليطلة خلال سفارات دبلوماسية ذهبوا فيها الى أسبانيا بعد خروج المسلمين نهائيا من الأندلس ، وكان من هؤلاء السفراء المغاربة محمد بن عثمان المكناسى الذى دخل أسبانيا فى اكثر من سفارة وسجل وصفا لاحداثها — لعلها سفارة سنة ١٦٩١ م — فى كتاب أسماه « الاكسير فى افتكاك الأسير » (٢) . وأحمد بن المهدى الغزال الذى ذهب الى أسبانيا فى سفارة سنة ١٧٦٥ م وصفها فى كتابه « نتيجة الاجتهاد فى المهادنة والجهاد » (٣) . وعلى الرغم من أن وصف هذين السفيرين المغربيين لمدينة طليطلة يعد وصفا متأخرا نسبيا لمدينة سقطت مبكرا فى أيدى نصارى الأسبان الذين اشتغلوا وقتا طويلا فى طمس معالمها الاسلامية ، فان المدينة ابان سفارتيهما كانت لا تزال تحتفظ ببعض طابعها الاسلامى ويعطى وصفهما صورة قريبة نسبيا لبعض ملامح طليطلة الاسلامية .

لما كانت مدينة طليطلة قد شيدت على تل جرانيتى فقد كان لذلك تأثيره على بنيان المدينة ظهر ذلك جليا فى سور المدينة كما كان عليه فى

---

(١) دفن ابن ميمون صاحب أبى اسحاق بن شنظير بحومة باب شاقرة بربض طليطلة (ابن بشكوال ، الصلة . ج ١) .
(٢) نشر هذا الكتاب بتحقيق محمد الفاسى ، الرباط / ١٩٦٥ .
(٣) نشر هذا الكتاب بتحقيق اسماعيل العربى بيروت / ١٩٨٠ .

عصرها الاسلامى والذى لم يحدث الأسبان فيه تغيير حتى رآه ابن المهدى الغزال فوصفه بقوله « وسور المدينة لم يغير منه القوم — يقصد الأسبان — شيئا ، يصعد بصعود الربوة وينحدر بانحدارها » (١) ويظهر أثر قيام المدينة فوق تل متصاعد على شوارعها ودورها اذ ظهرت الشوارع متصاعدة أو منحدرة حتى أن ابن عثمان المكناسى يصف دخوله مدينة طليطلة بأنه صعود اذ يقول « وصعدنا الى المدينة فى طريق محدثة أصعب ما يكون من الحجر الصلد وكلها مرصفة بالحجارة وكذا جميع المدينة » (٢) وأغلب الظن أن رصف شوارع طليطلة بالحجارة يرجع الى عصرها الاسلامى (٣) اذ يستوجب انحدار الشوارع على نحو ما هى عليه شوارع طليطلة أن ترصف مثل هذا الرصف بالحجارة ليسهل السير عليها صعودا وهبوطا دون انزلاق خاصة فى الأيام المطيرة .

ولم تكن شوارع المدينة فى عصرها الاسلامى واسعة وانما كانت ضيقة لكنها رغم ضيقها كانت نظيفة فقد كانت النظافة سلوكا اسلاميا خاصة فى الأندلس وتتفرع عن الشوارع الرئيسية أزقة ضيقة جدا ، ولم تكن دور المدينة على مستوى واحد وانما بنيت على ثلاث مستويات أو طبقات تعلو فوق بعضها البعض نظرا لتصاعد التل الذى عليه المدينة . وكانت الدور مبنية على الطراز الاسلامى حتى أن ابن المهدى الغزال الفاسى رآها أشبه ما تكون بفاس اذ يقول « المدينة فى نفسها غير بعيدة من فاس تشاكلها فى البيوت والغرف واستدارة الطبقات العليا بالدرابيز من الخشب » (٤) وقد أطل ابن عثمان المكناسى على طليطلة من منار جامعها العالى « فاذا هى مدينة كبيرة متصلة العمارة وجميع سقف دورها بالقرمود الأبيض كسائر مدن أسبانيا وأزقتها ضيقة لازالت على عهدها وحالها من حيث كان المسلمون رحمهم الله بها وكلها مرصفة بالحجارة » (٥) .

---

(١) نتيجة الاجتهاد ، ص ١٦٣ .
(٢) الاكبر فى افتكاك الأسير ، ص ١٤٥ .
(٣) حسين مؤنس ، رحلة الأندلس ، ص ٣٢٣ .
وعيسى الناعورى : فى ربوع الأندلس ، ص ٧٦ .
(٤) نتيجة الاجتهاد فى المهادنة والجهاد ، ص ١٦٣ .
(٥) الاكسير فى افتكاك الأسير ، ص ١٤٥ .

يذهب بعض الدارسين الى أن العرب سكنوا خارج مدينة طليطلة (١) لكنهم سكنوا — على الأرجح — خارجها وداخلها معا كما يفهم من تراجم بعض الطليطليين الذين ينحدرون عن أصول عربية (٢) • وكان للفاتحين المسلمين فى طليطلة أخائذ أضفوا عليها الطابع الاسلامى سواء فيما أضافوه الى طليطلة من أبنية كالمساجد والقصور والدور أو فيما جددوه من أبنيتها القائمة عند فتحها مثل سور طليطلة الذى جدد المسلمون بناءه عـدة مرات (٣) وقنطرتها التى أعيد بناؤها مرة بعد تقويضها ابان غزو الأمير محمد بن عبد الرحمن لطليطلة سنة ٢٤٤ هـ (٤) وأخرى بعد اخضـاع الخليفة عبد الرحمن الناصر طليطلة لسلطانه سنة ٣٢٠ هـ (٥) •

وظهر الطابع الاسـلامى أوضح ما يكون فى طليطلة فى مسـجدها الجامع ، فالجامع فى المدينة الاسلامية بمثابة القلب من الجسـد ، وهو واسطة العقد فى عمارتها يكون موقعه عادة فى وسط المدينة ومركز ثقلها ومحور تخطيطها وتنظيمها ومن ثم فقد عين طارق بن زياد بعد فتحه مدينة طليطلة موضع مسجدها الجامع فى وسط المدينة ومع أن مؤنس — فى رحلة الأندلس — يستبعد أن يكون جامع طليطلة قد شيد فى موضع مطرانيتها القديمة (٦) فانه نفسه — فى فجر الأندلس — يذكر أن مسجد طليطلة الجامع قد اتخذ مكان كنيسة القديسة مريم Santa Maria التى كانت مقرا للمطرانية الطليطلية قبل الفتح الاسلامى (٧) أى أنه يقول بالرأى ونقيضه ومن ثم يصعب ترجيح أحدهما على الآخر ، لكنه اذا صح أن المسلمين بنوا جامع

---

(١) عباده كحيلة ، المعاهدون فى الأندلس ، ص ٤٨ •

(٢) من ذلك على سبيل المثال ان أبا أحمد جعفر بن عبد الله التحيبى الذى سكن طليطلة واستوطنها قتل فى داره بطليطلة ليلة الأضحى سـنة ٤٧٥ هـ (ابن بشكوال ، الصلة ٢٩٥/١) وأبا محمد عبد الرحمن بن جوشن الانصارى من أهل طليطلة كان صاحب الصلاة والخطبة بمسجدها الجامع ولا يعقل أن ينتظم فى أداء ذلك وهو ساكن خارج طليطلة (الصلة ٧٠٤/٢) وغير ذلك من الأمثلة كثير •

(٣) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق محمود مكى ، ص ٣٥ •

(٤) ابن حيان : المقتبس ، نشر شالميتا ، ج ٥ ص ٢١٥ •
وابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ص ٢٠٦ •

(٥) رحلة الأندلس ، ص ٣٢٣ •

(٦) فجر الأندلس ، ص ٧٠٧ و Simonet, op. cit., p. 166.
ومحمد عبد الله عنان : المرجع السابق ، ص ٨٢ •

طليطلة فى مكان الكنيسة الطليطلية الكبرى القديمة فشتان ما بين استيلاء المسلمين على تلك الكنيسة عند فتحهم لطليطلة واستيلاء نصارى الأسبان على جامع طليطلة بعد استيلائهم على المدينة ، فالمسلمون قد وضعوا أيديهم على كنيسة فرعنها مطرانها وتركها غنيمة للمسلمين الذين لم ينكثوا بعهد قطعوه على أنفسهم لنصارى طليطلة وأغلب الظن أن المسلمين لم يستولوا على الكنيسة كلها حين الفتح وانما استولوا على جزء منها فقط فقد روى ابن حيان أن أهل طليطلة سألوا الأمير محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٥٧ هـ أن يبيحهم ضم الكنيسة الملاصقة للمسجد (١) ويبدو أن الأمير محمد لم يضم هذا الجزء المتبقى غصبا وانما عوض النصارى عنه تعويضا مناسبا قبلوه عن رضى خاصة بعد أن قلت قيمة هذا الجزء وخمل ذكره بانتقال مقر المطرانية الى كنيسة أخرى هى كنيسة ماريادى الفينين التى أبقى عليها المسلمون وعلى غيرها من الكنائس والأديرة دون أن يستولوا عليها عصبا أو قهرا من نصارى طليطلة . أما نصارى الأسبان فقد نكثوا بعد استيلائهم على طليطلة بكل العهود والوعود التى قطعوها على أنفسهم لمسلمى طليطلة واستولوا قهرا وغصبا على مسجد طليطلة الجامع وغيره من المساجد ، وقد صور ابن بسام كيف أحاط نصارى الأسبان بالشيخ الاستاذ المغامى آخر من بقى فى المسجد حتى لم يجد بدا عن الخروج من المسجد ليستولى عليه نصارى الأسبان (٢) .

ظل مسجد طليطلة الجامع رغم استيلاء نصارى الأسبان عليه شامخا لم يستطع نصارى الأسبان لوقت طويل أن يطمسوا جميع معالمه أو يمحوا تماما هويته حتى أن السفيرين المغربيين الذين زارا أسبانيا فى القرن الثامن عشر الميلادى تحدثا عن الكنيسة التى حلت محله على أنها مسجد (٣) .

---

(١) المقتبس ، نشر مكى ، ص ٣٢٧ .

(٢) الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة ، ج ٧ ص ١٦٨ .

(٣) يذكر مؤنس (رحلة الاندلس ص ٣٣٠) أن المكناسى زار طليطلة قبل الغزال الفاسى وهذا امر يتنافى مع تاريخ رحلة كل منهما الذى حملته الطبعات المنشورة للرحلتين وقد اثبتناهما وهما يوضحان أن زيارة الغزال اسبق .

فابن المهدى الغزال الفاسى الذي زار طليطلة سنة ١١٨٠ هـ / ١٧٦٧ م يصف جامع طليطلة بأنه « من أعظم المساجد اجتمع فيه ما افترق فى غيره فهو أعلى من مسجد قرطبة وقريب منه فى طوله وعرضه اذا أضيف اليه البيوت والمقاعد والمخازن المتصلة به من نواحيه الأربعة وسواريه ليست كغيرها من السوارى التى بالمساجد ، كل سارية محيطة بها ثمان سواري متصلة بها متقدم عليها أقواس فى غاية العلو وبناء الجامع وسواريه من الرخام وبوسط المسجد قبه طولها ٧٢ قدما والعرض مثله .. أبواب الجامع أحدى عشر منها ثمانية من الجهات الثلاث والجهة الرابعة استقلت بثلاث أبواب متصلة بعضها ببعض وبازاء أحد الأبواب الثلاثة منار المسجد وهو غاية فى العلو مدارجه ٣٥٩ درجة » (١) .

أما ابن عثمان المكناسي الذي زار طليطلة فى رحلته سنة ١١٩٣هـ / ١٧٧٩ م فقد وصف جامع طليطلة بأنه « ليس فى الوجود مثله فى الغرابة واللطافة وعلو السمك وضخامة سواريه مع غرابة شكلها وكله مبنى بالحجارة التى تشبه الرخام وسقفه منها بالقبو ليس فيه خشب وأرضه مفروشه بالرخام الأبيض والأسود .. وطول هذا المسجد أعاده الله للاسلام قدم وأربعمائة قدم وعرضه ثلاثون قدما ومائتان ، وعلو سمكه خمسة عشر ومائة قدم وله من الأبواب والله أعلم خمسه (٢) .. ومن بديع هذا المسجد العظيم المنارة اليتيمة التى لا تشبهها منارة حسبنا وبهاء مبنية بالحجارة من جنس الحجارة التى بنى بها المسجد ويصعد اليها بمائتى درجة الى موضع الأذان ومن موضع الأذان الى انتهاء علوها نحو المائة درجة ، قيل علو هذا المنار مثل علو منار اشبيلية يزيد علو منار اشبيلية على هذا المنار بنحو القدم والنصف وعرض كل ربع أحد وخمسون قدما » (٣) .

---

(١) نتيجة الاجتهاد فى المهادنة والجهاد ، ص ١٦٣ .

(٢) من مقارنة اعداد الأبواب التى ذكرها الغزال واعدادها التى ذكرها المكناسى يتضح ان الأسبان كانوا قد سدوا نحو ستة ابواب او ادمجوا بعضها فى بعض كما يتضح ذلك من نص المكناسى عن رؤيته لهم يحدثون بناء فى أحد الأبواب .

(٣) الاكسير فى أفتكاك الأسير ، ص ص ١٤٧ — ١٤٨ .

ولم يكن جامع طليطلة هو مسجدها الأوحد بل كانت توجد فيها عدة مساجد أخرى فى الأحياء منها — على سبيل المثال — مسجد الجبل البارد Chebellbard ومسجد الدباغين Dabaguin اللذان بناهما أبو نصر فتح بن ابراهيم الأموى المعروف بابن القشارى الذى بنى أيضا حصن وقش ومكاده فى زمن المنصور محمد بن أبى عامر وكان رجلا صالحا يلزم جامع طليطلة ، توفى سنة ٤٠٣ هـ (١) .

وتوجد حتى اليوم بقايا قليلة من بعض مساجد طليطلة مثل مسجد الباب المردوم الذى ينسب حاليا الى أحد أبواب مدينة طليطلة يقع على مقربة منه وعلى الرغم من عدم معرفة الاسم العربى لهذا المسجد الذى تحول على يـد النصـارى الأسبان الى كنيسـة كريستودى لالوث El-Cristo de la luz (٢) فانه ينسب الى مؤسسه أحمد بن حديدى اذ يوجد على واجهة المسجد — رغم تحوله الى كنيسة — نقش كتابى بارز نصه « بسم الله الرحمن الرحيم ، أقام هذا المسجد أحمد بن حديدى من ماله ابتغاء ثواب الله فتم بعون الله على يد موسى بن على البناء وسعاده فتم فى المحرم سنه تسعين وثلاثمائة » (٣) .

ومسجد ابن حديدى (٤) المنسوب الى باب المردوم مربع الشـكل طول ضلعه ثمانية امتار تقوم كل واجهة من واجهاته على ثلاث عقود

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ص ٤٦٠ .
ومورينو : المرجع السابق ، ص ٢٢٣ .
(٢) مورينو : المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .
(٣) عنان : المرجع السابق ص ٨٩ والسيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٤٠٣ .
(٤) يترجم الدكتور السيد عبد العزيز سالم (المرجع السـابق ص ٤٠٣) لابن حديدى المشار اليه على أنه ابن الحـديدى الـذى قتله القادر بالله يحى بن ذى النون سنة ٤٦٨ هـ مادا فى عمره الى أجل طويل جدا اذ يكون قد عاش بعد تمام بناء مسجده ٧٨ عاما اذا أضيف اليهـا ماعاشه قبل ذلك فيستجاوز عمره المائة عام وهو أمر لافت للانتباه يستحق الاشارة ولم يشر ابن بشكوال فى ترجمته لأبى بكر بن الحديدى المقتول على يد القادر بالله بن ذى النون الى شىء من ذلك (الصلة ، جـ ٢ ص ٦٦٩) فضلا عن أن ابن حديدى المسجل فى النقش اسمه أحمد بينما ابن حديدى الذى يشير اليه الدكتور سالم اسمه يحى . هذا ولدى ابن بشـكوال (الصلة جـ ١ ص ٥٣) ترجمة لطليطلى يدعى أحمد بن سعيد بن أحمد بن =

ضخمة من الحجر بداخل كل منها باب أصغر على هيئة عقد مستدير وهذه العقود تحمل فوقها صفا من النوافذ العربية التى كانت زجاجية تنير المسجد فى العصر الاسلامى لكنها الآن قد سد معظمها (١) • وقد شيدت جدران المسجد من الحجر الجرانيتى ومن الآجر وفقا لأسلوب فى البناء اختصت به طليطلة • ويتكون المسجد من ثلاثة أروقة طولية تقطعها ثلاث عرضية فنتج عن هذا التقاطع تسعة أساطين يعلو كل منها قبة ليكون مجموعها تسعة قباب أعلاها القبة الوسطى (٢) وكان للمسجد وقت بنائه صحن صغير على نمط الصحون أو الأفنية التى توجد عادة فى المساجد الاسلامية (٣) •

ومن المساجد التى لاتزال بعض معالمها قائمة حتى اليوم فى طليطلة ذلك المسجد الذى تحول الى كنيسة سان سلفادور (٤) وكان قد بنى فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، يدل على ذلك نقش وجد فى بلاطته الوسطى يشير الى أنها بنيت من مال الأحباس سنة ٤٣٤ هـ / ١٠٤١ م أى فى عصر بنى ذى النون ، لكن نصارى الأسبان قد حولوه الى كنيسة سنة ١١٥٩ م بعد استيلائهم على المدينة (٥) ويبدو من مشاهدة بنيان ذلك المسجد أنه كان يتألف من خمس بلاطات طول الواحدة منها ١٨ مترا وعرضها أربعة أمتار (٦) •

وكان جامع طليطلة فى عصرها الاسلامى مطلا على ميدان فسيح فى وسط المدينة لعله هو الذى يدعوه الأسبان اليوم باسم « البلازاميور »

=
الحديدى التجيبى يكنى أبا العباس ، له رحلة الى المشرق حج فيها وله أخلاق كريمة ، توفى سنة ٤٤٦ هـ لكنه لم يشر الى بنيانه لشىء من المساجد مثلما فعل فى ترجمته لابن القشارى •

(١) حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ٣٢٥ •

(٢) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٤٠٣ •

(٣) يزعم ح.ب. ترند (أسبانيا والبرتغال من كتاب تراث الاسلام جـ ٢ — ص ٢٤) أن هذا المسجد كان فى الأصل كنيسة قوطية وان مهندسا مسلما رممها وأصلحها وهذا ليس بصحيح ؛ فالنقش الذى على واجهة البناء بنص على الاقامة أو التشييد وليس الاصلاح أو الترميم وفضلا عن هذا فان التاريخ المدون بالنقش هو سنة ٣٩٠ هـ المقابلة لسنة ٩٩٩ م وليست سنة ٩٨٠ م التى أثبتها ح.ب ترند •

(٤) عنان : المرجع السابق ، ص ٨٩ •

(٥) مورينو : المرجع السابق ، ص ٢٤٨ •

(٦) مؤنس : المرجع السابق ، ص ٣٢٥ •

وعلى مقربة منه كان يوجد السوق الكبير أو الرئيسى للمدينة (١) ويتصل هذا الميدان الفسيح عبر شارع متصاعد بميدان آخر قريب وأقل اتساعا كان يعرف فى العصر الاسلامى باسم سوق الدواب الذى يعرفه الأسبان اليوم باسم « ثيودوكوفير » وفيه كان الناس يشترون الدواب أو يكترونها كوسائل للنقل والمواصلات (٢) .

ومن معالم طليطلة الهامة فى عصرها الاسلامى القصر الذى كان مقر الحكام المسلمين . واذا كان قصر طليطلة المعروف اليوم باسم « الكاثاردى توليدو » والقائم على ربوة عالية مطلة على نهر التاجه قد أعيد بناؤه حديثا بعد أن تهدم فى الحرب الأهلية الأسبانية (٣) ، فان أصل هذا القصر مختلف فيه فيرى ماركيز أنه قوطى الأصل (٤) ويرى عنان أنه كان فى الأصل حصنا بناه الحكم الربضى سنة ١٨١ هـ / ٧٩٧ مم (٥) بينما يستبعد مؤنس أن يكون « الكاثاردى توليدو » قائما فى موضع الحصن الذى بناه الحكم الربضى ويضيف الى ذلك قوله ان التاريخ القديم لـ « الكاثار دى توليدو » غير معروف (٦) .

يمكننا أن نستبعد ما يستبعده الدكتور مؤنس ، غير أننا نستطيع التحرى عن الأصول التاريخية للكاثاردى توليدو .

أغلب الظن أن طليطلة لم تكن توجد بها قصبة ولا قصر قبل امارة الحكم بن هشام الربضى وانما كانت دار الامارة فيها واحدة من جملة دورها قد لا تتميز عن سائر دور طليطلة الا بأنها دار العامل أو الوالى ، ولعله مما يوضح ذلك أن عبد الرحمن بن معاوية الداخل مؤسس الامارة الأموية فى الأندلس ولى على طليطلة لأول امارته رجلا من ولد سعد بن عبادة الأنصارى كان ساكنا بها (٧) ولم يشر أحد الى تحول هذا العامل عن

(١) ابن عثمان المكناس : المصدر السابق ، ص ١٥٠ .
(٢) مؤنس : المرجع السابق ، ص ٣٣٠ .
(٣) عيسى الناعورى : المرجع السابق ، ص ٥٣ ، ص ٧٨ .
(٤) Marquez, R.C.; R.C.; Descripcion de Al-Andalus. Al-Andalus XXXIV (1969) PP. 83-103.
(٥) الآثار الأندلسية الباقية ، ص ٩٠ .
(٦) رحلة الأندلس ، ص ٣٣١ .
(٧) ابن القوطية : المصدر السابق ص ٥٢ .

داره . كما يدل عليه أن الحشم والجنود قبل امارة الحكم الربضى كانوا فى طليطلة يخالطون أهلها فى الحارات والمساكن ليس لهم مسكن خاص بهم أو حصن يجتمعون فيه (١) حتى تولى على طليطلة عمروس بن يوسف الوشقى المولد من قبـل الحكم الربضى وأعمل الحيلة للايقاع بأهلهـا فشاورهم ـ بعد أن أنسوا اليه ـ فى أن يتخذ قصبة فى جانب المدينـة يسكنها هو والحشم والجند فلا يخالطوا أهل المدينة ولا يحدث منهم ما يسوؤهم « فأجابوه الى أن تكون القصبة فى وسط المدينة ولا تكون فى جانب فاختاروا الجبل المعروف بجبل عمروس » (٢) وشرع عمروس فى بناء القصبة حتى اكتملت « واستدار سورها واتخذ له فيها قصرا عليا » (٣).

وعلى ذلك كان القصر الذى أقيم فى امارة الحكم الربضى فى طليطلة من بناء عاملها من قبله عمروس بن يوسف ، ولم يكن ذلك القصر فى طرف المدينة جهة القنطرة وانما كان فى وسطها على احدى جبالها الوسطى الذى عرف منذئذ بجبل عمروس . ويحدثنا ابن المهدى الغزال عن قصبتين من عمل المسلمين فى طليطلة يقول عن احداهما « أما القصبة التى بقبة الربوة فقد استولى عليها الخراب من داخلها وأما سورها فباق على حالة ومازالت القباب والمقاعد والغرف والمنارة مشيدة الأركان منهدة السقف والبعض منها على حالة القديم » ويحدثنا الغزال عن طريقين يؤديان الى القصبة بحيث لا يلتقى أحدهما بالآخر الا عند بابها (٤) مما يتفق وخطة عمروس للايقاع بأهل طليطلة .

يبدو أن هذه القصبة التى أشار اليها هنا ابن المهدى الغزال هى التى بناها عمروس بن يوسف ويبدو أيضا أنها هى القصبة التى زارها ابن عثمان المكناسى والتى يقول عنها القصبة التى كان بها أمراء المسلمين رحمهم الله فأروناجميعها فلم نجد بها أثرا للمسلمين رحمهم الله فقد اندثر جميعه ... وهى عندهم اليوم معدة لصنع الحرير » (٥) .

---

(١) ابن فضل الله العمرى : المصدر السابق ، السفر الثانى ، ص ٢٩ .
(٢) ابن القوطية : المصدر السابق ، ص ٦٤ .
(٣) ابن فضل الله العمرى : المصدر السابق ، السفر الثانى ، ص ٢٩.
(٤) نتيجة الاجتهاد فى المهادنة والجهاد ، ص ١٦٧ .
(٥) الاكسير فى افتكاك الاسير ص ١٤٥ .

يتضح مما سبق أن ما بناه عمروس لم يكن هو الأساس الذى قام عليه « الكاثار دى توليدو » . وأغلب الظن أنه قام على أصل آخر هو القصر الذى كان الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله قد بناه فى طليطلة بعد استيلائه عليها سنة ٣٢٠ هـ .

فقد روى ابن عذارى أن الناصر لدين الله بعد استيلائه على طليطلة وتفقده لأحوالها « دبر فيها بناء محكما متقنا ليكون مستقرا للقواد الملازمين فيها » (١) . ويزيد ابن حيان أمر هذا البناء المشار اليه توضيحا فيقول : « ودبر فيها من ذاته القصر المرسوم لسكنى القواد والعمال بها الذى من باب القنطرة بالمكان المسمى الحزام بناء محكما متقنا يكون مستقر القواد وعماله فيهم وزماما على أهلها بأيديهم ، فصل به الحزام عن المدينة ووصله بباب القنطرة فنظم به باب حضرتها بباب جسرها كيما يختص — برأيه — قواده وعماله النازلون بالقصر بملك هذه القنطرة والباب دون أهلها فصاروا لذلك من يومئذ فى قبضة السلطان وتحت غلقه لا دخول لهم ولا خروج من مدينتهم الا تحت اذنه » (٢) .

هكذا يبدو موضع القصر الذى بناه الناصر لدين الله فى طليطلة أقرب المواضع لموقع « الكاثار دى توليدو » ويبدو أن هذا القصر هو الذى رآه ابن المهدى الغزال ولم يدخله وانما وصفه بأنه « قصبة من عمل المسلمين رحمهم الله لها أبراج أربعة متقنة فى البنيان فى غاية الاتقان يحسبها الناظر أنها بنيت فى الحال لجودتها وحدتها » (٣) .

وقد اتسعت رقعة القصر الذى بناه الناصر لدين الله وزادت أبنيته ومجالسه خاصة فى عهد المأمون يحيى بن ذى النون الذى ورث عن أبيه الظافر اسماعيل مالا كثيرا فأنفق ببذخ على مبانيه وتأنق فيها ، وكانت بعض الزيادات التى زادها المأمون بن ذى النون فى قصر طليطلة كبيرة الى درجة أن البعض عدها قصرا قائما بذاته مثل المكرم الذى يعده البعض قصرا (٤) لكنه لم يكن فى الحقيقة الا مجلسا كبيرا (٥) فى قصر طليطلة

---

(١) البيان المغرب ، جـ ٢ ص ٢٠٦ .
(٢) المقتبس ، نشر شالميتا ، جـ ٥ ص ٢١٥ .
(٣) نتيجة الاجتهاد ، ص ١٦٣ .
(٤) ابن سعيد : المغرب ، جـ ٢ ص ٩ والمقرى : نفح الطيب ، جـ ٤ ص ٣٥٣ .
(٥) ابن بسام : الذخيرة ، جـ ٧ ص ١٤٧ .

يعده ابن بسام سيد مجالس القصر قاطبة ويذكر أنه كان مبنيا من رفيع المرمر الأبيض المسنون ناعم الملمس وأن له ازارا رائعا يدور على كل جدرانه وأنه كان مزدانا بالصور الرائعة التى تبهر الأبصار وأن به بحور منتظمة من الزجاج الملون الملبس بالذهب الابريز وفيه بحيرتان نصبت على أركانهما تماثيل أسود مصنوعة من الذهب الابريز متقنة الصنع وقد وضع فى قعر كل بحيرة منها حوض رخام يشبه المذبح محفور من رفيع المرمر وقد سمح لأكابر أهل طليطلة المدعووين الى حفل اعذار حفيد المأمون بدخول هذا المجلس المكرم فسلب لبهم وقيد أبصارهم (١) .
وفضلا عن المجلس المكرم كان يوجد فى قصر طليطلة على عهد المأمون بن ذى النون مجالس أخرى تضارعه فى الروعة والبهاء مثل المجلس الكبير ودار كبرى ثانية زاهرة ذات سعة واحدة يبدو أنها كانت قاعة الطعام ثم مجلس التطييب وهو مجلس فخم عالى البناء سامى السناء يطل على النهر (٢) . وكان مما أقامه المأمون فى القصر القبة المعروفة باسم قبة النعيم (٣) . والتى كانت أشبه بخيمة تنساب المياه من أعلاها حواليها دون أن ينفذ منها شىء الى داخلها فيجلس المأمون بن ذى النون بداخلها وسط غلالة من الماء لا يمسه منه شىء (٤) .

هكذا كان قصر طليطلة بعد اضافات ابن ذى النون اليه فكان يحشد اليه كل حسن ويباهى به جنة عدن — على حد تعبير ابن بسام — لكن نصارى الاسبان عمدوا الى تخريبه فاتخذوا مجالسه مرابط لافراسهم وايواناته ملاعب لاراذلهم (٥) رغبة منهم فى طمس المعالم الاسلامية لمدينة طليطلة ، لكن الملك الاسبانى بدور المعروف بالقاسى فطن الى اهمية هذا القصر فأصلح ما فسد منه وأعاد اليه رونقه مثلما كان عليه فى العصر الاسلامى لطليطلة (٦) .

---

(١) ابن بسام : المصدر السابق ، ج ٧ ص ص ١٣١ — ١٣٢ .
(٢) نفس المصدر ، ج ٧ ص ١٣١ .
(٣) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٩ .
(٤) ابن سعيد : المصدر السابق ج ٢ ص ٩ والمقرى : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٣٥٣ .
(٥) ابن بسام : المصدر السابق ، ج ٧ ص ١٦٤ .
(٦) يرى ترند (المرجع السابق ص ٢٦) أن عمالا مدجنون بنوا « الكازار » للملك بدرو الفارسى على طراز اسلامى خالص .

وكان لطليطلة فى عصرها الاسلامى حومات وأرباض داخل الحاضرة وخارجها ، وقد حملت الينا الصكوك والوثائق التى جمعها آنخل جونزاليز بالنثيا عن مستعربى طليطلة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين (٦ ، ٧ هـ) (١) بعضا من أسماء الحومات التى كانت تسمى بمسميات المعالم الرئيسية فيها كالمساجد أو الكنائس أو الحمامات الشهيرة أو ما الى ذلك ، فمن هذه الحومات ــ على سبيل المثال ــ حومة كنيسة شنت ماريا القاعدة أم النور وحومة حمام يعيش وغيرها . ويبدو أن كل حومة كانت تتضمن مسجدا صغيرا يؤدى فيه المسلمون الصلوات غير الجامعة وقد تضم الحومة الكبيرة أكثر من مسجد ، فقد كان بحومة القاعدة شنت مارية أم النور مسجدين ظل أحدهما قائما دون تغيير كبير حتى القرن الثالث عشر الميلادى (٢) بينما كان الآخر قد تحول على يد نصارى الاسبان الى اسطبل (٣) .

ولم تكن الدور الطليطلية فى العصر الاسلامى تختلف كثيرا عن سائر الدور الاندلسية ، وقد وصفها مورينو بايجاز بأنها أماكن مغلقة تحيط ببهو على الأسلوب الاندلسى (٤) .

كانت دور طليطلة محوطة بسور شاهده ابن المهدى الغزال فى القرن الثامن عشر الميلادى دون تغيير يذكر ، ووجده « يصعد بصعود الربوة وينحدر بانحدارها » (٥) ويرى أرسلان أن سور المدينة الاصلى قد زيد عليه سور أحدث لأجل حماية ربض المدينة (٦) فكان هذا السور فى بعض مواضعه ــ أو فى موضع واحد على الأقل ــ سورا مزدوجا .

وكان لسور طليطلة فى عصرها الاسلامى أبواب عديدة لا نعرف كم كان عددها على وجه التحقيق وان كانت فيما يبدو حسب عدد الطرق التى كانت تتفرع عن طليطلة لتربط بينها وبين مختلف نواحى الاندلس

---

(١) نقل شكيب ارسلان كثيرا منها فى كتابه الحلل السندسية جـ ١ ص ٣٦٧ وما بعدها .
(٢) شكيب ارسلان : المرجع السابق جـ ١ ص ٣٨٦ .
(٣) نفس المرجع ، جـ ١ ص ٣٩٣ .
(٤) الفن الاسلامى فى أسبانيا ، ص ٢٣٢ .
(٥) نتيجة الاجتهاد ، ص ١٦٣ .
(٦) الحلل السندسية ، جـ ١ ص ٤٣٥ .

وأغلب الظن أن تلك الطرق المؤدية الى طليطلة أكثر عددا من مثيلاتها مما يخص المدن الاندلسية الاخرى على اعتبار أن طليطلة كانت موسطة الاندلس وتتفرع عنها طرق الى شتى الاتجاهات .

كان من أبواب طليطلة فى عصرها الاسلامى باب القنطرة الذى كان — بلا شك — باب المدينة الرئيسى والذى خطط عمروس الوشقى للتحكم فيه طلبا للتحكم فى المدينة كلها ويؤدى الطريق من هذا الباب الى الرحبة المعروفة باسم سوق الدواب Zoo co dover (١) . ومن الابواب المعروفة أيضا باب شاقرة الذى كان ينفتح على حومة تنسب اليه Puerta de Bisagra وان كان هناك الآن بابان يحملان نفس الاسم أحدهما قديم لا يشك فى أصله العربى والآخر أحدث منه ومختلف فى أصله لكنه عربى الطراز (٢) . ومن أبواب طليطلة المعروفة باب المردوم الذى يقع بجواره وينسب اليه مسجد ابن حديدى الذى أشرنا اليه آنفا ، ويبدو أن مورينو قد اختلط عليه الأمر حين ظن أن باب مردوم Bib mardum هو نفسه باب القنطرة (٣) . وقد وجدت أبواب أخرى مثل باب الحديد وباب الدباغين اللذان يشرفان على نهر التاجه ، ولا يزال الأخير منهما يعرف باسمه العربى Puerta de Bisagra (٤).

وعلى أى حال ، يبدو لنا أن الأبواب التى استحدثت فى سور طليطلة بعد استيلاء الأسبان عليها كانت لها جميعا أصول عربية اذ أن هذه الأبواب كانت نقاط انطلاق من طليطلة نحو مختلف جهات الأندلس .

وكان يقع خارج سور طليطلة فى عصرها الاسلامى أكثر من ربض ، منها ربض كان يقع بناحية باب شاقرة دفن فى حومته ابن ميمون أحمد ابن محمد بن أبى عبده صاحب أبى اسحاق بن شنطير (٥) وكان من أرباض طليطلة أيضا الموضع الذى كان يسمى محلة حرنكش وكان يقع على مقربة من باب القنطرة ، وقد نزل فيه الخليفة عبد الرحمن الناصر حين غزا طليطلة سنة ٣١٩ هـ — كما سبق أن ذكرنا — وربما يكون هذا

---

(١) عبد الله أنيس الطباع : القطوف اليانعة ص ٢٦٨ .
(٢) شكيب ارسلان : المرجع السابق ، ج ١ ص ٤٣٦ .
(٣) الفن الاسلامى ، ص ٤٣٦ .
(٤) عبد الله أنيس الطباع : المرجع السابق ، ص ٢٦٨ .
(٥) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ص ٢٢٢ .

الربض قد اتسع وامتد من محلة حرنكش الى محلة المقبرة الواقعة خارج باب القنطرة مباشرة خاصة بعد أن شيد الناصر لدين الله فى هذا الموقع ما سماه مدينة الفتح بجبل حرنكش وشحنها بالآلات والميرة وأقام فيها الأسواق وجمع لها أهل المهن والفعلة والصناع وغيرهم (١) .

وكان فى طليطلة فى عصرها الاسلامى كثير من الحمامات العامة يستحم فيها المسلمون كعادتهم فى سائر مدنهم ، وقد بقى منها حتى الآن حمامان يجزم مورينو بأنهما من العصر الاسلامى ، يوجد أحدهما بالقرب من البئر المرة وكان يسمى فى أوائل القرن ١٣ م حمام جمانش ، ويوجد الآخر فى الحى القديم لليهود وكان يسمى باسم حمام زيد حتى أواخر القرن ١٣ م (٢) .

أما عن سقاية طليطلة فى عصرها الاسلامى فيبدو أنها لم يكن لها موضع سقاية على النهر مباشرة يشبه موضع السقاية الذى كان لاشبيلية فى العصر الاسلامى نظرا لعمق مجرى نهر التاجه بالنسبة لبنيان طليطلة القائم على نجد من الأرض ولذلك كان الماء يرفع من نهر التاجه لسقاية طليطلة بواسطة ناعورة كبيرة تقدر بعض المصادر الاسلامية ارتفاعها فى الجو بتسعين ذراعا « وهى تصعد الماء الى أعلى القنطرة والماء يجرى على ظهرها فيدخل المدينة » (٣) ويبدو أن هذه الناعورة قد تهدمت بعد العصر الاسلامى لطليطلة فاستعيض عنها بالسقيا من عين ماء عذبة كانت توجد بعدوة النهر المقابلة ، أجرى الطليطليون ماءها فى القناة التى كانت من صنع المسلمين وتجرى فوق ظهر القنطرة ، وقد شاهد ابن عثمان المكناسى فى زيارته لطليطلة بعض ما تبقى من آثار هذه القناة بعد أن تهدمت القنطرة الاسلامية القديمة التى كان الماء يجرى فوق ظهرها (٤) .

وفضلا عن السقاية من نهر التاجه ، كان أهل طليطلة يعتمدون فى سقياهم أيضا على الآبار التى كانت كثيرة فى العصر الاسلامى ويبدو أن بعض الآبار كان ملكية خاصة وقد يشارك فى ملكية الواحد منها أكثر

---

(١) ابن حيان : المقتبس ، جـ ٥ ص ص ١٨٨ — ١٨٩ .
(٢) الفن الاسلامى فى أسبانيا ، ص ٣٥٢ .
(٣) الادريسى : المصدر السابق ص ١٨٧ .
وابن فضل الله العمرى : المصدر السابق ، السفر الثانى ، ص ٢٧ .
(٤) الاكسير فى افتكاك الاسير ، ص ١٤٩ .

من تقر ، فلدينا وثيقة تظهر أن أحدهم اشترى فى القرن الثانى عشر الميلادى المنية التى بمنزل مشكة من نظر طليطلة وهو موضع كان معروفا فى عهد الاسلام — كما تنص الوثيقة نفسها — وقد تضمن عقد الشراء ثلث البير وثلث الصهريج (١) •

أما عن مقبرة طليطلة ، فقد كان لها أكثر من مقبرة نظرا لكثرة سكان المدينة فى عصرها الاسلامى ، كان من تلك المقابر — على سبيل المثال — مقبرة باب شاقرة ومقبرة باب القنطرة ومقبرة القرق وقد ذكر ابن المهدى الغزال أنه زار مقبرة للمسلمين — لم يعينها — فطالع فيها شواهد القبور فوجد الكتابة عليها قد طمست فلم يتعرف على أصحاب تلك القبور فيما عدا واحدا من تلك الشواهد كان لقبر أحمد بن أحمد بن مغيث المتوفى ليلة الأحد لثمان بقين من رجب سنة ٤٤٩ هـ (٢) •

ونعرف الآن بعض شواهد أخرى لقبور كانت فى طليطلة فى عصرها الاسلامى منها شاهد قبر دفنت فيه « آميرة بنت محمد بن محرز ، توفيت رحمها الله يوم الاثنين لأربع عشر خلون من المحرم سنة ٤٦٨ هـ ، كانت تشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون ، وأنه الجنة حق والنار حق وأن الساعة آتيه لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور • على هذه الشهادة حييت وعليها توفيت وعليها تبعث حيا » (٣) •

على هذا النحو ، كان بنيان طليطلة وعمارتها فى عصرها الاسلامى ، ولا غرو أن يصفها الكتاب المسلمون بأنها فسيحة القطر حصينة البنا (٤) ولا غرابة فى أن يقال ان عبد الرحمن الناصر قد رأى من صفات طليطلة — حين استولى عليها — « ما اشتد منه عجبه » (٥) •

---

(١) شكيب أرسلان : المرجع السابق ، جـ ١ ص ٣٧٢ •
(٢) نتيجة الاجتهاد فى المهادنة والجهاد ، ص ١٦٥ •
(٣) Al-Andaus, XXXI (1966) P. 333.
(٤) الادريسى : المصدر السابق ص ١٨٧ •
وابن فضل الله العمرى : المصدر السابق ، السفر الثانى ، ص ٢٧ •
(٥) ابن حيان : المقتبس ، جـ ٥ ص ٢١٤ •

سـكان طليطلة :

سكن طليطلة فى عصرها الاسلامى خليط سكانى (١) ابتدأ فى التكوين على اثر الفتح الاسلامى واستمر تكوينه طيلة العصر الاسلامى فى طليطلة من عناصر عديدة منهم الفاتحين المسلمين وأهل المدينة الأصليين من الاسبان فضلا عن اليهود المقيمين فى المدينة ثم ماجد على سكان المدينة من جماعة المولدين التى تزايدت وتنامت فى العصر الاسلامى لطليطلة .

ومن المؤرخين المحدثين من يقدر عدد سـكان طليطلة فى القـرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى ، بنحو سبعة وثلاثين ألف نسمة وهو عدد — فى تقديره — لم يكن يزيد عن نصف عدد سكان قرطبـة أو نصف عدد سكان اشبيلية حينئذاك على وجه التقريب (٢) .

واذا صح هذا التقدير فانه يختص بطليطلة فى أواخر عصرها الاسلامى أو بعد استيلاء نصارى الأسبان عليها فى الربع الأخير من القرن الحادى عشر الميلادى ولا شك أن عدد سكان طليطلة فى أواخر عصرها الاسلامى كان قد تناقص عما كان علية فى الفترات السابقة من العصر الاسلامى لطليطلة بسبب الأعداد الكبيرة التى فقدتها طليطلة من سكانها فى الحروب والثـورات الكثيرة التى أشعلها أهل طليطلة على نحو مادرسنا فى تاريخها السياسى وزاد تناقص عدد سكان طليطلة زيادة ملحوظة بعد استيلاء نصـارى الأسبان على طليطلة فقد فتك الأدفونش بأهل طليطلة اذ أخذ « ينتسف مرافقها ويقعد لجالية أهلها ثناياها ومضايقها يأسر ويقتل ويحرق ويمثل وسما السعر وتفاقم الأمر وانكسرت الموارد والمصـادر وبلغت القـلوب الحناجر » (٣) فأتى على أكثر أهل طليطلة القتل والجلاء واستمر الأدفونش فى « استباحة الحريم واسـتئصال الراحـل والمقيم » (٤) فكان من الطبيعى أن يتناقص سكان طليطلة تناقصا ملحوظا بعد استيلاء نصارى الأسبان على المدينة لاسيما بعد أن فرعنها كثير من أهلها بدينهم وخوفا من بطش الأسبان .

---

(١) عبد العاطى محمد الورقلى : أوراق اندلسـية ص ٥٠ .
(٢) Tho mas F. Gilck; op. cit., P. 114.
(٣) ابن بسـام : الذخيرة ، ج ٧ ص ١٦٤ .
(٤) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

أما عن العناصر التي تكون منها سكان طليطلة في عصرها الاسلامي فقد كان العنصر العربي واحدا منها اذ سكن العرب طليطلة مثلما سكنوا غيرها من مدن الأندلس • وعلى الرغم من أن طليطلة لم تكن من المناطق الرئيسية لسكنى العرب فانه يطالعنا بين سكانها جماعات من قبائل عربية عديدة منها كنانة التي كان جل المنتسبين اليها من الأندلسيين « في طليطلة وأعمالها ولهم ينسب الوقشيون الكنانيون الأعيان » (١) • نعرف منهم أبا الوليد هشام بن أحمد بن هشام الكناني الوقشي « أحد رجال الكمال في وقته باحتوائه على فنون المعارف وجمعه لكليات العلوم وهو من أعلم الناس بالنحو واللغة ومعاني الأشعار وعلم العروض وصناعة البلاغة وهو بليغ مجيد شاعر حافظ للسنن وأسماء نقلة الأخبار بصيرا بأصول الاعتقادات وأصول الفقه واقف على كثير من فتاوى فقهاء الأمصار نافذ في علم الشروط والفرائض متحقق بعلم الحساب والهندسة مشرف على جميع آراء الحكماء ، حسن النقد للمذاهب ثاقب الذهن في تمييز الصواب ••• وكان من العلوم بحيث يقضي له في كل علم بالجميع » (٢) • وأبو عبد الله يوسف بن محمد ابن بكر الكناني ، من أهل طليطلة ، كان ذكيا متصرفا في الفقه والحديث والفرائض ، له رحلة ، وتولى قضاء قلعة رباح ، وكان حسن الزي والهيئة ، توفي سنة ٤٧٥ هـ (٣) •

وكانت طليطلة أهم مواطن الأنصار في الأندلس ، اذ كانوا بها أكثر من غيرها من سائر مدن الأندلس شرقيها وغربيها (٤) • منهم زياد بن عبد الله الأنصاري قاضي طليطلة ، توفي سنة ٢١٢ هـ (٥) ومن الأنصار الذين سكنوا طليطلة في القرن الرابع الهجري — على سبيل المثال — أبو سليمان وهب بن عيسى الأنصاري ، سمع من محمد ابن وضاح ومن غيره ، وكان رجلا صالحا توفي سنة ٣٤٢ هـ (٦) • وأبو عبد الله محمد بن حيون الأنصاري رحل الى المشرق فسمع بمكة وبمصر وتوفي في طريق عودته بأطرابلس سنة ٣٤٦ هـ (٧) • وأبو نصر فتح بن محمد الأنصاري يعرف

---

(١) المقري : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٧٢ •
(٢) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ / ١٤٣٧ •
(٣) نفس المصدر ، جـ ٢ / ١٥٠٥ •
(٤) المقري : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٧٥ •
(٥) ابن الفرضي : المصدر السابق ص ١٥٥ / ٤٥٩ •
(٦) نفس المصدر جـ ٢ / ١٥١٧ •
(٧) نفس المصدر ، جـ ٢ / ١٢٧٦ •

بابن القطيلي رحل الى المشرق وسمع بمصر ، سمع منه فى الأندلس الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر ، توفى سنة ٣٦٤ هـ (١) . وأبو عمر أحمد بن سعيد بن كوثر الأنصارى كان فقيها كريم النفس وكان منـه كرم وجود لم يسبقه اليه أحد من فقهاء طليطلة ، ولى أحكام طليطلة وتوفى سنة ٤٠٣ هـ (٢) . وكان من الأنصار الذين سكنوا طليطلة من أهل القرن الخامس الهجرى — على سبيل المثال — أبو بكر خلف بن أحمد بن خلف الأنصارى يعرف بالرجوى ، رحل الى المشرق ، وكان رجلا فاضلا ورعا دعى الى قضاء طليطلة فأبى وهرب من ذلك ، توفى بعد سنة ٤٢٠ هـ (٣) وأبو محمد عبد الله بن موسى بن سعيد الأنصارى كان من خيار المسلمين وممن انقطع الى الله عز وجل وتجرد الى أعمال الآخرة مجتهدا فى ذلك بلا أهل ولا ولد ، كانت له فى المسجد الجامع مجالس كثيرة يعلم الناس أمر وضوءهم وصلاتهم وجميع ما افترض عليهم وتمكن من القلوب حتى أن القاضى أبو زيد بن الحشا منعه من الخروج عن طليطلة ليعلم الناس فيها حتى توفى سنة ٤٥٦ هـ (٤) . وكان منهم أبو عمر أحمد بن يوسف ابن أصبغ الأنصارى كان يبصر الحديث بصرا جيدا والفرائض والتفسير وشوور فى الأحكام وكانت له رحلة الى المشرق حج فيها وولى القضاء بطليطلة ثم صرف عنه ، يبدو أنه خرج من طليطلة بعد استيلاء نصـارى الأسبان عليها فقد توفى فى قرطبة سنة ٤٨٠ هـ (٥) . وأبو جعفر أحمـد ابن عبد الرحمن بن مطاهر الأنصارى روى عن جماعة وعنى بسماع العلم ولقاء الشيوخ والأخذ عنهم ، لم يخرج عن طليطلة بعد استيلاء نصارى الأسبان عليها وتوفى بها أيامهم سنة ٤٨٩ هـ (٦) . وسكن طليطلة جماعة من الأزد (٧) كان منهم — على سبيل المثال — أبو عمر يوسف بن يحى من الأزدى المغامى — ومغام قرية من أعمال طليطلة — اختص بعبد الملك ابن حبيب السلمى الفقيه وهو صاحبه المشهور به ويقال انه كان صهره ، روى عنه كتابه الكبير المسمى بالواضحة ، توفى فيما يقال بالقيروان سنة

---

(١) ابن الفرضى ، المصدر السابق ، جـ ١ / ١٠٤٣ .
(٢) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ١ / ١٧ .
(٣) نفس المصدر : جـ ١ / ٣٧٨ .
(٤) نفس المصدر ، جـ ١ / ٦١٠ .
(٥) نفس المصدر ، ١ / ١٤٥ .
(٦) نفس المصدر ١ / ١٥١ .
(٧) المقرى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٧٥ .

٢٨٣ هـ (١) وأبو عبد الله محمد بن عمرو بن سعيد بن عيشون الأزدى سمع بطليطلة وبقرطبة من جماعة من الشيوخ ورحل الى المشرق فلقى بمكة أبا سعيد بن الأعرابى وسمع منه سماعا كثيرا ومن غيره ، حدث بمصنف أبى داود فى السنن توفى سنة ٣٧٠هـ(٢)وأبو الوليد يونس بن أحمد ابن يونس الأزدى يعرف بابن شوفه ، روى عن كثيرين ، كان خيرا فاضلا يغلب عليه من الحديث ما فيه الزهد والرقائق وله بصر بالمسائل وتصرف بالحديث وكان بارا باخوانه جميل المعاشرة من أحسن الناس خلقا ، توفى بمجريط سنة ٤٧٤ هـ (٣) .

وسكن طليطلة جماعة من باهلة منهم قوم ينتسبون الى قتيبة بن مسلم وحكيم بن عبد الكريم بن مسلم أخى قتيبة (٤) وكان منهم أحمد بن الوليد ابن عبد الخالق قاضى طليطلة من ولد قتيبة بن مسلم الباهلى ، سمع بالأندلس من عيسى بن دينار ويحى بن يحى وله رحله سمع فيها سحنون ورجع فمات بالأندلس (٥) .

وسكن طليطلة جماعة من معافر منهم — على سبيل المثال — أبو غالب تمام بن عبد الله المعافرى ، سمع بطليطلة ورحل فسمع بمكة والشام وتوفى بطليطلة سنة ٣٧٧ هـ (٦) وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن أبى عمرو المعافرى كانت له رحله وسمع منه الناس وتوفى نحو سنة ٤٠٠ هـ (٧) .

وسكن طيطلة جماعة من فهر منهم على سبيل المثال — أبو الوليد هشام بن محمد بن مسلمة الفهرى ، له رحله الى المشرق وسمع الناس منه وشوور فى الأحكام ، توفى سنة ٤٦٩ هـ (٨) وأبو بكر يحى بن عبد الله ابن ثابت الفهرى النحوى ، كان حافظا للفقه والعربية ، وكان شاعرا فصيح اللسان توفى سنة ٤٣٦ هـ (٩) .

---

(١) الحميدى : المصدر السابق ص ٣٧٣ / ٨٧٩ .
(٢) الفرضى : المصدر السابق ٢ / ١٣٢٩ .
(٣) ابن بشكوال : المصدر السابق ٢ / ١٥١٥ .
(٤) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ، ص ٢٣٥ .
(٥) الحميدى : المصدر السابق ص ١٤٨ / ٢٥٣ .
(٦) ابن الفرضى : المصدر السابق ص ٩٨ / ٣٠٥ .
(٧) ابن بشكوال : المصدر السابق ج ٢ / ١٠٦٢ .
(٨) نفس المصدر ، ج ٢ / ١٤٣٣ .
(٩) نفس المصدر ، ج ٢ / ١٤٦٧ .

وسكن طليطلة جماعة من تميم منهم — على سبيل المثال — أبو عمر خلف بن صالح بن عمران التميمى ، حدث عنه الصاحبان ابن ميمون وابن شنطير ، توفى سنة ٣٧٨ هـ (١) وأبو الوليد هشام بن ابراهيم بن هشام التميمى ، كان له حظ وافر من الأدب وشوور فى الأحكام وناظر فى المسائل وكان مع ذلك فارسا شجاعا استشهد فى سنة ٤١٩ هـ (٢) .

وسكن طليطلة جماعة من تجيب منهم — على سبيل المثال — زكريا ابن هلال التجيبى ، كانت له عناية بطلب العلم ومشاركة فى الرواية والفقه لكنه غلبت عليه العبادة حتى كان يشار اليه باجابة الدعوة ، توفى فى سنة ٣٠٢ هـ (٣) . وأبو محمد عبد الله بن فتح بن فرج بن معروف التجيبى ، سمع بطليطلة ورحل الى المشرق فسمع من جماعة ، توفى سنة ٣٧٦ هـ (٤) وكان بنو ابن ارفع رأسه من التجيبين المرموقين فى طليطلة منهم قاسم بن أحمد ابن محمد استقضاه الحكم المستنصر على طليطلة ، كما تولى قضاء بطليوس وتصرف فى بنيان الحصون فى الثغر وتوفى سنة ٣٩٣ هـ (٥) وابنه أبو جعفر أحمد بن قاسم بن محمد كان حافظا للفقه رأسا فيه وشاعرا مطبوعا وكانت له فى جامع طليطلة حلقة توفى ليلة عاشورراء سنة ٤٤٣ هـ (٦) . وأبو العباس أحمد بن سعيد بن أحمد ابن الحديدى التجيبى له رحلة الى المشرق حج فيها وسمع وكانت له أخلاق كريمة ، توفى سنة ٤٤٦ هـ (٧) .

وسكن طليطلة جماعة من الصدف كان منهم عبد السلام بن وليد ابن زيدون الصدفى كان فقيها حافظا للمسائل ، ولى قضاء طليطلة وتوفى سنة ٢٧٦ هـ (٨) وأبو عمر أحمد بن محمد بن يوسف بن بدر الصدفى كان من خيار المسلمين وأفاضلهم توفى سنة ٤٤١ هـ (٩) وأبو عمر أحمد بن محمد

---

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ٢ / ٣٥٩ .
(٢) نفس المصدر ، ج ٢ / ١٤٢٢ .
(٣) ابن الفرضى : المصدر السابق ص ١٥٠ / ٢٤٨ .
(٤) ابن الفرضى : المصدر السابق ص ٢٣٨ / ٧٣٣ .
(٥) نفس المصدر ، ص ٣٧١ / ١٠٨٣ .
(٦) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ / ١١١ .
(٧) نفس المصدر ، ج ١ / ١١٣ .
(٨) ابن الفرضى : المصدر السابق ص ٢٨٧ / ٨٥٥ .
وعياض : ترتيب المدارك ، ج ٤ ص ٤٦١ .
(٩) ابن بشكوال : المصدر السابق ج ١ / ١٠٩ .

ابن عمر الصدفى الزاهد يعرف بابن أبى جناده له رحلة حج فيها وكان صواما قواما منقبضا عن الناس ، من أهل العلم والعمل وترك الدنيا ملازما لثغور المسلمين توفى سنة ٤٥٠ هـ (١) وأبو جعفر أحمد بن مغيث ابن أحمد بن مغيث الصدفى من جلة علماء طليطلة وأهل الفهم والرياسة فى العلم ، عالما بالحديث وعلله وبالفرائض والحساب واللغة وعقد الشروط وله فيها كتاب أسماه المقنع ، توفى سنة ٤٥٩ هـ (٢) . وأبو محمد تمام ابن عفيف الصدفى الواعظ الزاهد ، اشتهر بالزهد والصلاح والورع وكان يعظ الناس ويحثهم على الخير ، وكان متقللا من الدنيا ، يلبس الصوف ويجتهد فى أفعال البر كلها ويعلم الناس أمور دينهم ويجتهد فى نصحهم ، توفى سنة ٤٥١ هـ (٣) .

وسكن طليطلة نفر من قضاعة منهم أبو محمد عبد الله بن بكر بن قاسم القضاعى روى عن الصاحبين وغيرهما . رحل الى المشرق فسمع بمكة ومصر والقيروان ، وكان من الرواة الثقاة الأخيار ورعا فاضلا عفيفا منقبضا متصاونا توفى سنة ٤٣١ هـ (٤) .

وسكن طليطلة نفر من قيس منهم أبو الربيع سليمان بن ابراهيم بن هلال القيسى الذى كان رجلا صالحا زاهدا عالما تاليا للقرآن مشاركا فى التفسير والحديث ورعا ، تصدق بجميع ماله وانقطع الى الله عز وجل ولزم الثغور حتى توفى بحصن غرماج (٥) . وأبو نصر فتحون بن عبد الرحمن بن فتحون القيسى ، كان حسن الأخلاق ، توفى سنة ٤٦٤ هـ (٦) . وأبو محمد قاسم ابن محمد بن سليمان بن هلال القيسى روى عن الصاحبين وغيرهما كثير من أهل الأندلس ، رحل الى المشرق فحج وسمع ، عنى بجمع العلم مع الصلاح والفضل والانقباض ولزوم المساجد وكانت له حلقة فى الجامع يعظ فيها الناس ، لا يذكر عنده شىء من الدنيا ، وكان اماما فى السنة وسيفا على أهل الأهواء مباينا لهم صليبا فى الحق (٧) .

---

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، جـ ١ / ١٢١ .
(٢) نفس المصدر ، جـ ١ / ١٢٤ .
(٣) نفس المصدر ، جـ ١ / ٢٨٤ .
(٤) نفس المصدر ، جـ ١ / ٥٩١ .
(٥) نفس المصدر ، جـ ١ / ٤٥٠ .
(٦) نفس المصدر ، جـ ١ / ٦٩٤ .
(٧) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ١٠٩١ .

وسكن طليطلة نفر من غافق منهم عيسى بن دنيار الغافقى فقيه طليطلة ابن أحمد بن صاعد التغلبى قاضى طليطلة ، استقضاه عليها المأمون بن ذى النون ، وكان من أهل المعرفة والذكاء متحريا فى أموره كلها ، توفى وهو على القضاء سنة ٤٦٢ هـ (١) .

وسكن طليطلة نفر من غافق منهم عيسى بن دنيار الغافقى فقيه طليطلة المشهور تلميذ عبد الرحمن بن القاسم العتقى المصرى كان اماما فى الفقه على مذهب مالك وعلى طريقة عالية من الزهد والعبادة توفى بطليطلة سنة ٢١٢ هـ (٢) .

وسكنها أيضا نفر من بكر مثل أبى عبد الله محمد بن ابراهيم بن فاسم البكرى (٣) ونفر من أسد مثل يوسف بن موسى الأسدى أخذ عن غير واحد وشوور فى الأحكام وتوفى بحصن ولمش سنة ٤٧٥ هـ (٤) وأبى بكر يعيش بن محمد الأسدى روى عن أبيه وغيره ، له رحلة الى المشرق وكانت له عناية كثيرة بالعلم ، تولى الأحكام بطليطلة ثم صار اليه تدبير الرياسة بها ثم خلع عن ذلك فأقام بقلعة أيوب حتى توفى بها سنة ٤١٨ هـ (٥) .
وسكنها أيضا نفر من جهينه مثل أبى عمر يوسف بن عمر الجهنى كان من أهل العلم بالفرائض والآداب وطالع النجوم واستبجر فى ذلك توفى سنة ٤٣٥ هـ (٦) .

وهكذا سكن طليطلة العرب من قبائل عديدة وكان للعنصر العربى فى طليطلة رغم قلة عدده مكانة وقدرا .

وكان البربر من العناصر التى سكنت طليطلة عقب الفتح الاسلامى (٧) ادراكا منهم لأهمية طليطلة حتى أنهم وجهوا اليها أكبر الجيوش الثلاثة التى كونوها لمحاربة العرب ابان الفتنة الأندلسية الأولى فى عصر الولاة ،

---

(١) ابن بشكوال : الصلة جـ ١ ترجمة ٥٤٠ .
(٢) الحميدى : جذوة المقتبس ص ٢٩٨ / ٦٧٨ وعياض ، المصدر السابق جـ ٤ ص ١٠٧ .
(٣) ابن بشكوال : المصدر السابق ، جـ ٢ ترجمة ١٢٣٢ .
(٤) نفس المصدر ، جـ ٢ ترجمة ١٥٠٤ .
(٥) نفس المصدر ، جـ ٢ ترجمة ١٥٢٠ .
(٦) نفس المصدر ، جـ ٢ ترجمة ١٤٩٨ .
(٧) اليعقوبى : كتاب البلدان ، ص ٣٥٥ .

لكن هزيمة البربر فى وادى سليط أدت الى نزوحهم عن شمال الأندلس على وجه العموم فقل عددهم فى طليطلة قلة ملحوظة بل كان أهل طليطلة على عداء مع جماعات البربر القريبة منهم مثل بربر طلبيرة وبربر حصن سكتان حتى أنه مما يثير الدهشة توجه أهل طليطلة الى ابن ذى النون البربرى الهوارى طالبين منه حكم مدينتهم • لكنه من الملاحظ أن حكم بنى ذى النون لطليطلة نحو ثمانية عقود من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى لم يؤد الى زيادة ملحوظة فى أعداد البربر فى مدينة طليطلة •

وكان من عناصر السكان فى طليطلة فى عصرها الاسلامى أهلها الأصليون من الأسبان الذين لم يفروا منها أمام الفاتحين المسلمين بل مالبث الفارون منهم أن عادوا الى المدينة على نحو أو آخر بعدما تبين لهم عدل المسلمين وتسامحهم • وقد نال أهل طليطلة من الفاتحين المسلمين معاملة حسنة ، اذ سمح لهم بحرية ممارسة شعائرهم الدينية وترك لهم الفاتحون المسلمون كنائسهم لم يمسوها بأذى ، فيما عدا كنيسة القديسة مريم مقر المطرانية الطليطلية وقت الفتح والتى فرعنها مطرانها الى روما رافضا التعايش مع الحكم الاسلامى مما يعطى للاستيلاء على تلك الكنيسة بعدا سياسيا ، وقد سمح الفاتحون المسلمون لأهل طليطلة أن ينقلوا مقر المطرانية الى كنيسة القديسة مريم أم النور وأن ينقلوا اليها وثائق المطرانية وذخائرها (١) وخلت طليطلة • طيله عصرها الاسلامى عامرة بالكنائس (٢) التى لم تمتد اليها أيدى المسلمين بأذى ، وكانت أكبرها حينذاك كنيسة جميع القديسين oninuim Sanctorum ، وظلت الأديرة فى أرباض المدينة قائمة على ما كانت عليه قبـل الفتح لم تمتد اليها يد بأذى • وبلغ تسامح المسلمين مع نصارى طليطلة أن سمحوا لهم بقرع نواقيسهم فى حرية تامة (٣) وليس هناك على الاطلاق ما يدل على أن نصـارى طليطلة قد أضيروا أو أصابهم شىء من الأذى من جراء الحروب التى نشبت بين الفاتحين المسلمين بعضهم وبعض ابان الفتنة الأندلسية الأولى فى عصر الولاة • وجدير بالملاحظة أن طليطلة مقر المطرانية والتى تعقـد

(١) حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٥٠٥ •
(٢) Livi Proiercal; Hist. de l'Esp. Musul. Vol. III P. 224.
(٣) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ١٣١ •

باسمها المجالس الكنسية لم يحدث بها صدى كبير لما سمى فى قرطبة بحركة الاستشهاد فى عهد عبد الرحمن الأوسط الأموى مما يدل على أن نصارى طليطلة لم يكن لديهم ما يشكون منه من حيث معاملة المسلمين لهم .

ولم يقتصر ما تمتع به أهل طليطلة فى ظل الحكم الاسلامى على الحرية الدينية بل تمتعوا أيضا بشىء من الحرية السياسية ، اذ أقام الفاتحون المسلمون عقب الفتح واحدا من بيت غيطشه يدعى أبه oppa حاكما أو مطرانا على طليطلة خلفا لسندريدو الهارب الى روما ، لكن أهل طليطلة لم يقبلوا أبه مطرانا لمدينتهم ونصبوا بدلا منه مطرانا آخر يدعى أوربانو Urbano فلم يعترض الحكم الاسلامى على ما أقدم عليه أهل طليطلة (١) لكنه المسلمين نصبوا مطرانا فى قرطبة جعلوا له الرئاسة على الكنيسة الأسبانية كلها ليكون تحت ملاحظة الحكم الاسلامى وتحت وصايته السياسية ، فأصبحت قرطبة مركزا لمطران بلا مطرانية لكنه الرئيس الرسمى للكنيسة الأسبانية بينما ظلت مطرانية طليطلة مركزا اسميا وتعقد باسمها المجالس الكنسية (٢) .

وعلى الرغم من تقلص النفوذ السياسى لمطرانية طليطلة نتيجة انتقال السلطة الكنسية الرسمية منها الى قرطبة فانها لم تفقد مكانتها الدينية ولا تأثيرها فى نفوس رعاياها خاصة بعد أن تولى رئاستها مطران ذائع الصيت فى الحوليات النطرانية يدعى سيفليا Civilia اشتهر بأنه كان حبرا ضليعا وباهتمامه بالمحافظة على الكاثوليكية وعنايته بتعمير ما وهى من كنائس ، ولذلك مدحه النصارى كثيرا فى قصائدهم (٣) .

لم يلبث أهل طليطلة أن دخلوا فى الاسلام زرافات ، ولا شك أن اسلام أهل طليطلة قاعدة النصرانية فى شبه الجزيرة الأيبرية ظاهرة تستحق الدراسة . ويمكن القول بأن أهل طليطلة قد دخلوا الاسلام طواعية (٤)

---

(١) يذكر ابن القوطية : المصدر السابق صص ٤ — ٥ انه عين مطرانا بينما يذكر دوزى (Spanish Islam P. 233). انه عين حاكما «appointed governer of Toledo»

(٢) عبادة كحيلة : المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

(٣) Simonet; op. cit., P. 207.

(٤) شكيب أرسلان : المرجع السابق ، ط ص ٣٦٤ .

دون اكراه أو ضغوط من قبل الحكم الاسلامى ، ويعترف ليفى بروفنسال بأن الفاتحين المسلمين أظهروا تسامحا عظيما نحو سكان طليطلة (١) ، وقد كان هذا التسامح ــ فيما يبدو ــ من أشد العوامل فعالية فى استمالة أهل طليطلة الى الاسلام ، وساعد على تحقيق ذلك جهود كثير من الفقهاء والعلماء ممن قدموا الى طليطلة أو من ينتمون اليها وبذلوا الجهد فى نشر الاسلام فى طليطلة وتفقيه أهلها فيه • وقد أدى انتشار الاسلام بين أهل طليطلة الأصليين أن انقسموا الى فريقين ــ كما هو الحال فى بقيـة الأندلس ــ أحدهما يطلق عليه اسم المسالمة وهم الذين دخلوا فى الاسلام والآخر هم من ظلوا على نصرانيتهم وكانوا يسمون العجم أو المعاهدين •

والى جانب انتشار الاسلام فى طليطلة فقد نشطت فيها حركة للتعريب لم تقتصر على مسالمة طليطلة وانما امتدت الى عجمها الذين صاروا يعرفون بالمستعربين وظلوا يشكلون قسما ملحوظا من سكان طليطلة فى عصرها الاســـلامى (٢) • وكـــان هـــؤلاء المســـتعربون Mozarabes رغم احتفاظهم بنصرانيتهم قد تعربوا لسانا وحضارة بل استبدلوا اسماءهم الأسبانية بأسماء عربية خالصة وكان من بينهم بعض كبار رجال الكنيسة مثل عبيد الله بن قاسم مطران طليطلة فى عصر عبد الرحمن الناصر • واذا كان ألفارو القرطبى قد صرخ شاكيا من شيوع الاســتعراب بين عجم الأندلس ، فقد كان أهل طليطلة خاصة من أشدهم استعرابا حتى أنهم تمسكوا باستعرابهم واحتفظوا به وقتا طويلا بعد سقوط مدينتهم فى أيدى نصارى الأسبان ، وتدل الصكوك والوثائق التى جمعها جونزاليز بالنثيا على أنهم ظلوا يحتفظون به حتى القرن الثالث عشر الميلادى •

وكان من عناصر السكان فى طليطلة فى عصرها الاسلامى المولدون • الذين لايزال أصلهم مثار اختلاف بين المؤرخين ، ففريق يرى أنهم نتاج التزاوج بين الفاتحين المسلمين وأمهات أسبانيات وتبعوا آباءهم فى اعتناق الاسلام ، وفريق آخر يرى أنهم انحدروا عن مسالمة الأسبان الذين أسلموا لأول الفتح ، وأغلب الظن أن المولدين كانوا مسلمى الجيل اللاحق على الفتح الاسلامى ممن تجرى فى عروقهم دماء أسبانية سواء كانت هـذه

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة طليطلة •

(٢) Glick T. ; op. cit., P. 176 & Proverçal; op. cit. III, P, 215

الدماء أسبانية خالصة باعتبارهم من أبناء المسالمة أو نصف أسبانية باعتبارهم من آباء من الفاتحين المسلمين وأمهات أسبانيات ، وقد ادى ذلك الى كثرة المولدين فى الأندلس ليصبحوا منذ عصر الأمارة الأموية الغالبية من سكان الأندلس عامة وسكان طليطلة خاصــة ، يقول ابن فضــل الله العمرى عن طليطلة « وبها خلايق من المولدين كلمتهم متفقة على العصيان » (١) وهذا مادعا الحكم بن هشام الى مداهنتهم بتوليته عليهم عمروس بن يوسف الوشقى المولد باعتباره من جنسهم وحرص على أن ينص على ذلك فى خطاب توليته فكتب لهم « وليت عليكم عمروس بن يوسف وهو رجل مولد من جنساكم » (٢) .

وفضلا عن ذلك فقد كان اليهود من عناصر السكان فى طليطلة فى عصرها الاسلامى ، اذ وجد طارق بن زياد أعدادا منهم فى عاصمة القوط حين فتحه اياها ونظرا لعدائهم حينذاك للحكم القوطى بسبب ما أصابهم على يديه من أذى فقد ضمهم طارق بن زياد الى الحامية التى تركهـا فى طليطلة وقت خروجه عنها لملاحقة سندريدو والفارين معه جهة الشرق . وليس هناك ما يدل على أن يهود طليطلة قد نالهم شىء من الأذى على أيدى المسلمين بل كانوا يعيشون فى الأندلس فى ظل الحكم الاسلامى أزهى عصورهم ، وتظهر الصكوك والوثائق التى جمعها آنخل جنثالث بالنثيا أن اليهود كانت لهم فى طليطلة — حتى بعد سقوطها فى أيدى نصارى الأسبان — مكانة اجتماعية مرموقة .

هكذا كانت عناصر السكان فى طليطلة فى عصرها الاسلامى ، وواقع الأمر أن هذه العناصر اختلطت ببعضها البعض اختلاطا يكاد يصل الى درجة الامتزاج ، ففيما عدا ملحمة العراس التى حدثت سنة ٢١٩ هـ — والتى لا نعرف شيئا عن تفاصيلها — لم تحدث بينهم فتنة طائفية .

واذا كانت قد وقعت بعض المنافسات بين زعماء أهل طليطلة فان هــذه المنافسات السياسية لا تدل على تفسخ المجتمع الطليطلى .

---

(١) مسالك الأبصار ، السفر الثانى ، ص ٢٨ .
(٢) نفس المصدر ، السفر الثانى ، ص ٢٩ .

اقتصـــاد طليطلة :

حظيت طليطلة فى عصرها الاســلامى باقتصـــاد زاهر تعددت فيـــه الموارد وتنوعت ما بين زراعة ورعى وتعدين وصناعة •

فالزراعة فى طليطلة كانت على درجة ملحوظة من الازدهار فى العصر الاسلامى اذ كثرت مزارعها وبساتينها وأينعت جناتها وأنتجت فواكه « عديمة المثل لا يحيط بها تكييف ولا تحصيل » (١) • ويمكننا أن نرجع ازدهار الزراعة الطليطلية الى عدة عوامل منها :

١ ــ وجود بسيط فسيح من الأرض الزراعية حول طليطلة كان يمتد فى جهة واحدة منه ــ على سبيل المثال ــ مسافة خمس ساعات بين طليطلة والمورة وهى مسافة كانت كلها مفروشة بالعنب عن اليمين وعن الشمال مقدار مد البصر (٢) ، وقد ضم هذا البسيط المحيط بطليطلة قرى كثيرة مثل قرية شلنكس Chalencas (٣) ومنزل مشكة (٤) وقرية دار الخازن (٥) وقرية مغام (٦) وغيرها • وقد أشاد أبو الفـــدا بخصب طليطلة واحداق الأشجار بها من كل جهة (٧) •

٢ ــ خبرة أهل طليطلة بفنون الرى ، فقد عرفوا النواعير والقواديس والقنوات التى يجرى فيها الماء الى البساتين المحدقة بالمدينة (٨) كذلك

---

(١) الادريسى : المصدر السابق ، ص ١٨٨ والعمرى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٧ والحميرى : المصدر السابق ، مادة طليطلة •
(٢) ابن عثمان المكناسى : المصدر السابق ، ص ص ١٥٠ ــ ١٥١ •
(٣) شكيب ارسلان : المرجع السابق ، ص ٣٦٧ •
(٤) نفس المرجع ، ص ص ٣٧٠ ــ ٣٧١ •
(٥) تقويم البلدان ، ص ١٧٧ •
(٦) شكيب ارسلان : المرجع السابق ص ٤١٢ •
(٧) الحميرى : المصدر السابق ، مادة طليطلة •
(٨) Thomas Glick; op. cit. PP. 74-75.

كان بطليطلة دواليب (١) تمد مزارع طليطلة بما تحتاج اليه من ميـاه الرى • وكانت النواعير ترفع الماء من مجرى نهر التاجه وكان بعضها عالى الارتفاع حتى أن الناعورة التى كانت عند القنطرة بلغ ارتفاعها فى الجو تسعون ذراعا مما مكنها من رفع ماء التاجه الى أعلى القنطرة ليجرى الماء على ظهرها فى قناة حتى يدخل المدينة (٢) •

ومن الملاحظ أن نظام الرى فى طليطلة كان أكثر تقـدما فى عصرها الاسلامى عنه بعد استيلاء نصارى الأسبان على المدينة • فقد شـاهد ابن عثمان المكناسى ما اعتقد أنه آثار ماء مجلوب الى طليطلة من عدوة الوادى الأخرى من عين ماء غاية فى العذوبة وقد عبر هذا الماء الى المدينة فى قناة تجرى على ظهر القنطرة (٣) وسواء صح ما اعتقده المكناسى عن عين ماء فى العدوة الأخرى أو كانت القناة التى تجرى على ظهر القنطرة ذات صلة بالناعورة التى أشارت اليها المصادر الاسلامية ، فمن الواضح أن هذا المجرى المائى كان موجودا فى العصر الاسلامى وأنه قد تخرب بعد استيلاء نصارى الأسبان على المدينة • وشـاهد المكناسى أيضـا « قوادس من الحديد فى غاية الطول مثل المدافع ملصق بعضـها ببعض موضوعة على جدار ممتد من أعلا المدينة الى أسفل المدينة وضعا محكما أراد بعض المهندسين أن يطلع الماء فيها الى المدينة بحركات وذلك فى علو مفرط فلم يتم له ذلك » (٤) • وسواء كانت هذه القواديس بقـايا نظام اسلامى للرى تخرب على أيدى نصارى الأسبان وتعطل حين شاهده المكناسى أو أنها جزء من نظام للرى فشل نصارى الأسبان فى اتمامه ، فان مقارنة هذه القواديس بالناعورة التى أقامها المسلمون والتى بلغ ارتفاعها تسعون ذراعا توضح الى أى مدى كان تقدم نظام الرى فى طليطلة فى عصرها الاسلامى عنه بعد استيلاء نصارى الأسبان عليهـا • ولعله مما يدعم رأينا أن نعرف من خلال الوثائق التى جمعها بالنثيا أن

---

(١) الادريسى : المصدر السابق ص ١٨٨ .
والعمرى : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٧ .
(٢) نفس المصدرين ، نفس الصفحات .
(٣) الاكسير فى افتكاك الاسير ، ص ١٤٩ .
(٤) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

ناعورة قرية دار الخازن من قرى الحاضرة طليطلة كانت معطلة بعد استيلاء نصارى الأسبان على طلطيلة (١) .

٣ ـ وكان من عوامل تقدم الزراعة الطليطلية فى العصر الاسلامى توفر الخبرة الزراعية عند فلاحى طليطلة وتدعيم هذه الخبرة بما كانوا يتعلمونه من علماء الفلاحة الأندلسية مثل ابن بصال الطليطلى الذى أجرى تجارب عديدة على كثير من النباتات واستنبط الكثير من طرق الفلاحة فى بستان تجريبى ابان عصر بنى ذى النون فى طليطلة ، وقد كانت تجارب ابن بصال الطيطلى هذه واحدة من المصادر الأساسية التى اعتمد عليها ابن العوام الاشبيلى فى تأليف كتابه الضخم عن « الفلاحة الأندلسية » ، ويبدو أن أهل طليطلة قد استفادوا من علم الفلاحة فى استنباط وتحسين زراعاتهم ، اذ يذكر أبو الفدا أن الجلنار كان عندهم فى قدر الرمانة وأن الشجرة لديهم يكون فيها أنواع من الثمر (٢) .

على أى حال ، تقدمت الزراعة فى طليطلة فى عصرها الاسلامى تقدما كثيرا نتج عنه وفرة فى المحاصيل الزراعية التى كان أهل طليطلة يحسنون تخزينها حتى أنه كان يضرب المثل بغلالها فى التخزين والحفظ لسنين طويلة دون أن يصيبها التسوس (٣) . وتتفق المصادر الاسلامية على الاشادة بنعم طليطلة وزروعها ووفرة ثمارها « وسعة ربوعها من الطعام وفضيلة تواترها على الأيام « (٤) .

كانت الغلال من أهم المحاصيل الزراعية فى طليطلة ، لكن كان أهم ما تتميز به طليطلة من محاصيل هو الزعفران (٥) الذى « يعم البلاد ويتجهز به الى الآفاق وكذلك الصبغ السماوى » (٦) . وكانت تزرع

---

(١) شكيب ارسلان : المرجع السابق جـ ١ ص ٤١٢ .
(٢) تقويم البلدان ، ص ١٧٧ .
(٣) الحميرى : المصدر السابق ، مادة طليطلة والزهرى : الجغرافية ، ص ٨٣ وياقوت الحموى : معجم البلدان ، مادة طليطلة .
(٤) ابن حيان : المقتبس ، جـ ٥ ص ٢١٤ وابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٠٣ والادريسى : المصدر السابق ص ٢٧ والعمرى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٢٧ .
(٥) ابن حيان : المقتبس ، جـ ٥ ص ٢١٤ وياقوت الحموى : المصدر السابق مادة طليطلة .
(٦) الحميرى : المصدر السابق ، مادة طليطلة .

بطليطلة أصناف من الفاكهة كثيرة خاصة العنب والتين الذى كانت تزرع منه صنفين أحدهما أخضر والآخر أبيض وكان تينها فى نهاية الحلاوة على حد تعبير ابن سعيد الأندلسى (١) .

وفضلا عن الزراعة ، كانت طليطلة فى عصرها الاسلامى غنية بمراعيها الخضراء وثروتها الحيوانية الوفيرة التى كانت تضم من الغنم والبقر الشىء الكثير فيفيض عن حاجتها ويتجهز به الجلابون الى سائر البلاد ولا يوجد منها شىء مهزولا البته بل هى فى غاية السمن يضرب بها المثل فى ذلك بجميع بلدان الأندلس (٢) .

أما معادن طليطلة ، فقد كانت عديدة ، يوجد فى جبالها الحديد والنحاس (٣) وكان بقرية مغام من أعمال طليطلة على مرحلة منها معدن الطفل الأندلسى (٤) ويسميه بعض الجغرافيين المسلمين الطين المأكول ويصفونه بأنه لذيذ الأكل ويستخدم فى تنظيف الشعر ويذكرون أنه كان يصدر منها الى مصر والشام والعراق وبلاد الترك (٥) .

وقد اشتهرت طليطلة بعدد من الصناعات خاصة صناعة السيوف التى كان يضرب بها المثل فى العصر الاسلامى ، وكان بها أيضا صناعة نسج الحرير والصوف (٦) وكانت بها صناعات لمواد البناء مثل القراميد والتى نعرف من الوثائق التى جمعها بالنثيا بأن مضربة القراميد كانت خارج طليطلة عند القرية المعروفة بمنزل مشكة (٧) وصناعة الفخار التى ظلت حتى بعد

---

(١) المغرب فى حلى المغرب ، ج ٢ ص ٩ .

(٢) الادريسى : المصدر السابق ، ص ١٨٨ والحميرى : المصدر السابق ، مادة طليطلة وابن فضل الله العمرى : المصدر السابق ، السفر الثانى ص ٢٨ .

(٣) الادريسى : المصدر السابق ، ص ١٨٨ .
وابن فضل الله العمرى : المصدر السابق ، السفر الثانى ص ٢٨ .

(٤) ابن حوقل صورة الارض ، ص ١١١ .

(٥) الادريسى ، المصدر السابق ص ١٨٨ والحميرى : المصدر السابق ، مادة طليطلة والعمرى : ج ٢ ص ٢٨ .

(٦) أرسلان : المرجع السابق ج ١ ص ٤٤٠ .

(٧) نفس المرجع ، ج ١ ص ٣٧٠ .

سقوط المدينة فى أيدى نصارى الأسبان بأيدى أهل الحرفة من الصناع المسلمين اذ كان أمين الفخارين فى سنة ١١٧٣ م يدعى ابن طورنيو المسلم (١) • وفى اعتقادنا أن المعلومات التى وصلت الينا عن الصناعة الطليطلية قليلة جدا اذا أخذ فى الاعتبار ما وصل الينا من وصف للمبانى الذنونية والمجالس التى شيدها المأمون ابن ذى النون والتى تدل على تقدم ورقى كبير فى الصناعات الخشبية والزجاجية وفن العمارة مما يعكس مدى رقى الصناعات الطليطلية التى تظهر اجمالا فى مظهر جند طليطلة الذين قدموا الى قرطبة ووصفه ابن حيان بأنه الزى الجميل ، قد لبسوا الأقنية البيض وتقلدوا السيوف الافرنجية وبأيديهم التراس الملونة والرماح المسنونة الأسنة » (٢) •

الحيـاة الفكـرية :

على الرغم من تدنى المكانة السياسية لطليطلة فى عصرها الاسلامى وجنوح أهلها الى التمرد وكثرة ثوراتهم على حكومة قرطبة المركزية مما استنفذ كثيرا من طاقاتهم • وعلى الرغم من أنها لم تكن من المناطق الرئيسية لتمركز العنصر العربى فى الأندلس وكثرة المعاهدين بها — غير المسلمين — فقد أسهمت طليطلة فى الحركة الفكرية من الحضارة الأندلسية اسهاما بارزا وكانت مركزا علميا هاما فى الأندلس تنوعت اهتماماته العلمية وذخر بجلة من العلماء النابهين الذين كانت لهم اسهامات فى علوم شتى نقلية وعقلية •

لقد شارك أهل طليطلة فى الحركة العلمية الأندلسية منذ بواكيرها وكان منهم عدد ممن التقى مالك بن أنس من أهل الأندلس يأتى فى مقدمتهم — على الأرجح — أبو عثمان سعيد بن أبى هند الذى عاش فى عصر الولاة ورحل الى المشرق ولقى امام دار الهجرة وسمع منه ونال تقديره حتى لقبه مالك بن أنس بحكيم الأندلس ، ولما عاد أبو عثمان الى الأندلس تولى قضاء بلدته طليطلة زمنا ثم تحول عنها الى قرطبة فسكنها حتى توفى فى صدر أيام الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل (٣) •

---

(١) أرسلان : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣٧٥ •

(٢) المقتبس ، تحقيق عبد الرحمن الحجى ، ص ١١٧ •

(٣) ابن الفرضى : تاريخ علماء الاندلس جـ ١ ص ١٥٩/٤٩٩ •
وعياض : ترتيب المدارك ، جـ ٣ ص ص ١٢٣ — ١٢٤ •

وتوالى توافد عدد من الطليطليين على امام دار الهجرة كان منهم سعيد بن عبدوس المعروف بالجدى — مصغرا — ، سمع من مالك الموطأ وعاد الى الأندلس فتولى قضاء طليطلة وكان فقيهها ومفتيها فى وقته وعظمت مكانته فيها حتى أنه أجار يحيى بن يحيى الليثى حين فراره من قرطبة فى محنة أهل ربض قرطبة بعد هيجهم المشور ، فحمى ابن عبدوس يحى بن يحى حتى أمنه الحكم الربضى وعفا عنه . كما كان سعيد بن عبدوس هو الذى سعى فى اصلاح ما بين أهل طليطلة وبين الحكم الربضى حتى تم بينهم السلم على يديه ، وقد اشتهر ابن عبدوس بالفقه ووفد اليه بطليطلة من أخذوا عنه ، كان من أبرزهم محمد بن وضاح بن بزيغ (١) .

وكان ممن التقى مالك من أهل طليطلة أبو هند عبد الرحمن ابن أبى هند الأصبحى الذى روى عن مالك وروى عنه مالك وتوفى بطليطلة بعد سنة ٢٠٠ هـ (٢) .

وكان ممن التقى مالك من أهل طليطلة أيضا زياد بن عبد الله المعروف بشبطون الذى كان أول من أدخل الموطأ الى الأندلس ، وقد تولى شبطون قضاء طليطلة وكانت وفاته سنة ٢١٢ هـ (٣) .

وكان ممن التقى مالك من أهل طليطلة أيضا عيسى بن دينار بن واقد الغافقى فقيه أهل الأندلس قاطبة ، كان أفقه من يحى بن يحى الليثى ، سمع من مالك لكنه صحب ابن القاسم المصرى — أكبر تلاميذ مالك — وعول عليه ثم انصرف الى الأندلس فدارت الفتيا عليه لم يتقدمه أحد فى وقته وهو الذى علم أهل الأندلس المسائل وألف فى فقه المالكية كتاب الهداية » الذى أشاد به ابن حزم ورأى أنه أفضل مؤلف فى بابه . وقد سكن عيسى بن دينار بلده طليطلة أول وصوله من المشرق فمال

---

(١) ابن الفرض ، المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٦٠ — ٤٧١ .
وعياض ، المصدر السابق ، جـ ٣ ص ١١٣ .

(٢) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٢٧٩ — ٦٢٠ .
ويترجم له ابن الفرضى (جـ ١ ص ٢٥٦ — ٧٧٥) لكنه يشير الى وجود خلط بين كل من عبد الرحمن بن أبى هند وسعيد بن أبى هند فلا يدرى أهما رجلان مختلفان ام رجل واحد اختلف فى اسمه .

(٣) ابن الفرضى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٩٩ — ٥٩٨ .

الناس اليه حتى حسده كل من عاملها وقاضيها حينذاك فكادا له عند الأمير حتى سجن بقرطبه نحو عام ، ثم سكن عيسى قرطبة زمنا لكنه ما لبث أن عاد الى بلده طليطلة وظل مقيما بها حتى توفى بها سنة ٢١٢(١)

غرس هؤلاء الطليطليون ممن لقوا مالك بذور الحركة العلمية فى طليطلة ، وأخذت تلك الحركة فى التنامى منذ أوائل القرن الثالث الهجرى نتيجة لعدة عوامل منها :

١ — كثرة رحيل طلاب العلم الطليطليين الى المشرق وتلقيهم العلم عن مشاهير علماء أوقاتهم فى افريقية ومصر والحجاز ، ودخل بعضهم الشام والعراق فجمعوا من هاتيك الأمصار علما وفيرا ومتنوعا .

٢ — وفود كثير من العلماء الى طليطلة سواء من علماء المدن الأندلسية الأخرى مثل قرطبة وغيرها أو من علماء الأمصار الاسلامية المشارقة الذين قدموا الى الاندلس ودخلوا طليطلة .

٣ — وكان لقيام دويلة مستقلة فى طليطلة فى عصر الطوائف على يد بنى ذى النون أثره فى الحركة العلمية بخاصة والحياة الفكرية بعامة فى هذه المدينة المتميزة ، فلا شك أن بنى ذى النون شجعوا العلوم والفنون وكانت للشعر فى عهدهم سوق رائجة .

نتيجة لتلك العوامل نشطت الحركة العلمية فى طليطلة فى عصرها الاسلامى وتنوعت الاهتمامات العلمية لعلمائها فاشتغلوا بعلوم شتى .

كان الفقه من العلوم التى حظيت دراستها بقسط وافر من اهتمام أهل طليطلة على نحو لافت للنظر ، ولعل اهتمام أهل طليطلة بالفقه لا يرجع فقط الى كثرة من تتلمذ على مالك من علمائها الأوائل على نحو ما أشرنا من قبل وانما يرجع أيضا الى أن الظروف السياسية والاجتماعية لطليطلة كانت تثير أمام أهلها الكثير من المسائل التى تستوجب الفتيا فأدى ذلك الى اشتغال كثرة من علمائها بالفقه والعناية به فنشأت فى طليطلة ما يستحق تسميته بمدرسة فقهية قد لا نعرف

---

(١) ابن الفرضى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٣٣١ — ٩٧٢ والحميدى : المصدر السابق ص ٢٩٨ — ٦٧٨ وعياض : المصدر السابق ، جـ ٤ ص ١٠٧ .

الموضوعات التى تناولتها — يقينا — ولكننا نعرف الكثير من علمائها الذين توالت أجيالهم فحفظت لمدرسة طليطلة الفقهية استمراريتها •

بدأت عناية أهل طليطلة بالفقه بداية قوية على يد تلاميذ مالك الذين أشرنا اليهم خاصة زياد شبطون أول من أدخل الموطأ الى الأندلس وعيسى ابن دينار الذى علم أهل الأندلس علم المسائل (الفقه) ، وقد تتلمذ على عيسى بن دينار عدد من كبار فقهاء الجيل التالى منهم — على سبيل المثال — الصديقان يحى بن حجاج ويحى بن القصير وحزم بن غالب الرعينى وأحمد بن وليد بن عبد الخالق وغيرهم • وتتلمذ عدد من فقهاء هذا الجيل على فقيه القيروان سحنون بن سعيد منهم — على سبيل المثال — هشام بن حبيش وحزم بن غالب الرعينى وسعيد بن عياض وغـيرهم •

وتوالت أجيال الفقهاء الطليطليين ويبرز من بينهم بعض الأعلام مثل وسيم بن سعدون الذى تتلمذ عليه عدد كبير من فقهاء طليطلة مثل محمد ابن عيشون الذى كان حافظا للمسائل وله مختصر فى الفقه وعلى بن عيسى ابن عبيد الذى كان له مختصر فى المسائل أخذه الناس عنه وانتفعوا به • وجاءت من بعد ذلك أجيال من الفقهاء الطليطليين ذاع ذكر نفر منهم ليس فى الأندلس وحدها بل وفى المشرق أيضـا مثل ابن صاعد الطليطلى وابن الحديدى الذى قيل عنه ان أهل المشرق أعجبوا به وقالوا أنه لم يمر بهم أحد مثله •

وعنى أهل طليطلة بدراسة الحديث ، وكان منهم من أخذ عن بقى ابن مخلد مثل أبو زكريا يحى بن محمد بن زكريا بن قطام ، لكن التأثير الواضح فى اهتمام أهل طليطلة بدراسة الحديث كان فيما يبدو لمحمد بن وضاح بن بزيغ الذى وفد اليه فى قرطبة عدد كبير من الطليطليين مثل زكريا بن اسماعيل بن عبد الرحمن وزكريا بن عيسى بن عبد الواحد وعمران بن محمد بن معبد وأبو يوسف هارون بن سـلمان الرعينى وغيرهم ، وما لبث ابن وضاح أن قدم بنفسه الى طليطلة فزاد تأثيره فى أهلها وتتلمذ عليه الكثير منهم •

تزايدت عناية أهل طليطلة بالحديث وتوالت فيها أجيال من المحدثين لعله كان من أبرزهم — على سبيل المثال — أبو عبد الله محمد بن عمرو ابن سعيد بن عيشون الأزدى الذى رحل الى المشرق فلقى بمكة أبا سعيد

الأعرابى وسمع منه سماعا كثيرا ومن غيره وحدث فى الأندلس بمصنف أبى داود ، وتوفى سنة ٣٨٢ هـ • وأبو محمد عبد الرحمن بن عباس بن جوشن الأنصارى صاحب الصلاة والخطبة بجامع طليطلة ، عنى بالرواية والجمع لها والاكثار منها فكان واحد عصره فيها وكانت الرحلة فى وقته اليه ، وكانت الرواية أغلب عليه من الدراية وكان ثقة فيها صدوقا فيما رواه منها ، توفى سنة ٤٣٨ هـ • وأبو عمر أحمد بن محمد بن مغيث الصدفى الذى جلب من المشرق كتبا صحاحا وكان يحفظ صحيح البخارى ويعرف رجاله ويحضر الشورى فيذكر الحديث كثيرا ، توفى سنة ٤٥٩ هـ • وأبو جعفر أحمد بن مغيث بن أحمد بن مغيث الصدفى الذى كان من أهل الرياسة فى العلم ، عالما بالحديث وعلله وتوفى أيضا سنة ٤٥٩ هـ •

غير أن أشهر رجال الحديث من أهل طليطلة وأهمهم الصاحبين : ابا اسحاق بن شنطير وأبا جعفر بن ميمون اللذان ذاع صيتهما فى الأندلس كافة وكانت اليهما الرحلة فى وقتهما وتتلمذ عليهما كثير من الأندلسيين عامة والطليطليين خاصة ليس فى الحديث وحـده وانما فى كثير من العلوم الدينية •

وعنى أهل طليطلة عناية ملحوظة بالقراءات وتوالت منهم أجيال ممن اشتهروا بالقراءة كان من أوائلهم عبد الله بن مسعود الطليطلى الذى كانت له رحلة الى المشرق أخذ فيها عن سحنون بن سعيد بالقيروان وأصبغ بن الفرج بمصر ، وكان عبد الله محمد بن سعد البكرى الخطيب ، يعرف بابن الأعرج كان بصيرا بالقراءة وكانت له رحلة الى المشرق • وسليمان بن مسرور الذى كان اماما فى علم القراءات لكنه رحل الى المشرق واستوطن مصر وتوفى بها •

وتوالت أجيال من قراء طليطلة كان من أبرزهم — على سبيل المثال — أبو حديدة فيرة بن خلف بن فيرة اليحصبى ، الذى كان من أهل المعرفة بالقراءات حسن الصوت بقراءة القرآن وقد تولى الصلاة والخطبة بجامع طليطلة وقد أشـار عليه القاضى ابن يعيش بأن يغير كنيته لكنـه أبى تغييرها • وأبو الربيع سليمان بن ابراهيم التجيبى ، سمع من أبى عبد الله ابن سفيان المقرىء كتاب « الهادى فى القراءات السبع » من تأليفـه وكان محسنا للقراءات مع الفضل والصلاح • وأغلب بن عبد الله المقرىء ، أخذ القراءة عن اسماعيل بن عبد الله النحاس وعن محمد بن سـعيد الأنماطى وضبط عنهما قراءة نافع رواية ورش • وأبو سهل بن سليم بن نجدة

الفهرى المقرىء ، روى عن أبى عمرو المقرىء وغيره وأقرأ الناس القرآن الى آن توفى بطليطلة وقد استمر قراء طليطلة فى العطاء بعد سقوط مدينتهم فى أيدى نصارى الأسبان ، اذ نزح الكثير منهم عن طليطلة الى المدن الأندلسية الأخرى وأكملوا فيها رسالتهم من العناية بالقراءة وتعليم الناس اياها مثل أبو عبد الله محمد بن عيسى بن فرج التجيبى المغامى المقرىء الذى كان عالما بالقراءات ووجوهها ضابطا لها اماما فيها وصف بالتجويد ، وقد نزح الى اشبيلية وتوفى بها لكنه حبس كتبه على طلبة العلم الذين بالعدوة . وأبى الحسن على بن محمد بن درى المقرىء الذى نزح الى غرناطة وتولى الخطبة بجامعها وقد روى عن أبى عبد الله المغامى وغيره ، وكان مقرئا فاضلا ضابطا .

وظهرت فى طليطلة فى عصرها الاسلامى نزعة الى الزهد وميل قوى اليه وربما كانت ظروف المدينة السياسية والأمنية دافعا الى تلك النزعة الزهدية كما أنه لا يمكن انكار تأثر أهل طليطلة بمن زهد أبيهم من الزهاد خاصة محمد بن وضاح بن بزيع الذى كان علامة بارزة فى الزهد فى الأندلس وقد أخذ عنه كثير منهم — على سبيل المثال — محمد ابن فيره الذى أخذ عن محمد بن وضاح وغلب عليه القرآن والزهد وتوفى سنة ٢٠٥ هـ . وسليمان بن هارون الرعينى الذى سمع من ابن وضاح وكان زاهدا عابدا توفى سنة ٢٩٧ هـ . ومحمد بن عثمان ابن عباس المعروف بابن ارفع رأسه لم تكن له رحلة ولكنه أخذ عن محمد بن وضاح ونظرائه وغلب عليه الزهد وتوفى سنة ٣٠٢ هـ ووسيم ابن سعدون وغيره .

وتوالى بعد ذلك الزهاد من أهل طليطلة ممن وصفوا بالورع والزهد (١) والانقباض عن الناس والعبادة واشتهر منهم كثيرون منهم — على سبيل المثال — أبو نصر فتح بن أصبغ الذى كان ورعا عابدا مشهور الفضل مجاب الدعوة ، وأبو نصر بن بطال الذى كان أيضا فاضلا زاهدا مجاب الدعوة . وعبدوس بن محمد بن عبدوس الذى كان زاهدا ثقة متجولا بين طليطلة وطلبيرة . وأبو عمر أحمد بن يحى بن حارث الأموى الذى كان يميل الى الحديث والزهد والرقائق وكان له مجلس فى الجامع يعظ الناس فيه . والصاحبان أبو اسحاق بن شنظير وأبو جعفر ابن ميمون ، وقد ورث أبو اسحاق نزعة الزهد عن أبيه الذى كان هو

(١) انظر كتابينا عن الزهاد والمتصوفة فى بلاد المغرب والأندلس .

الآخر زاهدا منقبضا عن الناس • وأبو عبد الله محمـد بن ابراهيم ابن اسماعيل المعروف بابن المشكيالى الذى كان عينا من أعيان طليطلة وكان له ورع وزهد وتواضع وتقلل من الدنيا لا تأخذه فى الله لومه لائم قصده المظفر عبد الملك بن أبى عامر أثر صلاة جمعة وكان ابن المشكيالى بداره يسمع عليه فيها فأمر طلبة العلم ألا يقوموا حين استأذن المظفر فى الدخول عليه • وعبد الله بن عبد الرحمن بن ذنين الصدفى الذى كان من أهل الحديث والزهد ، تقرأ عليه كتب الزهد والرقائق وكان يعظ الناس بها ويذكرهم وكان الناس يرحلون اليه لسعة روايته وفضله • وأبو الوليد هشام بن محمد بن سليمان بن هلال القيسى السائح أخذ عن زهاد طليطلة ورحل الى المشرق ، كان زاهدا فاضلا متنسكا متبتلا منقطعا عن الدنيا صواما قواما يرابط فى رمضان فى حصن الفهمين ويلبس خشن الثياب • وأبو محمد تمام بين عفيف الصدفى الواعظ الزاهد أخذ عن عبدوس بن محمد وعن الصـاحبين ابن شـنطير وابن ميمون وشهر بالزهد والورع ، وغير هؤلاء كثير •

هكذا كانت طليطلة تذخر بحركة علمية دينية نشيطة ، لكن الحياة الفكرية فيها كان لها جوانب أخرى كالأدب والشعر وعلم اللغة والتى نالت هى الأخرى عناية أهل طليطلة واهتمامهم وبرع فيها الكثير منهم • أما العلوم العقلية والطبيعية فقد كان فيها لعلماء طليطلة اسهام ملحوظ ومنهم من يعد من الأعلام المعدودين فى هذا المجال شرقا وغربيا •

كان أبو محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن القشارى فقيها لكنه كان أيضا شاعرا أديبا وكان أبو بكر يحى بن عبد الله بن ثابت الفهرى نحويا حافظا للعربية فصيح اللسان شاعرا ، وكان أبو بكر يحى بن محمد ابن يحى الأموى صـاحب أدب وشـعر وبلاغه وحسن الخط ، وكان أبو الربيع سليمان بن محمد المعروف بابن الشيخ خطاطا بارع الخط فى المصاحف ، وكان أبو عمر يوسف بن عمر الجهنى عالما بالفرائض والآداب والفلك ، طالع النجوم واستبحر فى ذلك • وكان أبو القاسم محبوب بن محبوب الخشنى من أعلم أهل زمانه باللغة العربية ، وكان أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن أشج الفهمى متفننا فى العلوم بصـيرا باللغة والحساب • وكان أبو عمر أحمد بن يحى بن سميق مشاركا فى عدة علوم ، نظر فى الطب وطالع منه كثيرا وعنى به • وكان جودى ابن عثمان نحويا التقى بكبار نحاة المشرق كالكسائى والرؤاسى والفراء ، وكان أول من أدخل كتاب الكسائى الى الأندلس •

وربما كان النموذج الأمثل للحياة الفكرية فى طليطلة بما تشتمل عليه من علوم متنوعة دينية ولغوية وطبيعيةوبما تتصف به من خصب وثراء متمثلا فى أبى الوليد هشام بن أحمد الكنانى المعروف بالوقشى الذى وصف بأنه كان أحد رجال الكمال فى وقته باحتوائه على متون المعارف وجمعه لكليات العلوم ، كان من أعلم الناس بالنحو واللغة والشعر والعروض والبلاغة حافظا للتراجم بصيرا بأصول الاعتقادات نافذا فى علم الشروط والفرائض متحقق بعلم الحساب والهندسة مشرف على جميع آراء الحكماء ، حسن النقد للمذاهب بصير بكل جوانب الفكر والمعرفة حتى قيل فيه :

وكان من العلوم بحيث يقضى   له فى كل علم بالجميع

وقد نزح الوقشى بعد سقوط طليطلة الى دانية وتوفى بها فى سنة ٤٨٩ هـ (١) .

وكان من علماء طليطلة أبو جعفر أحمد بن خميس بن دمج ، عنى بالهندسة والفلك والطب وله مشاركة فى علوم اللسان وفى الشعر (٢) وأبو اسحاق ابن ابراهيم بن لبر بن ادريس التجيبى المعروف بالقويدس ، أصله من قلعة أيوب واستوطن طليطلة وتأدب بها وبرع فى علم العدد والهندسة والفرائض وقعد للتعليم بذلك زمنيا وكان له بصر بعلم هيئة الأفلاك وحركات النجوم وتقدم فى علم العربية ، توفى سنة ٤٥٤ هـ (٣) . وأبو الحسن على بن خلف الصيدلانى ، تميز بطلب الفلسفة وفهمها وبرع فى الهندسة (٤) .

ومن أشهر علماء طليطلة أبو اسحاق ابراهيم بن يحى النقاش المعروف بابن الزرقيال أو الزرقالى ، وصفه صاعد بأنه « أبصر أهل زماننا بأرصاد الكواكب وهيئة أفلاكها وحساب حركاتها وأعلمهم بعلل الأزياج واستنباط الآلات النجومية (٥) قيل انه لما سمع بذكر الطلسم الذى عند قبة أرين

---

(١) صاعد : طبقات الاثم ، ص ١٧٨ وبالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسى ص ١٦ .
(٢) صاعد : المصدر السابق ، ص ص ١٧٨ / ١٧٩ .
(٣) نفس المصدر ، ص ١٧٩ .
(٤) نفس المصدر ، ص ١٨٠ .
(٥) نفس المصدر ، ص ١٨١ وبالنثيا : المرجع السابق ، ص ١٦ . واسمه عند الزهرى أبو القاسم بن عبد الرحمن .

فى بلاد الهند والذى ذكر المسعودى أنه يدور اصبعه من مطلع الشمس الى مغربها صنع بيلتين » وهما خارج طليطلة فى بيت مجوف فى جوف النهر الأعظم فى موضع باب الدباغين . ومن عجائب هاتين البيلتين أنهما تملآن وتحسران مع زيادة القمر ونقصانه وذلك أنه اذا كان فى الوقت الذى يرى فيه الهلال يخرج فيهما شىء من الماء فاذا كان فى آخر النهار انكمل فيه نصف سبع فلا يزال كذلك يزيد بين اليوم والليلة نصف سبع حتى تنكمل سبعة أيام وسبعة ليال فيكون فيها نصفها ثم يزيد كذلك نصف سبع فى كل ليلة ويوم حتى اذا كان فى الشهر أربعة عشر يوما وأربع عشرة ليلة فيكمل امتلاؤهما بكمال القمر فاذا بدأ القمــر فى النقصان نقصتا لنقصان القمر فى كل يوم وليلة بمثل ما كان يزيد حتى اذا كان فى الشهر تسعة وعشرون يوما لا يبقى فيهما شىء من الماء . واذا تكلف أحد حين يكون فيهما الماء دون امتلاء وجلب اليهما الماء وملاهما بلعتا ذلك الماء حتى لا يبقى فيهما شىء الا ما كان فيهما فهذا ماء داخل وماء خارج . وكذلك ان تكلف أحد عند امتلائهما أن يفرغ ماءهما حتى لا يبقى فيهما شىء ثم أزاح بيده عنهما خرج فيهما من الماء ما يملأهما فى ساعة . فهذا هو العجب العجاب .... وكانت هاتان البيلتان فى بيت واحد فلما اتصل خبرهما بملك طليطلة الأدفونش أراد أن يبحث عن حركاتها ، فأمر أن تقلع الواحدة لينظر من حيث يأتى اليهما الماء وكيف حركته . فلما اقتلعها انبطلت حركة الواحدة وكان قلعها وفسادها فى عام ثمانية وعشرين وخمسمائة وكان سبب فسادها حنين بن ربوة اليهودى المنجم ... فأراد اليهودى أن يكشف عن حركاتها فقال أنا أقلعها وأردها كما كانت وأحسن .. فلما قلعها لم يقدر على ردها وانما أراد أن يسرق من صنعتها » (١) .

وكان منهم أبو عثمان سعيد بن محمد بن البغونش ، رحل الى قرطبة لطلب العلم بها فأخذ عن مسلمه بن أحمد المرجيط (المجريطى) علم العدد والهندسة وعن محمــد بن عبدون الجيلى وسليمان بن جلجل ومحمد بن الشناعة ونظرائهم على الطب ثم انصرف الى طليطلة واتصل بها بأميرها الظافر اسماعيل بن عبد الرحمن بن اسماعيل بن ذى النون وحظى عنده وكان أحد مدبرى دولته لكنه ترك قراءة العلوم فى صدر دولة

---

(١) الزهرى : الجغرافية ، ص ص ٨٣ — ٨٥ .

المأمون بن ذى النون وأقبل على قراءة القرآن ولزوم داره والانقباض عن الناس بعد أن اشتغل بالفلسفة والمنطق والهندسة وجمع كتب جالينوس وصححها وتوفى سنة ٤٤٤ هـ عن خمس وسبعين سنة (١) .

وأبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحى بن واقد ابن محمد اللخمى أحد أشراف أهل الأندلس . عنى عناية بالغة بقراءة كتب جالينوس وتفهمها ومطالعة كتب أرسطو طاليس وغيره من الفلاسفة وتميز بعلم الأدوية المفردة حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد فى عصره وألف منها كتابا جليلا لا نظير له . وله فى الطب منزع لطيف وذلك أنه كان لا يرى التداوى بالأدوية ما أمكن التداوى بالاغذية أو ما كان قريبا منها فاذا دعت الضرورة الى الأدوية فلا يرى التداوى بمركبها ما وصل الى التداوى بمفردها فان اضطر الى المركب منها لم يكثر التركيب بل اقتصر على أقل ما يمكنه منه (٢) .

وأبو بكر يحيى بن أحمد المعروف بابن الخياط ، كان أحد تلاميذ أبى القاسم مسلمه بن أحمد المرجيط فى علم العدد والهندسة ثم مال الى الفلك فبرع فيه واشتهر به وخدم به سليمان المستعين ثم التحق بخدمة بنى ذى النون بطليطلة وكان معنيا الى جانب ذلك بالطب دقيق العلاج وكان حصيفا حليما دقيقا حسن السيرة كريم المذاهب وتوفى بطليطلة سنة ٤٤٧ هـ عنه نحو ثمانين سنة (٣) .

وكان منهم محمد التميمى الطليطلى ، ألف كتابا فى الطب شرح فيه تشخيص الأمراض وأعراضها ، وكانت طريقته فى تعليم الطب عن طريق الممارسة (٤) .

واذا كنا قد ذكرنا بعض جوانب الحيــاة الفكرية فلعله مما يزيد الصورة وضوحا أن نتتبع — بايجاز — تراجم علماء طليطلة ورجالات الفكر

---

(١) صاعد : المصدر السابق ، ص ١٩٤ وبالنثيا : المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٢) صاعد : المصدر السابق ، ص ص ١٩٥ — ١٩٦ .
وبالنثيا : المرجع السابق ، ص ص ٤٦٧ — ٤٦٨ .

(٣) صاعد : المصدر السابق ، ص ١٩٩ .

(٤) بالنثيا : المرجع السابق ، ص ٤٦٧ .

فيها ممن وردت الينا تراجمهم وأن يكون هذا التتبع من خلال تتابع زمنى من قرن لآخر قدر الطاقة وبقدر ما تتيحه لنا المصادر .

يأتى فى مقدمة علماء طليطلة — أو الطبقة الأولى منهم — من التقى مالك بن أنس امام دار الهجرة وأخذ عنه وقد أشرنا الى أن هؤلاء كانوا عدة نفر منهم أبو عثمان سعيد بن أبى هند المتوفى فى صدر أيام عبد الرحمن الداخل . وسعيد بن عبدوس وأبو هند عبد الرحمن بن أبى هند المتوفى سنة ٢٠٠ هـ ثم زياد شبطون وعيسى بن دينار وقد توفيا سنة ٢١٢ هـ (١) .

وجاءت بعد هذا الجيل الأول أجيال متوالية من علماء طليطلة فى شتى العلوم فكان منهم هشام بن حبيش الذى سمع من ابن القاسم وأشهب بن عبد العزيز ، وكان صاحب رأى ومسائل من أهل الفتيا والاسماع بصيرا بالاعراب ، توفى سنة ٢٢٠ (٢) . ومنهم أبو زكريا يحى بن مزين مولى رملة بنت عثمان بن عفان الذى انتقل عن طليطلة حين ثار أهلها فسكن قرطبة وأقطعة فيها الأمير عبد الرحمن قطائع شريفة (٣) . ومنهم وليد بن عبد الخالق بن عبد الجبار بن قيس كان قاضيا فقيها توفى سنة ٢٢٥ هـ فى امارة عبد الرحمن بن الحكم (٤) ومنهم يحى بن حجاج سمع من يحى بن يحى الليثى وعيسى بن دينار ورحل فسمع عن سحنون بن سعيد وعون بن يوسف الخزاعى ونظرائهما من مشيخة القيروان واستشهد فى صائفة سنة ٢٦٣ هـ وصاحبه يحى ابن القصير كان قرينه فى الشجاعة والفضل والعمل مواظبا مثله على الجهاد وشارك فى صائفة سنة ٢٦٣ هـ الا أنه لم ينل الشهادة الا فى صائفة سنة ٢٦٤ هـ (٥) . ومنهم أبو محمد محمد بن عبد الواحد ، رحل

(١) ابن الفرضى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ١٧٤ / ١٥٤٢ والحميدى : جذوة المقبس ص ٣٦٤ — ٨٦٥ .
(٢) ابن الفرضى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ١٦١ / ١٥٠٥ .
(٣) عياض : المصدر السابق ، جـ ٤ ص ٢٣٨ .
(٤) نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٢٤٠ وابن الفرضى : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٨٢ — ١٥٦٠ .
(٥) ابن الفرضى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ١٨١ / ١٥٦٢ . وعياض : المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٧١ .

فسمع من سحنون بن سعيد ، وكانت وفاته سنة ٢٦٤ هـ (١) وحزم بن غالب الرعينى سمع من عيسى بن دينار ثم رحل فلقى سحنون بن سعيد ونظر أنه من مشيخة القيروان ولما عاد الى بلده كان يستفتى بها وتولى صلاتها وأحكام القضاء فيها (٢) . وأبو عثمان سعيد بن عياض ، رحل الى المشرق فسمع من سحنون بن سعيد ومن غيره (٣) وعبد الجبار بن محمد بن عمران ، سمع من سحنون بن سعيد ونظرانه وكان من أهل الرواية والفتيا والعلم والورع والعبادة (٤) وأبو محمد سعيد بن عفان سمع من سحنون بن سعيد ، وكان من أهل الفقه والفتيا والمسائل (٥) وأبو حفقى عمر بن زيد بن عبد الرحمن ، سمع من سجنون بن سعيد ، وكان صاحب رواية وفقه ، مفتيا بموضعه (٦) وعبد الله بن مسعود ، رحل فسمع من سحنون بن سعيد ومن أصبغ بن القرج ، وكان عالما بالقراءات يغلب عليه العبادة والزهد (٧) . وأحمد بن وليد بن عبد الخالق من نسل قتيبة بن مسلم الباهلى ، كان أبوه وليد بن عبد الخالق عاملا على طليطلة وتولى هو القضاء والفتيا فيها ، كان محدثا ، سمع من يحى بن يحى الليثى وعيسى بن دينار ورحل فسمع من سحنون بن سعيد ، كان من بيت جلالة وفقه فهو قاض ابن قاضى ابن قاضى ابن قاضى ، تولى جميعهم قضاء طليطلة على نسق (٨) . وأبو يحى زكريا بن قطام ، رحل فلقى سحنون بن سعيد وغيره ، وكان من أهل الرواية والفقه والفتياوولى قضاء طليطلة وصلاتها ، ومات قاضيا (٩) .

---

(١) ابن الفرضى : المصدر السابق ، جـ ٢٢ ص ٢ / ١١٠٨ . وعياض : المصدر السابق ، جـ ٤ ص ٢٧٢ .

(٢) ابن الفرضى : المصدر السابق جـ ١ ص ١١٧ / ٢٦١ وعياض ، المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٧١ .

(٣) ابن الفرضى : المصدر السابق جـ ١ ص ١٦٢ / ٤٧٩ وعياض ، المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٧١ .

(٤) عياض : المصدر السابق ، جـ ٤ ص ٢٧٢ .

(٥) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٦) نفس المصدر ، نفس الصفحة وابن الفرضى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٣٢٠ — ٩٤٢ .

(٧) ابن الفرضى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢١٥ / ٦٤٣ .

(٨) عياض : المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٧٣ والحميدى : المصدر السابق ص ١٤٨ — ٢٥٣ .

(٩) ابن الفرضى : المصدر السابق جـ ١ ص ١٥٠ / ٤٤٨ وعياض : المصدر السابق ، جـ ٤ ص ٢٧٢ .

وكان منهم أبو اسحاق ابراهيم بن بزون ، سمع من يحى بن ابراهيم ابن مزين ونظرائه ، وكان مفتيا فى وقته ، توفى سنة ٢٧٥ هـ (١) • ومحمد بن زكريا بن قطام ورث العلم عن أبيه وبلغ فيه شأوا بعيدا ، توفى سنة ٢٧٦ هـ (٢) • وأبو عمر يوسف بن يحى الأزدى المغامى — نسبة الى مغام احدى قرى طليطلة — اختص بعبد الملك بن حبيب السلمى وهو صاحبه المشهور به ويقال انه كان صهره ، وقد روى عنه كتابه الكبير المسمى بالواضحة ، توفى فيما قيل بالقيروان سنة ٢٨٣ هـ (٣) •

وكان منهم زكريا بن اسماعيل بن عبد الرحمن سمع من محمد بن وضاح بن بزيغ ونظرائه من مشيخة قرطبة ، كان صالح الحال توفى سنة ٢٨٨ هـ (٤) • وعبد الله بن علقمة ، كان حافظا للمسائل خيرا ، توفى أيضا سنة ٢٨٨ هـ (٥) •

وكان منهم أبو زكريا يحى بن محمد بن زكريا بن قطام ، ورث العلم عن أبيه عن جده ، وسمع من بقى بن مخلد كثيرا ومن غيره لكنه لم تكن له رحلة ، تولى قضاء طليطلة وصلاتها وظل عليهما حتى نقم عليه بعض الولاة شيئا فقتله سنة ٢٩٣ هـ فى ليلة السبت لثمان خلون من شوال ، ويقال انه قتل معه فى تلك الليلة من فقهاء طليطلة محمد بن اسماعيل وايوب بن سليمان (٦) ولكننا لا ندرى سبب قتلهم • وكان أيوب بن سليمان المقتول مع أبى زكريا بن قطام من فقهاء طليطلة المعدودين (٧) •

وكان منهم زكريا بن عيسى بن عبد الواحد كانت له رحلة عنى فيها بجلب العلم ، وقد سمع من محمد بن وضاح ومن الخشنى ونظرائهما وتوفى سنة ٢٩٤ هـ (٨) • وأبو سليمان وهب بن عيسى الأنصارى ،

---

(١) ابن الفرضى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٥ / ٢٤ ، وعياض : المصدر السابق جـ ٤ ص ٤٥٩ •
(٢) ابن الفرضى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ١٠ / ١١١٦ •
(٣) الحميدى : المصدر السابق ص ٣٧٣ — ٨٧٩ •
(٤) ابن الفرضى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٤٩ / ٤٤٢ •
(٥) نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢١٨ — ٦٥٤ •
(٦) عياض : المصدر السابق ، جـ ٥ ص ٢٣٢ وابن الفرضى ، جـ ٢ ص ١٨٤ — ١٥٦٩ •
(٧) ابن الفرضى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٨٦ / ٢٦٨ •
(٨) نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٤٩ — ٤٤٣ •

يعرف بابن اشبانقة ، سمع من محمد بن وضاح وكثير غيره ، اعتنى بالحديث والرأى ، وكان فقيها محمود الحال صالحا حدث عنه أهل بلده وتوفى سنة ٣٤٢ هـ (١) . وفرج بن عبد الله المعروف بالخراسانى كان موصوفا بالعلم معروفا به ، توفى سنة ٢٩٥ هـ (٢) .

وكان منهم أبو محمد وسيم بن سعدون أحد أعلام علماء طليطلة ، سمع بقرطبة من محمد بن وضاح ومن غيره ، كانت له رحلة خرج فيها مع أحمد بن خالد وابن جحدر وعمران بن محمد بن معبد فسمع بمكة وبمصر . كان من أهل العلم واليقين والفضل والدين والزهد والعبادة والورع ، وكان فقيه طليطلة ومفيتها فى وقته ، بيته بطليطلة بيت علم ، حدث عنه ابنه . وأبو ابراهيم الطليطلى وغيرهما ، وتتلمذ عليه كثير من أهل طليطلة (٣) .

ومنهم عمران بن محمد بن معبد ، سمع من محمد بن وضاح وغيره بقرطبة ، ورحل الى المشرق صحبة وسيم بن سعدون ورفاقه فسمع معهم من على بن عبد العزيز وغيره من المكيين والمصريين والقرويين ، لكنه توفى بمكة سنة ٢٩٥ هـ (٤) .

وأبو يوسف سليمان بن هارون الرعينى سمع من ابن وضاح ونظرائه ، كان زاهدا عابدا توفى سنة ٢٩٧ هـ (٥) .

وصاف بن عيشون روى عن محمد بن وضاح وروى عنه ابنه عيشون (٦) . ومنهم عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم . روى عن يحيى بن ابراهيم مزين ونظرائه ، كان صاحب فتيا ، توفى قريبا من سنة ٣٠٠ هـ (٧) .

---

(١) ابن الفرضى : المصدر السابق ج ٢ ص ١٦٥ / ١٥١٧ ، وعياض : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٣١ .
(٢) ابن الفرضى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٤٩ / ١٠٣٣ وعياض : المصدر السابق ج ٤ ص ٤٦١ .
(٣) ابن الفرضى : المصدر السابق ج ٢ ص ١٦٧ / ١٥٢٥ وعياض : ونفس المصدر ، ج ٥ ص ٢٢١ .
(٤) ابن الفرضى : المصدر السابق ج ١ ص ٣٢٧ / ٩٦٦ .
(٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٨٥ / ٥٥٢ .
(٦) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٠٢ / ٦٠٦ .
(٧) ابن الفرضى ، المصدر السابق ج ١ ص ٢٩١ / ٨٦٣ .

وكان منهم وهب بن حزم بن غالب ، كان أبوه حزم بن غالب من علماء طليطلة ، رحل وهب الى المشرق صحبة قاسم بن أحمد بن جحدر وكليب بن محمد ودخل العراق ثم سكن الشام حتى توفى فى بعض ثغورها (١) .

ومنهم محمد بن زيد الخراز ، سمع من يحيى بن ابراهيم بن مزين ، كان فاضلا متدينا صاحب مسائل وفتيا (٢) . وأبو جعفر كليب بن محمد ابن عبد الكريم رفيق وهب بن حزم فى رحلته لكنه لزم مكة دهرا ثم رحل الى مصر فاستوطنها الى أن توفى بها سنة ٣٠٠ هـ .

ومنهم زقنون بن عبد الواحد ، سمع من يحيى بن ابراهيم بن مزين ونظرائه من مشيخه بلده ، كان صاحب فقه ومسائل ولم تكن له رحلة ، توفى قريبا من سنة ٣٠٠ هـ (٣) . ومنهم سهل المعروف بالفخار ، كان حافظا للمسائل توفى سنة ٣٠٠ هـ (٤) وجابر بن نادر ، روى عن يحيى ابن ابراهيم بن مزين ونظرائه من أهل بلده وكان صاحب فتيا ومسائل (٥) . وزكريا بن هلال التجيبى كانت له عناية بالعلم ومشاركة لأصحابه فى الرواية والفقه ، غلبت عليه العبادة وكان يشار اليه بأنه مستجاب الدعوة ، توفى سنة ٣٠٢ هـ (٦) . ومنهم محمد بن عثمان بن عباس المعروف بابن ارفع رأسه ، سمع من محمد بن وضاح وابن القزاز ونظرائهما وغلب عليه الزهد توفى سنة ٣٠٢ (٧) .

وكان منهم اسحاق بن ابراهيم بن ذوناب ، كان محدثا بصيرا بالمسائل ولى قضاء طليطلة ومات فيها مقتولا سنة ٣٠٣ هـ (٨) . ومنهم سعيد بن أبى متارون ، سمع من محمد بن وضاح وابن القزاز وغيرهما ،

---

(١) ابن الفرضى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ١٦٤ / ١٥١٧ .
(٢) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٣٩ / ١٢٠٣ .
(٣) عياض : المصدر السابق ، جـ ٥ ص ٢٣١ .
(٤) ابن الفرضى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٥٨ / ٤٦٨ .
(٥) نفس المصدر ، ١ ص ١٩١ / ٥٧٤ .
(٦) نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٠٢ / ٣١٦ .
(٧) نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٥٠ / ٤٤٨ .
(٨) ابن الفرضى : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٢٨ ، وعياض : المصدر السابق جـ ٥ ص ٢٣٢ .

كان خيرا عفيفا ، توفى سنة ٣٠٣ هـ (١) واسماعيل ابن أميمة ، كان سماعه من محمد بن فيره ونظرائه من مشيخة طليطلة وقرطبة ، توفى سنة ٣٠٣ هـ (٢) أما محمد بن فيره فقد سمع من قاسم بن محمد بن طملس وابن القزاز والخشنى ومحمد بن وضاح ونظرائهم وغلب عليه القرآن والزهد وكان يقرأ عليه وكان معمرا توفى سنة ٣٠٥ هـ (٣) .

وكان منهم محمد بن ميمون ، روى عن مشيخة الأندلس وكان صاحب فتيا ، توفى سنة ٣٠٥ (٤) . وأبو محمد قاسم بن أحمد بن جحدر الذى رحل الى المشرق صحبة وسيم بن سعدون وأحمد بن خالد الجباب وكان سماعهم واحد بمكة وبمصر ، ورحل هو وأحمد بن خالد الى صنعاء فسمعا بها على أبى يعقوب الدرى وعبيد بن محمد القشورى وغيرهما من رجال صنعاء ثم انصرف ابن جحدر الى الأندلس سنة ٣١١ هـ (٥) .

ومنهم داود بن هذيل بن منان ، رحل حاجا فسمع بمكة وبمصر من أحمد بن عمر البزاز وأحمد بن شعيب النسائى ثم دحل بغداد فجمع الاختلاف وانصرف الى الأندلس فنزل طليطلة فلم يرضها وانكر عليه فيها ما جاء به من الاختلاف فتحول عنها الى قرطبة وسكن الرصافة (٦) .

وكان منهم أبو الحسن على بن عيسى بن عبيد ، روى بقرطبة عن عبيد الله بن يحيى بن يحيى الليثى وسعيد بن عثمان وأحمد بن خالد ونظرائهم ، وسمع بطليطلة من وسيم بن سعدون . كان فقيها عالما له مختصر فى المسائل أخذه الناس عنه وانتفعوا به (٧) . ومنهم أبو اسحاق ابراهيم بن يحيى بن بزون ، سمع من أحمد بن خالد ومحمد بن عبد الملك ابن أيمن وقاسم بن أصبغ ، ولى أحكام القضاء بطليطلة وغيرها وحدث

(١) ابن الفرضى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٦٣ / ٤٨٥ .
(٢) نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٦٥ / ٢١١ .
(٣) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ١٣ / ١١٣١ .
(٤) نفس المصدر ، ٢٧ ص ١١٦٩/٢٨ .
(٥) نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٠٥٩/٣٥٩ .
(٦) نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٤٤ / ٤٢٨ .
وعياض ، المصدر السابق ، جـ ٥ ص ٢٣٠ .
(٧) ابن الفرضى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٣١٣ / ٩٢٣ .

عنه بموضعه وبقرطبة ، توفى بقرطبة ودفن بمقبرة فريش (١) .

ومنهم أبو محمد عمران بن عثمان بن يونس بن محمد ، سمع بالأندلس ورحل الى المشرق فسمع من على بن عبد العزيز وغيره . كان رجلا صالحا ثقة حدث عنه اسحاق بن ابراهيم الطليطلى وغيره وتوفى سنة ٣١٧ هـ (٢) .

ومنهم عبد الله بن سعيد ، كان مفتيا بطليطلة ، توفى سنة ٣١٧ هـ (٣) ومحمد بن أحمد بن حزم ، من ولد محمد بن سلمه الأنصارى صاحب النبى (ص) ، سمع بقرطبة من محمد بن عمر بن لبابه وأحمد بن خالد ومن نظرائهما من مشيخة طليطلة ، وكان مفتيا ببلده وتوفى سنة ٣٢٠ هـ (٤) .

ومنهم عبد الله بن وهب ، كانت له رحله سمع فيها بمكة من على ابن عبد العزيز ومن عبد الله بن أبى مسرة ، سكن مكة أحد عشر عاما وأكثر من الرواية عن رجالها وعن المصريين موالفا لمن يقدم على مكة من أفاق بلاد المسلمين من طلاب العلم والعباد حتى كا نلا يشك أنه أعلى من يدخل الأندلس من أهلها فقدم الى الأندلس لكنه ما لبث أن مال الى الدنيا فأمسك الناس عن الأخذ عنه لذلك حتى توفى سنة ٣٣١ هـ (٥) .

ومنهم شعيب بن أبى شعيب كان من أهل النظر فى الفقه واللغة ، له رحلة حج فيها وتوفى سنة ٣٣٨ هـ (٦) . ومنهم أبو عبد الله أحمد ابن وهبه بن خليل بن عبد الجبار قرطبى ولى أحكام القضاء بطليطلة من قبل الناصر لدين الله الأموى فظل قاضيا بها الى أن توفى فى الطاعون سنة ٣٣٨ هـ (٧) .

---

(١) ابن الفرضى : المصدر السابق .
(٢) نفس المصدر ، جـ ١ ص ٣٢٧ / ٩٦٧ .
(٣) نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٢٣ / ٦٦٩ .
(٤) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٤٢ / ١٢٠٧ وعياض والمصدر السابق ، جـ ٥ ص ٢٣٠ .
(٥) ابن الفرضى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٢١ / ٦٦٢ .
(٦) نفس المصدر : جـ ١ ص ١٩٦ / ٥٩١ .
(٧) نفس المصدر : جـ ١ ، ص ٣٥ / ١١٠ .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تمام ، سمع من وهب بن عيسى ووهب بن مسرة ، رحل الى المشرق مع أخيه تمام بن عبد الله فسمع بمكة ودخل بيت المقدس فتوفى بها سنة ٣٤١ هـ (١) .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عيشون ، كان فقيها حافظا للمسائل وله مختصر فى الفقه وكتاب فى توجيه حديث الموطأ ، سمع بطليطلة من وسيم بن مسعدون ووهب بن عيسى وسمع بقرطبة من مشيختها ورحل الى المشرق فسمع به وروى موطأ أبى المصعب فلما عاد الى الأندلس ترأس بالعلم وشهر به وحمل عنه وتوفى بطليطلة فى صفر سنة ٣٤١ هـ (٢) . وأبو عبد الله محمد بن حيون بن عمران الأنصارى ، رحل الى المشرق فسمع بمكة من ابن الاعرابى وغيره وسمع بمصر من عبد الله بن جعفر ابن الورد وتوفى بطرابلس حين منصرفه من المشرق فى سنة ٣٤٦ هـ (٣) . ومنهم أبو بكر محمد بن وسيم بن عمر ، كان أعمى البصر ، سمع بقرطبة من أحمد بن خالد ومن غيره ، وسمع بطليطلة من أبيه ومن غيره ، كان بصيرا بالحديث حافظا للفقه ذا حظ من علم اللغة والنحو والشعر ، وكان شاعرا وصالحا ، توفى سنة ٢٣٥ هـ (٤) . ومنهم محمد بن سيميون ابن قريش الأنصارى ، كان فقيها حافظا للمسائل سمع من وسيم بن سعدون ونظرائه روى عن غير واحد توفى سنة ٣٥٨ هـ (٥) .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن رياح بن صاعد ، روى عن وهب بن عيسى ووهب بن مسرة وحدث عنه عبدوس بن محمد ، توفى سنة ٣٥٨ هـ (٦) . وعبد الرحمن بن عيسى بن مدراج سمع بقرطبة من أحمد بن خالد ومن غيره . وسمع بطليطلة من وهب بن عيسى ومن غيره ، وسمع بالبيرة من عثمان بن جرير ورحل بعد الأربعين فسمع بمكة وبمصر وامتحن فى منصرفه بالسلب ، وكان ورعا فاضلا زاهدا توفى بطليطلة سنة ٣٦٣ هـ (٧) .

---

(١) ابن الفرضى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٦١ / ١٢٦٠ .
(٢) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٦٤ / ١٢٧٦ .
(٣) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٦١ / ١٢٦١ .
(٤) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٦٦ / ١٢٨٥ .
(٥) نفس المصدر ، جـ ١ ص ٧٢ / ٢٣٥ .
والحميدى : المصدر السابق ، ص ١٦٨ / ٣٠٥ .
(٦) ابن الفرضى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٦٨ / ١٢٩ .
(٧) نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٦٣ / ٧٩٧ .

ومنهم أبو نصر فتح بن محمد الأنصارى يعرف بابن القطيلى ، رحل الى المشرق فسمع بمصر وسمع منه الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر ، وتوفى سنة ٣٦٤ هـ (١) .

ومنهم محمد بن عمرو بن سعيد بن عيشون الأزدى ، سمع بطليطلة وبقرطبة من جماعة من الشيوخ ورحل الى المشرق فلقى أبا سعيد الأعرابى فسمع منه سماعا كثيرا ومن غيره ، حدث بمصنف أبى داود ، وتوفى سنة ٣٧٠ هـ (٢) .

ومنهم أبو نصر فتح بن أصبغ يعرف بابن تاكلة ، كان عالما ذكيا متفننا وكان ورعا عابدا مشهورا بالفضل مجاب الدعوة توفى سنة ٣٧١ هـ (٣) . ومنهم أبو نصر فتح بن بطال كان فاضلا زاهدا مجاب الدعوة منسوبا الى العلم ، كان هو الذى صلى على أبى نصر فتح بن أصبغ حين وفاته (٤) .

ومنهم عبد الله بن مطر سمع من رجال بلده مثل عمر بن زيد ومحمد ابن زيد الخراز وكان ورعا حافظا للرأى مفتيا فى موضعه (٥) ومحمد ابن ابراهيم المعروف بابن المؤذن ، سمع أيضا من عمن بن زيد ومحمد ابن زيد الخراز وسعيد بن عياض ونظرائهم (٦) .

وكان منهم أبو الفرج عبد الله بن عبد الحارث بن منتيل كان حافظا للمسائل فقيها ، كان يستخلفه القاضى محمد بن يحيى بن عبد العزيز أيام قضائه بطليطلة ، توفى فى رمضان سنة ٣٧٣ هـ (٧) . ومنهم أبو حفص عمن بن حفص بن عمر المؤدب ، حدث عنه الصاحبان ابن شنظير وابن ميمون ، توفى سنة ٣٧٣ هـ (٨) .

---

(١) ابن الفرضى : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٣٥٣ / ١٠٤٣ .
(٢) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٨١ / ١٣٢٩ .
(٣) نفس المصدر ، جـ ١ ص ٣٤٨ / ١٠٢٨ .
(٤) نفس المصدر ، جـ ١ ص ٣٤٨ / ١٠٢٩ .
(٥) نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٢٣ / ٦٦٧ .
(٦) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٣٥ / ١١٩٠ .
(٧) ابن الفرضى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٣٧ / ٧٣٠ .
(٨) ابن بشكوال ، الصلة فى تاريخ أئمة الاندلس ، جـ ٢ ص ٨٤٥ .

ومنهم أبو عبد الحميد شكور بن حبيب الهاشمى روى عن على بن عيسى مختصره وعن محمد بن عبد الله بن عيشون الفقيه مختصره وتوفى فى ذى الحجة سنة ٣٧٥ هـ (١) .

ومنهم أبو عبد الرحمن معاوية بن منتيل بن معاوية ، رحل الى المشرق فحج وسمع بمكة من أبى بكر الآجرى ومن غيره ، حدث عنه الصاحبان وقالا أنه توفى سنة ٣٧٥ هـ (٢) .

ومنهم أبو محمد عبد الله بن فتح بن فرج بن معروف التجيبى سمع من وهب بن مسرة الحجارى ووهب بن عيسى الطليطلى ورحل الى المشرق فسمع بمصر من جماعة منهم ابن الورد وابن السكرى وغيرهم . حدث وتوفى فى شعبان سنة ٣٧٦ هـ (٣) .

ومنهم عبد السلام بن وليد بن زيدون الصدفى ، كان فقيها حافظا للمسائل ، تولى قضاء طليطلة ، توفى سنة ٣٧٦ هـ (٤) . ومنهم أبو غالب تمام بن عبد الله بن تمام المعافرى ، سمع من وهب بن عيسى ووهب ابن مسرة الحجارى ورحل حاجا فسمع بمكة ودخل الشام فسمع بها كثيرا ، وكتب عنه ، توفى سنة ٣٧٧ هـ (٥) . وأبو عمر خلف بن صالح ابن عمران بن صالح التميمى ، حدث عن عبد الرحمن بن عيسى وعن غيره ، حدث عنه الصاحبان ابن شنطير وابن ميمون وقالا توفى سنة ٣٧٨ هـ (٦) .

وكان منهم أبو المطرف عبد الرحمن بن تمام رحل الى المشرق فسمع بمكة وبمصر وكان فقيها حافظا للمسائل ، توفى سنة ٣٧٩ هـ (٧) . وأبو بكر خلف بن اسحاق ، روى عن أبى القاسم اسحاق بن أحمد الزبيدى المكى ، حدث عنه الصاحبان وقالا توفى سنة ٣٨١ هـ (٨) .

---

(١) ابن الفرضى : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٩ / ٦٠١ .
(٢) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦١٤ / ١٣٤٣ .
(٣) ابن الفرضى : المصدر السابق ج ١ ص ٢٣٨ / ٧٣٣ .
(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٨٧ / ٨٥٥ .
عياض : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٣٦٠ .
(٥) ابن الفرضى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٩٨ / ٣٠٥ .
(٦) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١٠ ص ٣٥٦ .
(٧) ابن الفرضى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٥ / ٨٠٧ .
(٨) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٥٧ .

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن حسين بن شـنطير بن عبد الله الأموى والد الزاهد أبى اسحاق بن شنطير ، روى بطليطلة ولزم الانقباض عن الناس الى أن توفى سنة ٣٨١ هـ (١) • وأبو اسحاق ابراهيم بن اسحاق الأموى المعروف بابن أبى زرد ، كان خيرا فاضلا عابدا وكان حافظا للتفسير ، له رحلة الى المشرق سمع فيها وشهد حين مروره بالقيروان جنازة العابد القروى المشهور أبى اسحاق السبائى (٢) •

وكان منهم أبو على الحسين بن أبى العافية الجنجيالى ، قـدم طليطلة مرابطا وكان شيخا صالحا حدث عنه الصاحبان وكانت وفاته سنة ٣٨٣ هـ (٣) • وأبو عبد الله محمد بن سعد البكرى الخطيب يعرف بابن الأعرج ، كان بصيرا بالقراءة ، له رحلة الى المشرق سمع فيها من أبى محمد بن الورد وابن السكن وغيرهما ، حدث وكتب عنه وتوفى سنة ٣٨٤ هـ (٤) • وأبو عمر يوسف بن عبد الملك روى عن وهب بن مسـ ة الحجارى وغيره ، توفى سنة ٣٨٧ هـ (٥) • وأبو جعفر أحمد بن سهل ابن محسن الأنصارى المقرىء ويعرف بابن الحداد ، له رحلة الى المشرق ، توفى سنة ٣٨٩ هـ (٦) •

وكان منهم أبو الفرج عبدوس بن محمد بن عبدوس ، سمع بطليطلة من عبد الرحمن بن عيسى وغيره ، رحل الى المشرق رحلتين : كانت أولاهما سنة ٣٥٦ هـ والأخرى سنة ٣٧١ هـ ، فسمع بمكة ومصر ودخل الشام وانصرف الى الأندلس فكان متجولا بين طليطلة وطلبيرة • وكان زاهدا ثقة حسن الضبط ، من أعلام طليطلة وبها كانت وفاته سـنة ٣٩٠ هـ (٧) •

وكان منهم أبو محمد سرواس بن حمود الصنهاجي ، سكن طليطلة وحدث بها عن أبى ميمون دراس بن اسماعيل الفقيه المغربى المشهور اذ

---

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٤٧٧ .
(٢) نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٩٢ وابن الفرضى : المصدر السابق جـ ١ ص ١٩ — ٤٦ .
(٣) ابن بشكوال : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٢٩ .
(٤) ابن الفرضى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٩٨ / ١٣٦٩ .
(٥) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٢٠٨ — ١٦٣٨ .
(٦) ابن بشكوال : المصدر السابق ،
(٧) ابن الفرضى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٣٤٠ / ١٠٠٣ .

كان من أصحابه ، وكان معلما بالقرآن وقد حدث عنه الصاحبان وتوفى سنة ٣٩١ هـ (١) .

وكان منهم أبو نصر فتحون بن محمد بن عبد الوارث بن فتحون التجيبى ، روى عن أبى عبد الله بن عيشون وغيره ، حدث عنه الصاحبان ، وكانت وفاته سنة ٣٩٣ هـ (٢) .

وكان منهم أبو محمد قاسم بن أحمد بن محمد بن عثمان بن عباس المعروف بابن أرفع ، سكن قرطبة وقتا وسمع بها من محمد بن عبد الملك ابن أيمن وقاسم بن اصبغ ، شاوره القاضى منذر بن سعيد البلوطى ولم يزل مشاورا الى آخر أيام القاضى محمد بن اسحاق ، ولاه الحكم المستنصر على قضاء طليطلة وولى أيضا قضاء بطليوس وتصرف فى بنيان الحصون فى الثغر ، توفى سنة ٣٩٣ هـ ودفن بمقبرة الربض (٣) .

وكان منهم أحمد بن محمد بن الحسن المعافرى ، حدث عن أبى عبيد الليثى وعن غيره ، توفى سنة ٣٩٤ هـ (٤) وأبو عبد الله محمد بن سابق ابن مسعود القيسى ، كان رجلا صالحا تفقه فى المسائل وتوفى سنة ٣٩٦ هـ (٥) . وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن أبى عمرو المعافرى روى ببلده طليطلة وكانت له رحلة ، سمع الناس منه وتوفى نحو سنة ٤٠٠ هـ (٦) .

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن اسماعيل بن يحيى الخشنى يعرف بابن المشكيالى ، روى ببلده طليطلة وسمع بقرطبة ورحل الى المشرق فحج وسمع بمصر والاسكندرية والقيروان ، كان حافظا للمسائل عفيفا من أعيان طليطلة ، وكان له ورع وزهد وتواضع متقللا من الدنيا عاملا لا تأخذه فى الله لومة لائم ولا فى صدعه الحق بالحق ، قصده الحاجب المظفر عبد الملك بن أبى عامر فى طليطلة أثر صلاة احدى الجمع وكان الشيخ قد لزم داره يسمع عليه فيها ، فلما استأذن المظفر

---

(١) ابن بشكوال ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٣٢ / ٥٣٠ .
(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٦٣ — ٩٩٣ .
(٣) ابن الفرضى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٧١ / ١٠٨٣ .
(٤) ابن بشكوال : المصدر السابق .
(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٨١ / ١٠٤٤ .
(٦) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٩٣ / ١٠٦٢ .

عليه أمن ابن المشكيالي طلبة العلم ألا يقوموا فامتثلوا لأمره فدخل عليه المظفر وهم على حالهم فاكرم مثواه ، كانت وفاته سنة ٤٠٠ هـ (١) .

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن تمام بن عبد الله بن تمام ، كانت له رحلة الى المشرق ، وكان فقيها عالما منفننا شاعرا موثقا حسن الخط مهيبا الا أنه كان نهما فى الأكل يدخل الطعام على الطعام ، قتله أهل طليطلة سنة ٤٠١ هـ (٢) .

وكان منهم أبو عمر أحمد بن محمد بن وسيم ، كان من المشاهير فى العلم متفننا لغويا شاعرا نحويا ، قتله أهل طليطلة مع محمد بن تمام سنة ٤٠١ هـ فى ولاية واضح الكبير العامرى (٣) .

وكان منهم الصاحبان : أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن حسين ابن شنطير وأبو جعفر أحمد بن محمد بن محمد بن عبيده الأمـوى المعروف بابن ميمون ، كانا معا كفرسى رهان فى العناية الكاملة بالعلم والبحث على الرواية والتقييد لها . سمعا بطليطلة على من أدركاه من علمائها ورحلا معا الى قرطبة وسمعا معا بسائر الأندلس ثم رحلا سويا الى المشرق فسمعا على جماعة من المحدثين . كان أبو اسحاق بن شنطير زاهدا فاضلا ناسكا صواما قواما ورعا كثير التلاوة للقرآن ، سنيا منافرا لأهل البدع والأهواء لا يسلم على أحد منهم ، ما رؤى أزهد منه فى الدنيا ولا أوقر منه مجلسا . أما أبو جعفر ابن ميمون فكان نظير صاحبه أبى اسحاق فى الجمع والاكثار تلازما فى الرواية والسماع ، كانت رحلته مع صاحبه أبى اسحاق الى المشرق سنة ٣٨٠ هـ فحج معه وسمعا بمكه من كثير ، سمع ابن ميمون بالمدينة المنورة وبمدين وبالقلزم وبمصر وطرابلس ثم استوطن طليطلة والتزم الرباط بحصن الفهمين منها ، كانت له ولصاحبه أبى اسحاق حلقة فى مسجد طليطلة الجامع يقرأ عليهما فيها كتب الزهد والرقائق والكرامات وكانت اليهما الرحلة فى وقتهما ، رحل اليهما الناس من الآفاق . توفى أبو جعفر بن ميمون سنة ٤٠٢ هـ ودفن بحومة باب شاقرة بربض طليطلة فانفرد صاحبه أبى اسحاق شنطير بحلقة التدريس

---

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٤٨٦ / ١٠٥٢ .
(٢) نفس المصدر : جـ ٢ ص ٤٨٩ / ١٠٥٧ .
(٣) نفس المصدر : جـ ١ ص ٤٠ .

فى جامع طليطلة . كان الصاحبان علامة بارزة فى الحركة العلمية فى طليطلة وفى الأندلس اذ تتلمذ عليهما جيل من العلماء وكثر الأخذ عنهما وكانا موضع ثناء وتقدير فى الأندلس عامة وطليطلة خاصة (١) .

وكان من علماء طليطلة أبو عمر أحمد بن سعيد بن كوثر الأنصارى ، كان فقيها كريم النفس متفننا ، أخذ عن علماء بلدة وأجاز له جماعة من شيوخ قرطبة . كان كريما مضيافا يحسن ضيافة طلاب العلم حتى أنه كان يفرش لهم فى بيته مبطنات الصوف فى أشهر الشتاء لم يسبقه فى كرمه أحد من فقهاء طليطلة وكان يتولى أحكام طليطلة مع القاضى يعيش بن محمد ثم استثقله يعيش ودبر على قتله وأشيع فى الناس أنه مرض ومات حتى لا يثوروا لقتله وكان قتله سنة ٤٠٣ هـ (٢) .

وكان منهم أبو المطرف عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد بن ذنين الصدفى ، رحل الى المشرق سنة ٣٨١ هـ مع ابنه فحجا وسمعا بمصر والقيروان . كان لأبى المطرف سماع كثير وعناية كاملة بالحديث . شهر بالعلم والعمل والفضل والتعقف والورع وكانت تقرأ عليه كتب الزهد والرقائق وكان يعظ الناس بها ويذكرهم . كانت اليه الرحلة لسعة روايته وثقته وفضله ، توفى سنة ٤٠٣ هـ (٣) .

وكان منهم أبو نصر فتح بن ابراهيم الأموى يعرف بابن القشارى . رحل الى المشرق فروى بمكة وسمع بمصر والقيروان وسمع جماعة بالأندلس . كان شيخا صالحا فاضلا مجتهدا فى طلب العلم ، بنى بطليطلة مسجدين أحدهما بالجبل البارد والثانى بالدباغين وبنى حصن وقش وحسن مكاده فى زمن المنصور محمد بن أبى عامر ، حدث عنه جماعة من العلماء منهم أبو جعفر بن ميمون ، يبدو أنه عمر طويلا فقد ذكرت وفاته فى سنة ٤٠٣ هـ (٤) .

وكان منهم أحمد بن محمد بن فتحون الأموى ، سمع من محمد بن ابراهيم الخشنى ابن المشكيالى ومن غيره ، كان نيلا ، توفى سنة

---

(١) ابن بشكوال ، جـ ١ ص ١٩٨ .
(٢) نفس المصدر ، جـ ١ ص ٧١ .
(٣) نفس المصدر ، جـ ١ ص ٣١٣ / ٦٨٣ .
(٤) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٤٦٠ / ٩٨٣ .

٤٠٧ هـ (١) .

وكان منهم أبو مروان عبد الملك بن محمد بن وثيق ، سمع من الصاحبين ابن شنطير وابن ميمون ، وكان من أهل الحفظ والزهد والورع ، توفى سنة ٤١٠ هـ (٢) .

وكان منهم أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عثمان يعرف بابن القشارى أيضا . روى عن جماعة من علماء بلده طليطلة ، وكان دينا تقيا ثقة فى روايته ورعا قليل التصنع وكان الغالب عليه الرأى . وكان شاغرا فقها مشاورا فى الأحكام وتولى الصلاة والخطبة بجامع طليطلة . وكان يعقد الوثائق دون أجر . وكان يناظر ، يبدأ فى المناظرة بذكر الله عز وجل والصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم ثم يورد الحديث والحديثين والثلاثة ثم الموعظة ثم يبدأ يطرح المسائل من غير الكتاب الذى كانوا يناظرون عليه فيه ، توفى سنة ٤١٧ هـ وصلى عليه أبو الطيب بن الحديدى (٣) .

وكان منهم أبو الوليد هشام بن ابراهيم بن هشام التميمى سمع من محمد بن عمر الفخار وناظر فى المسائل على محمد بن محمد بن معيث وغيره . كان له حظ وافر من الأدب وشورو فى الأحكام ، كان فارسا شجاعا مجاهدا استشهد فى سنة ٤١٩ هـ (٤) .

وكان منهم هشام بن محمد بن حفص الرعينى يعرف بابن الشرانى ، كان حافظا لمذهب مالك وقورا عاملا حسن السمت توفى بطليطلة وصلى عليه ابن الفخار بعد سنة ٤٢٠ هـ (٥) .

وكان منهم أبو الربيع سليمان بن محمد المعروف بابن الشيخ أصله من قرطبة ، سكن طليطلة ، كان رجلا صالحا حليما لا يشك فى أنه مجاب الدعوة ، كان خطاطا بارع الخط فى المصاحف وأفنى عمره فى كتابتها ، توفى بطليطلة سنة ٤٢٠ هـ (٦) .

---

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٩ .
(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٥٨ / ٧٦٧ .
(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٦٥ / ٥٨٢ .
(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٦٤٨ / ١٤٢٢ .
(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٦٥٠ / ١٤٢٧ .
(٦) نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٤٨ .

وكان منهم أبو بكر خلف بن أحمد بن خلف الأنصارى يعرف بالرجوى ، رحل الى المشرق فروى عن أبى محمد بن أبى زيد وغيره ، كان رجلا فاضلا ورعا دعى الى قضاء طليطلة فأبى وهرب من ذلك . كان كثير الصدقة توفى بعد سنة ٤٢٠ هـ (١) .

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعدون الأنصارى ، له رحلة الى الحج ، كان ثقة زاهدا فاضلا مجاب الدعوة ، أحد الأبدال، روى عن عبدوس بن محمد (٢) .

وكان منهم أبو الوليد هشام بن محمد بن سليمان بن اسحاق ابن هلال القيسى السائح ، روى عن عبدوس بن محمد وعن محمد بن ابراهيم الخشنى ابن المشكيالى وتمام بن عبد الله وعبد الرحمن بن ذنين وغيرهم ، أخذ بقرطبة عن ابن أبى زمنين وغيره ، رحل الى المشرق فحج وسمع بمكه وبالقيروان . كان زاهدا فاضلا متنسكا متبتلا منقطعا عن الدنيا صواما قواما ، كتب بخطة علما كثيرا ورواه ، وكان حسن الخط جيد الضبط ، وكان يصوم رمضان فى الفهمين ويصنع لأهل الحصن ولمن حضره من المرابطين فى عيد الفطر طعاما كثيرا وينفق فيه المال الكثير . كان يرابط بنفسه فى القصور ويلبس خشن الثياب ، توفى سنة ٤٢٠ هـ (٣) .

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن حسين بن شنطير ، روى عن عبدوس ابن محمد . كان من أهل اليقين فى العلوم والحفظ لكتاب الله تعالى والمعرفة بالرؤيا ، توفى فجأة سنة ٤٢٢ هـ (٤) .

وكان منهم أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد بن ذنين الصدفى . روى ببلده طليطلة عن أبيه وآخرين ، وسمع بقرطبة وكتب بمدينة الفرج وأخذ عن جماعة من سائر رجال الثغر . رحل الى المشرق سنة ٣٨١ هـ مع أبيه فلقى كثيرين ثم عاد الى طليطلة فروى أهلها عنه ورحل اليه الناس من البلدان . كان خيرا فاضلا زاهدا عابدا مجتهدا دينا متواضعا ورعا سنيا عالما عاملا يقال انه كان مجاب الدعوة ، كان الأغلب

---

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٣٧٨ .
(٢) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٥١٤ / ١١٢٠ .
(٣) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٦٤٩ / ١٤٢٦ .
(٤) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٥١٥ / ١١٢٣ .

عليه الرواية والتقييد وقراءة الآثار والعمل بها وكانت جل كتبه ينسخها بيده وكان فى روايته موثوقا متحريا صدوقا ، التزم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لم تأخذه فى الله لومة لائم ، وكان مهيبا مطاعا محبوبا من الناس جميعا ، توفى سنة ٤٢٤ هـ فلم ترى على جنازة بطليطلة مثلما رؤى على جنازته من ازدحام الناس كانت جل بضاعته قراءة كتب الزهد وروايتها وشيء من كتب الحديث (١) .

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن جماهر الحجرى ، روى عن عبدوس ابن محمد وغيره وأخذ بقرطبة عن غير واحد بقرطبة عن غير واحد ، كانت له رحلة الى المشرق روى فيها علما كثيرا فكان من أهل العلم والتقدم فيه والبصر بالحجة ، جميل المنطق مشاورا ببلده ، توفى سنة ٤٢٤ هـ (٢) .

وكان منهم أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن شاكر الأموى . روى عن جماعة ، وكان معلما بالقرآن ، توفى سنة ٤٢٤ هـ (٣) ، ومنهم أبو الطيب سعيد بن أحمد بن محمد بن سعيد بن الحديدى التجيبى ، كان معظما عند العامة والخاصة . رحل الى المشرق ولقى جماعة من العلماء وسمع بمكة ومصر والقيروان التى أخذ فيها عن أبى الحسن القابسى سنة ٣٩٥ هـ . كان أهل المشرق يضربون به المثل ويقولون ما مر علينا قط مثله . توفى سنة ٤٢٨ هـ (٤) .

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن يحى بن سعيد الأموى يعرف بابن بلج . روى عن كثيرين وله سماع وطلب ودين وفضل وتعرض عليه المسائل توفى فى ذى الحجة سنة ٤٢٩ هـ (٥) . وأبو الوليد هشام بن قاسم الأموى . ناظر فى المسائل على محمد بن يعيش وعنى بالعلم العناية التامة . توفى سنة ٤٣٠ هـ (٦) .

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٦٤ — ٥٨٦ .
(٢) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٥١٦ — ١١٢٥ .
(٣) نفس المصدر ، جـ ١ ص ٨ .
(٤) نفس المصدر ، جـ ١ ص ٤٩٨ .
(٥) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٥٢١ — ١١٣٨ .
(٦) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٦٥١ — ١٤٣١ .

وكان منهم أبو عثمان سعيد بن عثمان البنا الشيخ الصالح الملتزم فى الفهمين . له رحلة ، سمع بمكة من أبى بكر محمد بن الحسين الآجرى ونقل عنه « من قبل يد سلطان فكأنما سجد لغير الله عز وجل »، ولقى أبا جعفر بن عون الله وأخذ عنه : « أوصيك بتقوى الله ولزوم الذكر والفرار من الناس » . ولم يزل أبو عثمان مرابطا بالفهمين الى أن مات (١) .

وكان منهم أبو عمر أحمد بن ابراهيم بن هشام التميمى ، سمع من أحمد بن وسيم وغيره ، كان معظما عند العامة والخاصة . توفى سنة ٤٣٠ هـ (٢) . وأبو عمر يوسف بن أصبغ بن خضر الأنصارى ، روى عن جماعة وعنى بالعلم العناية التامة وجمع الدواوين والرواية وجمع مسند موطأ مالك رواية العقتبى عنه فى سفر . توفى سنة ٤٣١ هـ (٣) .

وكان منهم أبو الربيع سليمان بن ابراهيم بن أبى سعد بن يزيد التجيبى سمع من أبى عبد الله بن سفيان المقرىء كتاب « الهادى فى القراءات السبع » من تأليفه . كان من أهل الذكاء ، محسنا للقراءات مع الفضل والصلاح ، توفى سنة ٤٣١ هـ (٤) .

وكان منهم عبد الله بن سعيد بن أبى عوف العاملى الرياحى ، قدم الى طليطلة واستوطنها . كان قد سمع من ابن أبى زمنين وغيره ، رحل حاجا فسمع من ابن أبى زيد وغيره ، كان فاضلا دينا ورعا مداوما على الجماعات ، آخر من يخرج من المسجد بعد صلاة العشاء وأول من يدخله لصلاة الصبح . كان اذا قرىء عليه يبكى ، وكان يرابط فى شهر رمضان بحصن ولمش . توفى سنة ٤٣٢ هـ (٥) .

وكان منهم أبو الوليد هشام بن محمد بن أحمد الأنصارى ، ناظر فى المسائل وناظر الناس عليه فيها . كان كريما مكرما لمن يأتى اليه معتنيا به وامتحن فى آخر عمره ومات مقتولا فى ذى الحجة سنة

---

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢١ / ٥٠٣ .
(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ٩٥ .
(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ٦٧٦ /١٤٩٧ .
(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٤٧ .
(٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٦٨ /٥٩٢ .

٤٣٤ هـ (١) • وأبو عمر يوسف بن عمر الجهني • وكان له علم بالفرائض والآداب وطالع النجوم واستبحر فى ذلك • توفى سنة ٤٣٥ هـ (٢) • وأبو بكر يحيى بن عبد الله بن ثابت الفهرى النحوى ، سمع من عبدوس بن محمد ومن الصاحبين وغيرهم • كان يحفظ الفقه والعربية حفظا جيدا وكان فصيح اللسان شاعرا ، توفى سنة ٤٣٦ هـ (٣) •

وكان منهم أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن عباس بن جوشن الأنصارى ، تولى الصلاة والخطبة بالمسجد الجامع بطليطلة • روى ببلده عن كثير من رجال طليطلة وعن القادمين عليها من غير أهلها ومن أهل ثغورها ، وسمع بقرطبة ، ورحل الى المشرق فحج وهو حديث السن وروى هنالك يسيرا واستجاز له الصاحبان جماعة ممن لقوهما بالمشرق فى رحلتهما • عنى بالرواية والجمع لها والاكثار منها فكان واحد عصره فيها وكانت اليه الرحلة فى وقته • كانت الرواية أغلب عليه من الدراية وكان فيها ثقة صدوقا وكان حسن الخط جيد الضبط ، توفى سنة ٤٣٨ هـ (٤) •

وكان منهم أحمد بن حسين الأنصارى ، روى عن الصاحبين : ابن شنطير وابن ميمون ، وعن أحمد بن حارث • كان فاضلا متواضعا كثير الحفظ للقرآن ، توفى سنة ٤٣٩ هـ (٥) • وأبو جعفر أحمد ابن عبد الله بن محمد التجيبى يعرف بابن المشاط ، كان فقيها من أهل الزهد والورع والصلاح وكانت العبادة قد غلبت عليه (٦) • وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن قوطى المعافرى ، كان خيرا فاضلا متواضعا كثير الدراسة للمسائل ، موثقا ، شاعرا ، توفى سنة ٤٤٠ هـ وصلى عليه محمد بن مغيث (٧) •

وكان منهم أبو الربيع سليمان بن عمر بن محمد الأموى يعرف بابن جهينة ، روى عن ابن المشكيالى محمد بن ابراهيم الخشنى وعن

(١) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٦٥١ / ١٤٣٢ •
(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص / ١٤٩٨ •
(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٦٦٧ / ١٤٦٧ •
(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٣٠ / ٧٠٤ •
(٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٠٥ •
(٦) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٠٧ •
(٧) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٥٣٢ / ١١٦١ •

أبى اسحاق بن شنطير . كانت له رحلة الى المشرق لقى فيها الرشا وغيره ثم انصرف فكان مقرىء القرآن بجامع طليطلة ، كان القاضى ابن يعيش يستخلفه على القضاء حتى أنه كان يدعى بالقاضى ، وكان من أهل الطهارة والأحوال المحمودة ، نحويا شاعرا خطاطا ، توفى سنة ٤٤٠ هـ (١) .

وكان منهم أبو عمر أحمد بن محمد بن يوسف بن بدر الصدفى ، كان من خيار المسلمين وأفاضلهم ، وكان له ورد من الليل لم يتركه الى أن توفى فى ذى القعدة سنة ٤٤١ هـ (٢) .

وكان منهم أبو محمد عبد الرحمن بن أسد ، روى عن الصاحبين ، له رحلة الى المشرق كتب فيها عن جماعة من العلماء . كان من أهل العلم والدين والفضل ، عنى بالسماع وطلب العلم ، وكان من أهل التقنين فى العلوم فاضلا جوادا متواضعا ، توفى سنة ٤٤٢ هـ (٣) . ومحمد بن قاسم بن خضر ، روى عن أبى محمد عبد الله بن ذنين وغيره كان الأغلب عليه قراءة الآثار واليها كان يذهب ، كان خيرا فاضلا مجاهدا ، أسيب فى الغزاة المعروفة بغزاة فحص مدينة سنة ٤٤٣ هـ (٤) .

وكان منهم أبو جعفر أحمد بن قاسم بن محمد بن يوسف التجيبى يعرف بابن ارفع رأسه ، كان حافظا للفقه رأسا فيه شاعرا مطبوعا بصيرا بالحديث وعلله عارفا بعقد الشروط ، وكانت له حلقة فى جامع طليطلة وتوفى ليلة عاشوراء سنة ٤٤٣ هـ (٥) .

وكان منهم أبو بكر محمد بن مغيث بن أحمد بن مغيث الصدفى ، روى عن عبدوس بن محمد ومحمد بن ابراهيم الخشنى وعن عبد الله ابن أبى زمنين وابن الفخار وغيرهم . كان من جلة الفقهاء وكبار العلماء مقدما فى الشورق وكان أبصر أهل وقته بالأحكام وتوفى سنة ٤٤٤ هـ (٦).

---

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٤٤٩ .
(٢) نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٠٩ .
(٣) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٣٣٢ / ٧٠٨ .
(٤) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٦٠٩ / ١٣٣٣ .
(٥) نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٨١ .
(٦) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٥٣٣ / ١١٦٥ .

وكان منهم أبو العباس أحمد بن سعيد بن أحمد بن الحديدى التجيبى ، له رحلة الى المشرق حج فيها ، وكانت له أخلاق كريمة ، توفى سنة ٤٤٦ هـ (١) . وأبو القاسم محبوب بن محبوب بن محمد الخشنى روى عن محمد بن ابراهيم الخشنى وعن الصاحبين وغيرهم . كان من أعلم أهل زمانه باللغة العربية بصيرا بالحديث وعلله ، فهما فطنا ذكيا ، وكان فهمه فوق حفظه مع صلاح وفضل ، توفى سنة ٤٤٠ هـ (٢) .

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن بدر الصدفى ، روى عن الصاحبين وعن غيرهما ، كان مقدما فى فقهاء طليطلة حافظا للمسائل جامعا للعلم كثير العناية به وقورا عاملا متواضعا ، كان يتخير للقراءة على الشيوخ لفصاحته ونهضته ، توفى سنة ٤٤٧ هـ (٣) . وموسى بن عبد الرحمن يعرف بابن جوشن ، سمع من محمد بن عمر وغيره ، كان خيرا فاضلا له أخلاق حسنه لا يمر بأحد الا سلم عليه ، توفى سنة ٤٤٨ هـ (٤) . وأبو عبد الله محمد بن عيسى بن بدر الصدفى ، روى عن ابن الفخار ، كان متواضعا ، توفى سنة ٤٤٨ هـ (٥) .

وكان منهم أبو الحسن فرج بن أبى الحكم عبد الرحمن اليحصبى . روى عن عبد الله بن ذنين وغيره ، كان قد فات أهل زمانه فى العلم والعقل والفضل ، توفى سنة ٤٤٨ هـ (٦) وأبو عثمان سعيد بن محمد بن جعفر الأموى ، روى عن محمد بن عيسى بن أبى عثمان وعن الصاحبين ، كان فاضلا عفيفا دينا ثقة منقبضا كثير الصلاة والصيام . نبذ الدنيا وأقبل على العبادة توفى سنة ٤٤٨ هـ (٧) . وأبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن أشج الفهمى ، روى عن أبى محمد بن القشارى وغيره ، كان متفننا فى العلوم بصير باللغة والفرائض والحساب وشوور فى الأحكام ، توفى سنة ٤٤٨ هـ وصلى عليه أحمد بن مغيث وحضر جنازته المأمون بن ذى النون (٨) .

---

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١١٣ .
(٢) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٦٢٨ / ١٣٨١ .
(٣) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٥٣٤ / ١١٦٧ .
(٤) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٦٠٩ / ١٣٣٤ .
(٥) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٥٣٥ / ١١٧١ .
(٦) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٤٦٧ / ٩٨٦ .
(٧) نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٢٢ / ٥٠٥ .
(٨) نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٠٨ .

وكان منهم أبو بكر عثمان بن محمد المعافرى يعرف بابن الحوات ، سمع على أبى عبد الله بن الفخار وعلى ابن ذنين وغيرهما • كان من خيار المسلمين وأفاضلهم ، كثير التلاوة للقرآن ، مواظبا على شهود الصلوات فى الجامع ، توفى سنة ٤٤٩ هـ (١) • وأبو بكر أحمد بن يوسف بن حماد الصدفى يعرف بابن العواد ، روى عن محمد بن ابراهيم الخشنى وعن الصاحبين وكثير غيرهم • كانت كتبة كلها مسموعة ، معلما بالقرآن من أهل الخير والورع والثقة ، توفى سنة ٤٤٩ هـ (٢) •

وكان منهم أبو الوليد أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد قاضى طليطلة ، استقضاه المأمون يحى بن ذى النون بعد أبى عمر بن الحذاء ، كان أصله من قرطبة لكنه استوطن طليطلة ، وكان مجتهدا فى قضـائه متحريا ، صليبا فى الحق ، صارما فى أموره كلها ، متبركا بالصـالحين راغبا فى لقائهم ، توفى قاضيا سنة ٤٤٩ هـ (٣) •

وكان منهم أبو عمر أحمد بن محمد بن عمر الصدفى الزاهد يعرف بابن أبى جناده ، رحل حاجا ، كان صواما قواما منقبضا عن الناس ، من أهل العلم والعمل ، ترك الدنيا فارا بدينه ملازما لثغور المسلمين ، حسن الضبط متحريا ، توفى سنة ٤٥٠ هـ وصلى عليه تمام بن عفيف (٤) •

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن الفرج بن عبد المولى الأنصارى بن أبى الفتح الصواف ، رحل فسمع بالقيروان من جماعة وبمصر من جماعة منهم أبو محمد بن النحاس ، وبمكة من جماعة منهم أبو العباس أحمد ابن الحسن الرازى ، وكان رجلا مكثرا ثقة ضابطا توفى بالفسطاط سنة ٤٥٠ هـ (٥) •

وكان منهم أبو أحمد عبد الرحمن بن أحمد بن خلف الفقيه ، يعرف بابن الحوات ، كان اماما يتكلم فى الحديث والفقه والاعتقادات بالحجة قوى النظر ذكى الفرض سريع الجواب بليغ اللسان وله فيها تواليف بها

---

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٨٧٨ •
(٢) نفس المصدر ، ١ ص ١١٨ •
(٣) نفس المصدر ، جـ ١ ص ١١٧ •
(٤) نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٢١ •
(٥) الحميدى : المصدر السابق ، ص ٨٥ / ١٣٢ •

تحقق ، وله مع ذلك فى الأدب والشعر بضاعة قوية ، مات قريبا من سنة ٤٥٠ هـ (١) .

وكان منهم أبو عمر أحمد بن يحى بن سميق ، أصله من قرطبة وسكن طليطلة ، روى بقرطبة عن جماعة وسمع بطليطلة عن جماعة كان خروجه عن قرطبة فى الفتنة فقصد طليطلة وسكنها وولاه أبو محمد بن الحذاء أيام قضائه بها أحكام القضاء بطلبيره . كان من أهل النباهة واليقظة والمشاركة فى عدة علوم ، أديبا حليما وقورا وكان قد نظر فى الطب وطالع منه كثيرا وعنى به ، وكان من المتهجدين بالقرآن كثير الالتزام لداره لا يخرج الا لصلاة أو لحاجة ، يشترى حاجته بنفسه حتى البقل ، وكان صالحا حسن الخلق كثير التواضع محبا فى أهل السنة متبعا لآثارهم ، كانت له غلة بحومة المشرب يختلف اليها ليعمرها بالعمل ويعيش منها ، توفى بطليطلة ودفن بالقرق سنة ٤٥١ هـ (٢) .

وكان منهم أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن أبى عمر ، روى عن أبى محمد بن ذنين وغيره ، وتوفى سنة ٤٥١ هـ (٣) . وأغلب بن عبد الله المقرىء ، أخذ القراءة عن اسماعيل بن عبد الله النحاس وعن محمد بن اسماعيل الأنماطى وضبط عنهما حرف نافع رواية ورش ودون عنهما فى كتابه (٤) .

وكان منهم أبو محمد تمام بن عفيف بن تمام الصدفى الواعظ الزاهد . أخذ عن عبدوس بن محمد وعن الصاحبين ابن شنطير وابن ميمون . شهر بالزهد والورع والصلاح والعفاف وكان يعظ الناس ويحضهم على الخير ويندبهم اليه ويدلهم عليه ، وكان متقللا من الدنيا راضيا فى قوته باليسير وكان يلبس الصوف ويجتهد فى أفعال البر كلها ويعلم الناس أمور دينهم ويخوفهم ويجتهد فى نصحهم . توفى سنة ٤٥١ هـ (٥) .

---

(١) الحميدى : المصدر السابق ، ص ٢٧٠ / ٥٩٠ .
(٢) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ص ١١٩ .
(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢١٠ .
(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٧٣ .
(٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٨٤ .

وكان منهم وهب بن ابراهيم بن وهب القيسى ، سمع من محمد بن محمد بن مغيث ، وكان خيرا فاضلا دينا ثقة وله رحلة الى المشرق ، وكان مواظبا على الصلوات فى الجامع توفى آخر سنة ٤٥٣ (١) .

وكان منهم أبو الأصبغ عيسى بن فرج بن أبى العباس التجيبى المغامى ، كان عالما بالقراءات أخذها عن شيوخه وأخذ عنه ابنه أبو عبد الله المغامى ، توفى سنة ٤٥٤ هـ (٢) .

وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن موسى بن عبد السلام الأنصارى المعروف بابن شق الليل ، سمع بطليطلة من الصاحبين وغيرهما وتوفى بطلبيرة سنة ٤٥٥ هـ (٣) .

وكان منهم أبو محمد عبد الله بن موسى بن سعيد الأنصارى يعرف بالشايقى ، كان من خيار المسلمين ممن انقطع الى الله عز وجل وتجرد لأعمال الآخرة مجتهدا فى ذلك بلا أهل ولا ولد وكانت له فى جامع طليطلة مجالس كثيرة يعلم الناس فيها أمر وضوءهم وصلاتهم وجميع ما افترض عليهم ، أراد الخروج عن طليطلة فمنعه القاضى أبو زيد بن الحشا عن ذلك ليعلم الناس فيها ، توفى سنة ٤٥٦ هـ (٤) .

وكان منهم أبو محمد قاسم بن سليمان بن هلال القيسى ، روى عن الصاحبين وغيرهما جماعة كثيرة من أهل الأندلس . رحل الى المشرق فحج وسمع به ، عنى بالعلم والاجتهاد فيه مع صلاح الحال والفضل المتقدم والانقباض والتحفظ من الناس ولزوم المساجد وكثرة الصلاة ، وكان قد نسخ جل كتبه بخطة ، كانت له فى الجامع حلقة يعظ الناس فيها وكان لا يذكر عنده شىء من الدنيا وكان اماما فى السنة وسيفا على أهل الأهواء مباينا لهم وكان صليبا فى الحق توفى سنة ٤٥٨ هـ (٥) .

وكان منهم أبو جعفر أحمد بن مغيث بن أحمد بن مغيث الصدفى ، من جلة علماء طليطلة ومن أهل البراعة والفهم والرئاسة فى العلم متفننا

---

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦٤٦ / ١٤١٦ .
(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٩٣٨ .
(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٥٣٩ / ١١٨٤ .
(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٧٨ / ٦١٠ .
(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٧٢ / ١٠١٩ .

عالما بالحديث وعلله وبالفرائض والحساب واللغة والاعراب والتفسير وعقد الشروط وله فيها كتاب حسن سماه « المقنع » لكنه كان كلفا بجمع المال ، توفى سنة ٤٥٩ هـ (١) .

وكان منهم أبو عمر أحمد بن محمد بن مغيث الصدفى ، رحل الى المشرق وجلب كتبا صحاحا . كان يحفظ صحيح البخارى ويعرف رجاله ويحضر الشورى ويذكر الحديث كثيرا وكان ثقة كثير الصدقه وكان يفضل الفقر على الغنى ، توفى سنة ٤٥٩ هـ (٢) .

وكان منهم أبو بكر يحى بن محمد بن يحى الأموى ، سمع من محمد بن مغيث وغيره ، كان صاحب أدب وشعر وبلاغه ، حسن الخط وفورا مسمتا توفى سنة ٤٦٠ هـ (٣) .

وكان منهم أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد التغلبى ، تولى قضاء طليطلة ، استقضاه المأمون يحى بن ذى النون وكان متحريا فى أموره واختار القضاء باليمين مع الشاهد الواحد فى الحقوق وبالشهادة على الخط وقضى بذلك أيام نظره ، وكان من أهل المعرفة والذكاء والرواية والدراسة . توفى بطليطلة وهو قاضيها سنة ٤٦٢ هـ وصلى عليه يحيى بن سعيد بن الحديدى (٤) .

وكان منهم أبو نصر فتحون بن عبد الرحمن بن فتحون القيسى ، كان رجلا حسن الأخلاق ، توفى سنة ٤٦٤ هـ (٥) .

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن قاسم بن مسعود القيسى ، كان من أهل العناية بالعلم والفقه والفتيا مشاورا فى الأحكام وكتب للقضاة فى طليطلة ، توفى سنة ٤٦٦ هـ (٦) .

وكان منهم أبو بكر جماهر بن عبد الرحمن بن جماهر الحجرى ، رحل الى المشرق حاجا سنة ٤٥٢ هـ فحج ولقى بمكة كريمة المروزية وسمع

---

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٢٤ .
(٢) نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٢٨ .
(٣) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٦٦٩ / ١٤٧٣ .
(٤) نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٣٦ / ٥٤٠ .
(٥) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٤٦٣ / ٩٩٤ .
(٦) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٥٤٧ / ١١٩٨ .

بمصر والاسكندرية وكان حافظا للفقه على مذهب مالك عارفا بعقد الشروط وعللها ، وكانت تقرأ عليه كتب الزهد والرقائق وكانت العامة تجله وتعظمه ، توفى سنة ٤٦٦ هـ (١) .

وكان منهم أبو بكر يحيى بن سعيد بن أحمد يحيى بن الحديدى ، سمع من غير واحد ، كان نبيلا متفننا فصيحا فطنا مقدما فى الشورى وكانت له مكانه عند المأمون يحيى بن ذى النون وكان لا يقطع أمرا الا عن مشورته وكان مستوليا على أمره ودخل مع المأمون قرطبة حين ملكها ، ولما توفى المأمون استثقل حفيده القادر بالله أبا بكر بن الحديدى وقتله بقصره صحوة يوم الجمعة فى المحرم سنة ٤٦٨ هـ .

وكان منهم أبو الوليد هشام بن محمد بن مسلمه الفهرى ، رحل الى المشرق فروى فيه عن أبى محمد بن النحاس وغيره ، سمع منه الناس وشوور فى الأحكام وامتحن محنه عظيمة وتوفى سنة ٤٦٩ هـ (٢) .

وكان منهم أبو جعفر أحمد بن سعيد بن غالب الأموى ، يعرف بابن اللورانكى ، كان من أهل الأدب والفرائض واللغة دربا بالفتيا مشاورا فى الأحكام فقيها فى المسائل مشاركا فى شرح الحديث والتفسير متواضعا ، توفى سنة ٤٦٩ هـ (٣) .

وكان منهم أبو الخليل فتوح بن الخراز ، كان من الفقهاء العباد الزهاد ، روى عن أبى عمر بن عبد البر وغيره ، وكان صائما ستين سنة ، ثم رحل الى ناحية طليطلة وتوفى بها سنة ٤٧٠ هـ (٤) .

وكان منهم أبو سعيد الفرج بن أبى الفرج بن يعلى التجيبى تولى أحكام القضاء بطليطلة وكان دينا فاضلا وقورا حليما عاقلا حسن السيرة فيما تقلده محببا الى الناس معظما ، توفى سنة ٤٧٠ هـ (٥) .

---

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦٦٩ / ١٤٧٥ .
(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٦٥٢ / ١٤٣٣ .
(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٣٦ .
(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٦٢٠ / ١٣٦١ .
(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٦٢ / ٩٩٠ .

وكان منهم أبو الحسن صادق بن خلف بن صادق بن ليبال الأنصارى ، طليطلى سكن برغش ، روى بطليطلة عن أبى بكر أحمد بن يوسف العواد وعن أبى محمد قاسم وأخذ عن نصر بن ابراهيم المقدسى ، كتب بخطة علما كثيرا ورواه وكان رجلا فاضلا دينا متواضعا عفيفا محافظا على أعمال البر خيرا صالحا ، توفى سنة ٤٧٠ هـ (١) .

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن حفص الشرانى ، روى عن محمد بن مغيث ــ وكان صهرا له ــ وعن غيره ، كان الأغلب عليه الورع وترك الدنيا والانقباض عنهـا وأسبلها والا نزواء عنها وعن أهلها ، كان ثقة فى الرواية ، توفى سنة ٤٧١ هـ (٢) .

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن سليمان بن هلال القيسى ، روى عن أبيه وغيره ، كان له حظ من الفقه والآثار والآداب ، توفى سنة ٤٧٢ هـ (٣) .

وكان منهم أبو الحسن على بن أبى القاسم بن عبد الله بن على المقرىء ، سرقسطى سكن طليطلة ، كان رجلا صالحا خيرا وأقرأ الناس بطليطلة مدة وأسمع الناس بها ، توفى سنة ٤٧٢ هـ بقرطبة ودفن بمقبرة الربض (٤) .

وكان منهم أبو الطيب سعيد بن يحيى بن سعيد بن الحـديدى التجيبى ، كان من أهل العلم والذكاء والفهم وتولى القضاء بطليطلة بتقديم المأمون يحيى بن ذى النون وكان حسن السيرة جميل الأخلاق دربا بالأحكام ثقة فيها ولم يزل يتولاها مدة المأمون الى أن توفى ، امتحن أبو الطيب فقتل أبوه وسجن هو بسجن وبذى فمكث فيه الى أن توفى سنة ٤٧٢ هـ (٥) .

وكان منهم أبو الحسن على بن سعيد بن أحمد بن يحيى الحديدى ، كان فقيها فى المسائل مشاورا بصـيرا بالفتيا وكان يتحلق اليه ويناظر

---

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٣٨ / ٥٤٢ .
(٢) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٥٥٠ / ١٢٠٤ .
(٣) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٥٥١ / ١٢٠٧ .
(٤) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٨٩٦ .
(٥) نفس المصدر ، جـ ١ ص ٢٢٣ / ٥١٠ .

عليه . توفى سنة ٤٧٤ هـ (١) وأبو الوليد يونس بن أحمد بن يونس الأزدى يعرف بابن شوفه ، روى عن كثيرين ، كان خيرا فاضلا ، الأغلب عليه من الحديث ما فيه الزهد والرقائق ، وكان له بصر بالمسائل وتصرف بالحديث ، وكان بارا باخوانه جميل المعاشرة لهم من أحسن الناس خلقا لا يخرج من منزله الا لشىء مؤكد ، توفى بمجريط سنة ٤٧٤ هـ (٢) .

وكان منهم يوسف بن موسى الأسدى يعرف بابن البابش ، أخذ عن محمد بن مغيث وغيره ، شوور فى الأحكام وتوفى بوملس سنة ٤٧٥ هـ (٣) . وأبو بكر عبد الصمد بن سعدون الصدفى المعروف بالركانى ، روى بطليطلة عن أبى محمد قاسم بن هلال وغيره ، له رحلة الى المشرق حج فيها وسمع ، توفى بعد سنة ٤٧٥ هـ (٤) . وأبو عبد الله يوسف بن محمد بن بكر الكنانى ذكيا متصرفا فى [illegible] والفرائض ، رحل حاجا ثم انصرف فولى قضاء [illegible] فى أموره كلها حسن الزى والهيئة توفى آخر سنة [illegible] وأبو [illegible] نجدة بن سليم بن نجدة الفهرى المقرىء ، من قلعة رباح سكن طليطلة ، روى عن أبى عمرو المقرىء وأبى محمد بن عباس وأقرأ الناس القرآن الى أن توفى بطليطلة بعد سنة ٤٧٥ هـ (٦) . وأبو أحمد جعفر بن عبد الله بن أحمد التجيبى ، قرطبى سكن طليطلة واستوطنها ، روى عن أبى المطرف عبد الرحمن بن مروان القنازعى ، قرأ الأدب على أبى محمد قاسم بن محمد القرشى المروانى وعلى أبى العاصى حكم بن منذر بن سعيد وجالسهما بمدينة طليطلة وأخذ بها أيضا عن أبى محمد بن عباس الخطيب وأبى محمد الشنتجيالى وغيرهما . كان ثقة فيما رواه فاضلا منقبضا وسمع منه الناس وأخذوا عنه ، قتل [illegible] الأضحى سنة ٤٧٥ هـ (٧) .

---

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٨٩٧ .
(٢) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٦٨٧ / ١٥١٥ .
(٣) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٦٨٠ / ١٥٠٤ .
(٤) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٨٠٩ . [illegible]
(٥) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٦٨٠ / ١٥٠٥ .
(٦) نفس المصدر جـ ١ ص ٢٣٢ / ٥٢٣ .
(٧) نفس المصدر جـ ١ ص ٢٩٥ . [illegible]

وكان منهم أبو عمر أحمد بن يوسف بن أصبغ بن خضر الأنصارى كان بصيرا بالحديث والفرائض والتفسير ، شوور فى الأحكام وكانت له رحلة الى المشرق حج فيها ثم انصرف فولى القضاء بطليطلة ثم صرف عنه ، توفى بقرطبة سنة ٤٨٠ هـ (١) .

وكان منهم أبو عبد الله محمد بن عيسى بن فرج بن أبى العباس ابن اسحاق التجيبى المغامى المقرىء ، كان عالما بالقراءات ووجوهها ضابطا لها اماما ذا دين وفضل ، وصف بالتجويد والمعرفة ، توفى باشبيلية سنة ٤٨٥ هـ وحبس كتبه على طلبة العلم بالعدوة (٢) .

وكان منهم أحمد بن بشر الأموى روى عن جماعة ، كان نبيلا وقورا عاملا منقبضا انتقل من طليطلة الى سرقسطة وتوفى بها سنة ٤٨٥ هـ (٣) . وأبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن مطاهر بن الأنصارى روى عن جماعة وعنى بسماع العلم ولقاء الشيوخ والأخذ عنهم . توفى بطليطلة فى أيام النصارى سنة ٤٨٩ هـ (٤) يبدو أنه كان له كتاب فى تراجم رجال طليطلة لم يصل الينا ولكن نقل عنه كتاب التراجم فى المكتبة الأندلسية .

وكان منهم أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام الكنانى الوقشى ، أخذ العلم عن أبى عمر الطلمنكى وغيره ، قال عنه القاضى أبو القاسم صاعد بن أحمـــد أنه أحد رجال الكمال فى وقته باحتوائه على فنون المعارف وجمعه لكليات العلوم وهو من أعلم الناس بالنحو واللغة ومعانى الأشعار وعلم العروض وصناعة البلاغة ، وهو بليغ مجيد شاعر حافظ للسنن وأسماء نقلة الأخبار بصير بأصول الاعتادات وأصول الفقه واقف على كثير من فتاوى الأمصار نافذ فى علم الشروط والفرائض ، فتحقق بعلم الحساب والهندسة ، مشرف على جميع آراء الحكماء ، حسن النقد للمذاهب ثابت الذهن فى تمييز الصواب ويجمع الى ذلك آداب الأخلاق مع حسن المعاشرة ولين الكنف وصدق اللهجة ، قيل فيه :

---

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٤٥ .
(٢) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٥٥٨ / ١٢٢٥ .
(٣) نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٤٨ .
(٤) نفس المصدر ، جـ ١ ١٥١ .

وكان من العلوم بحيث يقضى   له فى كل علم بالجميع

وكانت وفاته بدانية سنة ٤٨٩ هـ (١) .

وكان منهم أبو الحسن على بن أحمد بن محمد بن أشج الفهمى المقرىء . كان رجلا فاضلا قديم الطلب للعلم وافر الأدب ، توفى بالعدوة سنة ٥١٣ هـ وأبو الحسن على بن محمد بن درى المقرىء الخطيب بالمسجد الجامع بغرناطة أصله من طليطلة ، روى عن أبى عبد الله المغامى المقرىء وغيره ، كان مقرئا فاضلا ضابطا عارفا بما يحدث . أخذ الناس عنه . توفى بغرناطة سنة ٥٢٠ هـ .

وهكذا كانت الحياة الفكرية فى طليطلة فى عصرها الاسلامى خصبة وثرية اشتملت على اتجاهات علمية متنوعة ما بين علوم دينية وأخرى عقلية فضلا عن آداب وفنون شتى ، وشارك فى تلك الحياة الفكرية أجيال متعاقبة من العلماء والأدباء والشعراء وغيرهم حتى اذا سقطت طليطلة فى أيدى نصارى الأسبان نزح كثير من هؤلاء عن طليطلة الى غيرها من مدن الأندلس واستأنفوا عطاءهم الفكرى فيها على نحو ما ذكرنا .

---

(١) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٦٥٣ / ١٤٣٧ .

مصادر ومراجع

(أ) المصـــادر :

١ - ابن الآبـــار :
الحلة السيراء ،
تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة/١٩٦٣ .

٢ - ابن الأثير :
الكامل فى التاريخ .

٣ - الادريسى
المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ،
(من كتاب نزهة المشتاق) . تحقيق دوزى ليدن/١٩٦٨ .

٤ - ابن بسام :
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة . تحقيق احسان عباس .

٥ - ابن بشكوال : ابو القاسم خلف بن عبد الملك :
الصلة فى تاريخ ائمة الأندلس
القاهرة/١٩٦٦ .

٦ - البـكرى :
جغرافية الأندلس واوربا ، (من كتاب المسالك والممالك) ،
تحقيق عبد الرحمن الحجى ، بيروت/١٩٦٨ .

٧ - ابن حزم :
جمهرة انساب العرب

٨ - الحميدى :
جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الاندلس ، القاهرة/١٩٦٦ .
تحقيق عبد السلام هارون القاهرة/١٩٦٢ .

٩ - الحميرى :
الروض المعطار فى خبر الاقطار
تحقيق احسان عباس ، بيروت/١٩٧٥ .

١٠- ابن حوقل :
صورة الارض ، بيروت/١٩٧٩

١١ــ ابن حيان :
ــ المقتبس من أبناء أهل الاندلس ، تحقيق محمود مكى ، بيروت/١٩٧٣
ــ المقتبس ، جـ ٥ نشر شالميتا وكورنيطى وصبح ، مدريد/١٩٧٩
ــ المقتبس ، تحقيق عبد الرحمن الحجى ، بيروت/١٩٦٥ .

١٢ــ ابن الخطيب :
اعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الاسلام
تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة/١٩٦٦ .

١٣ــ ابن خلدون :
العبر وديوان المبتدأ والخبر

١٤ــ الزهرى : ابو عبد الله محمد بن أبى بكر :
كتاب الجغرافية وما ذكرت الحكماء فيها من العمارة ،
تحقيق محمد حاج صادق ، القاهرة/ب.ت .

١٥ــ ابن سعيد :
ــ المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق شوقى ضيف ، القاهرة/١٩٧٨
ــ الجغرافيا ، نشر اسماعيل العربى ، بيروت/١٩٧٠ .

١٦ــ أبو القاسم بن احمد بن صاعد البقلى :
طبقات الامم ،
تحقيق حياة العيد بوعلوان ، بيروت/١٩٨٥ .

١٧ــ الضبى :
بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس ، القاهرة/١٩٦٧ .

١٨ــ عبد الواحد المراكشى :
المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ،
تحقيق محمد سعيد العريان وزميله الدار البضاء/١٩٧٨ .

١٩ــ ابن عثمان المكناسى : ابو عبد الله محمد بن عبد الوهاب :
الاكسير فى افتكاك الاسير ،
تحقيق محمد الفاسى ، الرباط/١٩٦٥ .

٢٠ــ ابن عذارى :
لبيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب :
تحقيق كولان وليفى بروفنسال ، بيروت/١٩٨٠ .

٢١ــ عيـــاض :
ترتيب المدارك وتقريب المسالك ، الرباط/١٩٧٠

٢٢- ابن الفرضى : ابو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الازدى :

تاريخ علماء الاندلس ، القاهرة/١٩٦٦

٢٣- ابن فضل الله العمرى :

مسالك الابصار فى ممالك الامصار

- السفر الثانى : طبع تصويرى بعناية فؤاد سزكين عن خطية
- السفر الرابع والعشرين ، طبع تصويرى بعناية فؤاد سزكين عن خطية ، ١٥/٢٧٩٧ احمد الثالث

٢٤- القزوينى : زكريا بن محمد بن محمود :

آثار البلاد واخبار العباد ، بيروت/ب.ت

٢٥- ابن القوطية : ابو بكر محمد بن عبد العزيز :

تاريخ افتتاح الاندلس ، بيروت/١٩٨٢

٢٦- مجهـول :

اخبار مجموعة فى فتح الاندلس ،
تحقيق ابراهيم الابيارى ، القاهرة/١٩٨١ .

٢٧- مجهـول :

الحلل الوليقة فى ذكر الاخبار المراكشية ،
تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمانه ، الدار البيضاء/١٩٧٩ .

٢٨- المقرى :

نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ،
تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، بيروت/ب.ت .

٢٩- ابن المهدى الغزال : احمد

نتيجة الاجتهاد فى المهادنة والجهاد ،
تحقيق اسماعيل العربى ، بيروت/١٩٨٠ .

٣٠- اليعقوبى :

كتاب البلدان ، ليدن/١٩٦٧

٣١- ياقوت الحموى :

معجم البلدان

(ب) مراجع :

١ ــ السيد عبد العزيز سالم :

تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ، بيروت/١٩٦١

٢ ــ آنخل جنثالث بالنثيا :

تاريخ الفكر الاندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة/١٩٥٥

٣ ــ ترند : ج.ب :

أسبانيا والبرتغال ، (من كتاب تراث الاسلام) ترجمة حسين مؤنس

٤ ــ حسين مؤنس :

ــ فجر الاندلس ، مدريد/١٩٥٩

ــ رحلة الاندلس

ــ معالم تاريخ المغرب والاندلس ، القاهرة/١٩٨٠

٥ ــ حمدى عبد المنعم محمد حسين :

اضواء جديدة حول ثورات طليطلة فى عصر الامارة الاموية الاسكندرية/١٩٨٨

٦ ــ شكيب ارسلان :

الحلل السندسية فى الاخبار والاثار الاندلسية ، بيروت/١٣٥٥هـ

٧ ــ عبد الرحمن على احجى :

التاريخ الاندلسى ، دمشق/١٩٨٧

٨ ــ عبد العاطى محمد الورقلى :

أوراق اندلسية ، بنغازى/١٩٩٢

٩ ــ عبد الله انيس الطباع :

القطوف اليانعة من ثمار جنة الاندلس الاسلامى الدانية ، بيروت/١٩٨٦

١٠ــ عبد المجيد نعنعى :

تاريخ الدولة الاموية فى الاندلس ، بيروت/١٩٨٦

١١ــ عيسى الناعورى :

فى ربوع الاندلس ، تونس/١٩٧٨

١٢ـ ليفي بروفنسال :

مادة طليطلة ـ دائرة المعارف الاسلامية

١٣ـ محمد رياض :

الاصول العامة فى الجغرافيا السياسية والجيوبوليتكا ، بيروت/١٩٧٤

١٤ـ محمد عبد الله عنان :

ـ الاثار الاندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال ، القاهرة/١٩٦١

ـ دولة الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، القاهرة/١٩٦٩

ـ دولة الاسلام فى الاندلس

١٥ـ محمد محمود الديب :

الجغرافيا السياسية ، أسس وتطبيقات ، القاهرة/١٩٨٤

١٦ـ مورينو : مانويل جوميث :

الفن الاسلامى فى اسبانا ، ترجمة لطفى عبد البديع والسيد عبد العزيز سالم ، القاهرة/ب.ت

مراجع اجنبية

1. **Irving T.B.** : Falcon of Spain. Lahore, 1962.

2. **Beranrd Lewis**; Islam from tfe Prophet Muhammad to the capture constantinople Vol. I. Canda & U.S.A., 1974.

3.. **Dozy. R.**; Spanish Islam (Translated to English by F.G. Stokes) London, 1972.

4. **Haines, C.R.**; Christianty and Islam in Spain (A.D. 750-1931). New York, 1972.

5. **Jan Read,** The Moors in Spain and Portugal. London, 1974.

6. **Joseph de Smogyi**; Travel of Muslim Spain, M.w. 53 (1963) pp. 244-251.

7. **Levi - Prouencal;** Histoire de L'Espagne Musulmane.
Tom. I & II. Paris, 1950.

Tom. III. Paris, 1970.

8. **Levi-Provenças** Alphonse VI et la prise de Toledo (1058). Hesp.
PP. 33-49.

9. **Legendre, Maurice;** Nouvelle Histoire de Espagne Paris, 1938.

10. **Marquez R.C.** Descripetion de Al-Andalus Al-Andalus xxxix(1969)

11. **Thomas F. Glick;** Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages. New Jersy, 1979.

فهرس الموضوعات

تم الطبع بمطبعة جامعة القاهرة
والكتاب الجامعى
البرنس حمودة حسين
١٩٩٣/١٢/٢٦

رقم الايداع ٧١٣١ / ١٩٩٣

الترقيم الدولى 977-00-5469-0

(مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى ١٩٩٢/١٧٨٩/٥٠٠)